يسرا البريطانية

أحمد جمعة

يسرا البريطانية

روايـــة

دار الفارابي

الكتاب: يسرا البريطانية

المؤلف: أحمد جمعة

http://loutespublishing.com/

صورة الغلاف: الفنان ايريك ـ فرنسا

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان

ت: ٣٠١٤٦١(٠١) – فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)

ص.ب: ١١/٣١٨١ – الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: تموز ٢٠١٥

ISBN: 978-614-432-348-9

© **جميع الحقوق محفوظة**

تباع النسخة الكترونياً عبر موقع الدار.

رقم الإيداع بإدارة المكتبات العامة ـ البحرين ٥٨٤/ د ع/ ٢٠١٤

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار.

المحتويات

إهداء ١١
يسرا الزبيرية ١٣
يسرا البريطانية ١٤٠
يسرا القرمزي ٢١٩
يسرا الإرهابية ٢٩٣
يسرا البريطانية ٤٠٥
صدر للمؤلف.. ٤٠٧

الموت هو النداء الأخير لنا لكي نستيقظ.

دوغلاس هورتون

إهداء

إلى ...

جبار الشريف الذي مات ولم يمت،

وإلى ...

ابنته يسرا القرمزي التي عاشت لتشهد التحول الكبير (المهزلة).

يسرا الزبيرية

(١)

«لماذا يختفي كل الذين أعرفهم؟»

«لماذا يهرب كل الذين أحبهم؟».

«كنت يسرا الهاربة من الزبير، وأصبحت يسرا القرمزي، ثم تحولت إلى يسرا البريطانية لينتهي بي المطاف إلى يسرا الإرهابية.

لماذا لم أعدم عندما حانت ساعة الإعدام؟

لعل ملاكي الصغير كان يحرسني من مكان ما في هذا الكون المجنون بالقتل.

لا أذكر كل ما مررت به، ولكن بعضه فقط، فقد عُطبت الذاكرة لشدة الأهوال، وما سيحكى عني هنا بلسان «أحدهم» هو جزء من الرواية فحسب، ولا أستبعد أن يجري التصرف في بعض الوقائع، لكن ما سيروى هو أقل بكثير مما جرى، سوى ما لم يحك لأسباب شخصية أو أمنية أو استخبارية، فهل كان حلماً أم كابوساً أم مجرد حياة امرأة وقعت في الفخ؟ لقد جرت الأحداث في البداية صدفة، ولكنها

سارت بعد ذلك بتخطيط دقيق متعمد، وكنت أنا الضحية التي وقعت في الفخ».

يسرا القرمزي

****

ولضمان السلامة، ومن أجلها، تم التصرف في جزء يسير من الوقائع والأسماء من حذف وإضافة لأن الأحداث لاتزال مستمرة.

أحمد جمعة

في فندق «H» بلندن تسلمت أول راتب لها كعاملة في قسم خدمة الغرف، تعلمت ترتيبها من خدمتها كنزيلة بأحد السجون بدبي حيث أدركت يومذاك، أنها لن تقبل كلاجئة سياسية لأسباب عديدة، منها أنها لم تثبت انتماءها، ولا نشاطها على المستوى السياسي، وإنما هناك قضية رفعت عليها في محاكم دبي بتسهيل الدعارة، وحتى هذه خرجت منها ببراءة بعد شهر ونصف شهر من الاحتجاز، ولم يثبت عليها شيء، فقررت وجهتها إلى بريطانيا من خلال تأشيرة سياحية، تحولت فيما بعد إلى احتجاز وتحقيق طويل ادعت من خلاله بأنها عذبت بسبب آرائها السياسية. ورغم توسط اثنين من رجال الأعمال الإنكليز لها وتقديم التسهيلات كتوكيل محامٍ ودفع التكاليف إلا أنها ظلت معدمة، وغير قادرة على التكيف مع الوضع الزريّ الذي جرى لها في بريطانيا، وتمنت في وقت من الأوقات السقوط في حفرة، أو أن تصدمها سيارة، أو يسقط عليها سقف المكان ولا تبقى في لندن أو تذهب إلى دبي، فقد خسرت نضارتها لفترة وأصابها الهزال، وغاب بريق عينيها الذي طال

بسببه المديح والغزل وهي تعمل في إحدى الوكالات السياحية التي تنظم رحلات جماعية «تورز».

يسرا القرمزي، من مواليد البصرة بالعراق، وخريجة كلية الاقتصاد بجامعة حلب والمقيمة بمنطقة أبراج الحمام، لم تكمل درجة الماجستير، والعاملة والموظفة لدى الخطوط الجوية التركية في لبنان، هي واحدة من النساء اللواتي قذفتهن ماكينة العنف في العراق فلجأت إلى الزواج بأحد رجال الدين، بعد أن وعدها بحياة كريمة انتهت منه بطلاق وعدد من الكدمات على وجهها التي تطلب منها أسابيع مشوبة بالمرارة، والقهر النفسي لتمحوها عن سطح خدها الأبيض كالحليب، ولكنها عجزت عن مسح تلك الكدمات من داخلها، فظلت قابعة كنتواءات أزلية لم تمحها تلك الأيام الكالحة بالمرارة، وهي تعبر الحدود العراقية التركية مخلفة وراءها الموت والدمار والأسرة المشردة على أطراف ثلاث دول؛ كانت تأمل من الليالي والنهارات السوداء بطعم الذعر، أن تزيح تلك البقع النفسية المحفورة في مشاعرها وهي تهرب من كنف الوحش البشري الذي تزوجها قبل النزوح إلى دبي أرض العسل والسهر، لكنها فوجئت بأن العسل الذي وجدته في المال والبذخ كان مغموساً بالوجع الناجم عن دهسها تحت بناية تزيد على ١٢٠ طبقة اسمها برج خليفة، حيث لم تنفع كل تلك السحب الرمادية وهي تعبر الطبقات العليا من البناية، ولا رائحة الصنوبر المنبعثة من حمامات الغرف العليا من محو آثار ليلة واحدة، اغتصبت من دبرها من

قبل الزوج الطارئ الذي استخدمها عدة أيام ثم هربت بعد أن كرهت عادته الغريبة حين يقرأ القرآن ويصلي ركعتين قبل أن يغتصبها كل ليلة.

قبل أن تصل إلى دبي تركت المكان الذي يعج بالآلاف من النساء والشيوخ والأطفال، وراجعت مكتب الخطوط الجوية التركية باحثة عن وظيفة أدنى من وظيفتها السابقة، ولكنها اكتشفت أن مكانها أخذ وليس أمامها في هذا البلد الذي يعج باللاجئين العرب من كل مكان سوى طريق واحد وهو البارات والملاهي، ولا مكان لشهاداتها وخبراتها في بلد تحلل من أدنى مقومات الحقوق البشرية ولا يوجد ما تأكل منه إلا إذا كانت تتدبر الحيل والمكايد، أو تبيع أثمن شيء تملكه كأعضائك أو روحك، وحتى هذه الأشياء الثمينة لديك لن تسعفك على سد رمق العيش، لم يكن أمامها سوى خيار الزواج برجل تصورت أن تكون معه، أقلّه، بمأمن من الوحوش البشرية الضارية ولو بضعة شهور حتى تتدبر أمرها، فكان لقاء عابر جمعها برجل غامض برز فجأة أمامها في إحدى ليالي الشتاء، والثلج ينهمر والصقيع يضرب عظمة جسدها، والجوع يستل منها ما تبقى من قدرة على التحمل، رأت فيه وهو يدنو منها بسيارة «جيمس» سوداء توزع المؤن ويلقي بالتحية ثم يخصها من بين اللاجئين بعطايا مميزة راوحت بين ملاءات من القطن والصوف وعلب الطعام وبضع أوراق نقدية من فئة الدولارات، أيقنت أنها ليست من ضمن المساعدات الخيرية، فشعرت بأن السماء العليا بعثت لها بملاك من دون الباقين من اللاجئين، جاء من وراء السحب

الشتوية الكثيفة ليرمم الفوضى في داخلها، كان شاباً في حوالى الثلاثين، أنيقاً ووسيماً وذا لحية طويلة لمست منها تدينه وشعرت من نبرة كلامه بالتقى الصارم، فأسلمت زمام الأمر وسايرت عباراته المخملية فتكررت زياراته ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع فتح مغارة علي بابا وفاجأها بطلب الزواج، وما هي إلا أيام حتى اختطفها إلى دبي ترانزيت ومنها إلى البحرين ليستقر معها في شقة خاصة اختارها لها في منطقة «البسيتين» في مدينة المحرق بمحاذاة البحر.

تطل السماء عليها أغلب الأوقات وحيدة، يحل المساء وينتصف الليل ويلوح النهار من خلال نافذة الغرفة المطلة على البحر، وتلوح لها البنايات الشاهقة من بعيد فتتساءل عن هوية السكان الذين يقطنون هناك، وماذا يفعلون في هذه الساعات الطويلة التي تمر عليهم وعليها، محاولة اختراع قصص في خيالها عما يدور وراء الحيطان، تقطع الوقت الممل، تفتح التلفاز على قنوات مضجرة، تتصنع المتابعة وتحاول الاندماج في مسلسل أو فيلم عربي، غير أن مسلسلاً آخر لا تستطيع انتزاعه من رأسها، إذ تدور أحداثه خلف السياج وفي العرى بين الجوع والبرد والتشرد وأفراد تعرفهم يرزحون تحت خط الموت البطيء بينهم إخوة وأخوات، أطفال، أصدقاء، صديقات، معلمات، جيران، أخوال، أعمام وأشخاص لا تعرفهم، ولكنها كانت تشاهدهم يعبرون الطرقات ويقطعون الممرات قبل أن يهطل مطر القنابل والصواريخ العابرة من السماء والبحر، لتحول الأحجار والصخور والأجساد إلى

كتل مختلطة، ثم تبدأ أجزاء المسلسل الدامي بعد الاحتلال ثم الحرب الأهلية ثم النزوح الذي انتهى بها إلى هذه الشقة الصغيرة المطلة على البحر في البحرين.

«ماذا أصنع هنا؟» كانت تردد السؤال عشرات المرات في اليوم، عند إقامتها هناك، ينتزعها من أمام التلفاز، والبحر الذي ضجر من تأملها المتواصل له إلى عالم الحدود والمطارات والهروب المتعدد الجهات، لا خروج ولا هاتف باستثناء الهاتف الأرضي الذي يستقبل مكالماته المتقطعة فقط، يبدي اهتمامه بها مرة، وأخرى يطلب الاستعداد لزياراته، يقضي ليلة أو نصفها أحياناً ثم يغلق الباب ويخرج تاركاً إياها تبحث عن خيوط الهرب في مخيلتها، بين القفز من رصيف يحترق إلى سفينة تغرق، تواجه خيارات عديدة أحلاها الاغتصاب شرعاً أو الدعارة أو الموت تشرداً، لاشيء يؤدي إلى الوظيفة، فقد سُدت أبواب الأعمال، والانتظار لا يسفر إلا عن الضياع والوحدة، والشهادة في زمن الحروب الأهلية، وأما اللجوء عبر الحدود فلا يمنح الفرصة للوصول إلى الوظيفة، وأفضل من وصلت إليه هو الشاب الشيخ يوسف الجناح، وها هي تقبع أمام النافذة تتمنى قرصاً منوماً من فئة الفاليوم أو مهدئ الزناكس وقد اعتادت هذه الجرعات قبل الحرب وأيام الامتحانات الجامعية وخلال مناقشة رسالتها الجامعية، ستكون محظوظة لو تحصل على هذه الأقراص وهذا منتهى حلمها، إذ إنه السبيل للخروج من هذا المأزق، ولكن كيف الخروج من هذه الشقة؟

ابتسمت وهي تتذكر حلمها بالزناكس، وتلك الأيام الدامية قبل أن تهرب إلى دبي ثم إلى السجن ومنه إلى لندن؛ كان الهروب وحده يشكل مسلسلاً، وها هي الأقراص في متناول يدها ولم تحقق سعادتها، بل تكفي لتنام خمس ساعات متواصلة دون أن تصحو في الليل وتستعيد أشباح السياج والخيام وحرس الحدود، لتبدأ مناوبتها بفندق «H» الذي وفّر لها الملاذ في الأيام الأولى، ووعداً طال مداه بترقية نقلها إلى قسم الإدارة في أول فرصة تتوافر، ولكن السنوات مرت قبل ذلك، متنقلة بين فندق وآخر وهي تعيش مع غرف النزلاء وأوساخهم وأسرارهم، وتكيفت مع هذا الوضع وأحبته وأصبحت جزءاً من الحياة الغامضة المليئة بالإثارة وهي تقضي الساعات الطويلة من يومها بين غرف الفندق تتأمل وتدرس الأوضاع المختلفة لكل ساكن من خلال ما تحويه حقيبته من محتويات، وعبر مخلفاته وما يفعله أو يمارسه من أعمال طوال فترة إقامته في الغرفة. كانت في الأيام الأولى تتجنب الاقتراب من حقائب المقيمين أو تفتيش أغراضهم وتكتفي فقط بتحريكها أثناء التنظيف، ولكنها مع الوقت واعتياد العمل، راحت تدريجاً تتمعن في كل ما تقع يدها عليه وتتفحص أدوات النزيل وكيفية استخدامها وما إذا كان نظيفاً مرتباً أو قذراً مهملاً. تعرفت إلى أنواع من الأشخاص سواء كانوا رجالاً أو نساء، وعلى مستوى درجاتهم المعيشية من خلال أنواع الممتلكات من ساعات يد وملابس وتعرفت إلى أنواع مخادعة وأخرى غبية، وآخرين من أصحاب المظاهر الكاذبة. كانت تتأمل

بعضهم على سبيل المثال ممن يرتدي ملابس خارجية غالية الثمن ومن ماركات عالمية، في حين أنّ ملابسهم الداخلية رخيصة وبعضها حتى متهرئ، وبعضهم يلقي بكثير من المواد كأمواس الحلاقة من أول استخدام لها، وبعضهم يعيد استخدامها مرات، بل إن بعضهم يقتني إكسسوارات ثمينة ولكنه يخفي مجموعة النظافة اليومية، التي يوفرها الفندق في حقيبته ويطلب غيرها، كانت الغرف بالنسبة إليها عالماً واسعاً وخيالياً، تقضي الساعات في البحث والتقصي عن هوية المقيم، البعض يثيرها ويلفت انتباهها، فتفرط في اهتمامها بشخصيته، والبعض الآخر يقرفها، وآخرون يثيرون اشمئزازها، ورغم أن هناك مهلة زمنية محددة لها وهي من عشرين دقيقة إلى ثلاثين لكل غرفة ما عدا الغرف المزدوجة، إلا أن بعض الغرف لا تستغرق منها عشر دقائق، وبعضها الآخر يستهلك الوقت كله، يعتمد ذلك على طبيعة الساكن ونظافته أو قذارته، كان البعض يثير اهتمامها لطريقته في العيش، فتدرس شخصيته وتتعرف إلى مضمونها من أسلوبه في العيش وترتيبه وطريقة تعامله مع محتويات المكان، وآخرون لا يستحق الأمر معهم سوى تنظيف المكان والإسراع بالخروج من الغرفة. كان عالم الغرف برمته يشكل لها عالماً قائماً بذاته يعكس العالم الخارجي، وتستدل على ذلك من جنسيات المقيمين ومذاهبهم، فغالباً ما تتعرف إلى هؤلاء من جوازات سفرهم التي يتركونها على المنضدة أو عبر ملابسهم أو من خلال ما يحملونه من كتب ومجلات، وأكثر ما تكشف هوياتهم هي الكتب السماوية

التي يجلبها بعضهم كالقرآن والكتاب المقدس والإنجيل، وما كان يثير ضحكها وسخريتها هو بعض المواقف ذات المفارقة كوجود أعداد هائلة من الواقي الجنسي أو بعض أنواع الأدوية والأقراص مثل أقراص الفياجرا مخبأة في المناضد الصغيرة بقرب أسرة النوم، بالإضافة إلى أشياء كثيرة مثيرة للريبة، وكان أخطر ما اكتشفته ذات مرة مسدس صغير مخبأ أسفل الوسادة، فأصابها الفزع ونبشت ذكريات الحرب في مخيلتها، فأسرعت بإبلاغ الإدارة التي طلبت منها التكتم على الأمر وبأنها ستتصرف، وعندما صادف في اليوم التالي والتقت المقيم في الغرفة، خمنت جنسيته من لون بشرته ولهجته الإنكليزية المشوبة بالنبرة الروسية وهو يحييها، كان ذلك أول أسابيع عملها في فندق «H» بلندن الذي بدأت منه ثم عادت إليه ثم استقرت في فرع آخر بمنطقة «كينغستون» خارج لندن داون تاون.

«أنا مجرد خادمة غرف وإن تغيرت التسمية وجعلوها مدبرة غرف فأنا في النهاية خادمة».

تهاجمها الأفكار على شكل هواجس، وتتصدر نهارها وترحل معها حتى تركن رأسها إلى الوسادة في نهاية يوم العمل، تبحث عن الأسرار والإجابات فيما وصلت إليه، هي لا تعلم بأنها تملك الكثير ولكنها لا تعمل على استغلاله، كانت تتأمل وجهها في المرآة وتبحث عن معنى لشكله، وتغوص في أساريره وتسبر غور الملامح المطلة من تفاصيل شكلها لعلها تصدق بأنها على درجة من الجمال؛ فرغم كل ما

تعرضت له من تحرش منذ كانت ترتاد الجامعة حتى اليوم، فإنّ درجة الشك في نفسها وشكلها لم تتراجع، فما إن تبدأ بطرح الأسئلة حتى يتبدد شعورها بالثقة، وكان مصدر الشك اقتناعها بأنها لو كانت على درجة من الفتنة لما تعرضت للتشرد والنزوح الدائم. كانت المرات التي استسلمت فيها لغزل البعض، حينما عملت في إحدى الشركات بدبي بدافع الوصول إلى مخرج من الضياع من دون أن تفرّط في شرفها، كانت معادلة صعبة بين الرضوخ لتحرشهم وتحقيق ما تصبو إليه، وبين الممانعة والاستمرار في النزوح من بلد إلى آخر، وقد ذاقت الرضوخ مرة بالزواج من الشيخ يوسف الجناح بعد الانسلاخ من حياتها الطبيعية، لترتدي الحجاب ثم البرقع ثم تُعزل في شقة بعيدة عن الحياة العامة وتخضع لرقابة صارمة باستثناء الأكل ومشاهدة بضع قنوات تلفزيونية أغلبها دينية، وإذا خرجت من الشقة معه فلن تشاهد سوى البشر يتحركون في السوبرماركات والأسواق العامة من دون أن يكون لها رأي في أي مما تشاهد أو يجري حولها.. قضت بضعة أشهر في البحرين لم تكلم سوى الزوج ولم تسمع سواه ولم تحتك بغيره من البشر وكأنه الرجل الوحيد على وجه الأرض، وعندما تلتقي بعض النسوة على سلم البناية التي تسكنها وهي معه تكتفي باختلاس النظر لترى في وجوه النسوة علامات التساؤل والشكوك، لم تعرف عن البحرين طوال فترة إقامتها فيها سوى جدران الشقة وأضواء العمارات من بعيد وما يبثه تلفزيون البحرين من أخبار محلية، وعندما تمكنت من

الهرب والصعود إلى الطائرة، وهذه لها قصة أخرى عرفت أن البحرين تشبه دبي في وجوه كثيرة وتمنت لو عاشت فيها بصورة طبيعية ومع زوج طبيعي كالبشر، تمنت بعد هروبها أن تعود ولكن من غير هذا المهووس بالجنس لترى البحرين كما سمعت عنها.

مرت في الكثير من المواجهات، تذكرت أن ما يحدث لها في بريطانيا هو نعيم الجنة، مقارنة بما جرى لها في الزبير وحلب، وحتى عندما كانت في البحرين، كان سجنها في تلك الشقة الفاخرة لا يختلف عن إقامتها في خيمة على الحدود، حتى عندما قطنت شقة بناطحة للسحاب في دبي، كانت معرضة للمساومة الشرهة بين أن تعمل مومساً وبين أن تخرج من المكان «إن ما يحدث لي في لندن اليوم، ليس إلا صفقة مع الحياة ومغامرة لا أعلم أين تنتهي بي».

كانت الأحداث الجارية في الشوارع مخيفة، ولكنها استسلمت لقدرها بشيء ما دامت ليس في وارد تعرضها للطرد من هنا بسبب خطأ ترتكبه قبل أن تنال الجنسية البريطانية، عليها أن تتنازل عن كل شيء فقدته لتبقى هنا، الأسرة والأخوة والبيت والوطن وأصدقاء الطفولة وكل التاريخ والميراث، تركته وراءها وحتى جبار الشريف والدها الذي كان بمثابة بوابتها على الدنيا «اختفى ولا أعلم إن كان حياً يرزق أو في عداد الشهداء أو الأموات بحسب الحالة».

«جبار الشريف القرمزي»

يرنو مع الصمت، ويطفو على السطح كلما اتسعت فجوة الضياع،

يختفي ويبرز ولكنه محفور في الوجدان كالخلايا الحية تتحرك بداخلها كلما تحركت المشاعر، ضاعت الأسرة كلها في أهوال ضياع الوطن، لكن جبار الشريف ظل في الحلم ممسكاً بيد تلك الطفلة الزبيرية التي مشت وحدها في الطريق الضبابي.

****

«يجب أن أسرع بتحصيل الجنسية، لا أحد يعلم ما يخبئه الغد لي مع هذه الأحداث الدامية هنا».

انطلقت تلك الأفكار برأسها عندما أطلت ألسنة اللهب في لندن برأسها عبر الشارع الذي اعتادت قطعه في العودة إلى غرفتها المتهرئة في حيها السكني الفقير، وهو واحد من الأحياء القليلة المتبقية في العاصمة البريطانية والمهدد بالإزالة، أصبحت لندن مدينة الأثرياء، هذا ما تقرأه في الصحف البريطانية كل يوم، كان الحي المطل على الطريق ٢٥٣، والمتفرع من الشارع العام المحاذي لمتجر الأدوات الكهربائية قد تعرض للنهب قبل ليلة، استيقظ مارد الخوف وانطلق شبح ليلة القنابل الفسفورية على الزبير، كانت قادمة بخطوات سريعة من بقالة الحي المظلم نتيجة تحطيم مصابيح الإنارة وهي تحث الخطى بقدمين مرتجفتين، تطايرت الروائح المحترقة من حولها، لم تميز ما إذا كانت لمسيل الدموع الذي ما زالت تختزن عبقه منذ إقامتها بحلب، إبان الانتفاضة الحلبية، أو من احتراق المولد الكهربائي للمنطقة الذي في إثره عم الظلام «لندن تحترق؟ لا أصدق». عبرت الكلمات

في سرها غير مقتنعة بما تشاهد، الناس تهرب من الشوارع وتختفي في أي من الأمكنة تصادفها حتى لو لم تكن واثقة بما فيها، ولكنها أقلّه، تتجنب المواجهة مع الأطفال الثائرين في الشارع، كادت الليلة الماضية تكون ضحية لأحدهم لولا ظهور شبح سيدتين صرختا فيه، في وقت استغربت عدم وجود رجال الأمن في هذه المنطقة الخلفية من لندن «لن يعبأوا بها لأنها لا يسكنها الأغنياء»، كانت تلك عبارة «روني» زميلها في قسم خدمات الغرف، ينتقد الحكومة البريطانية على تقاعسها عن فرض الأمن منذ اليوم الأول لاندلاع الأحداث، وقد ابتعدت عنه لمجرد سماعه يتحدث بتلك النبرة خشية أن تكون مشاركة معه في انتقاد الحكومة، الأمر الذي تتجنبه مثلما تتجنب كلباً هائجاً يسد الشارع من حولها، كانت تأمل الإقامة الدائمة «لن أسمح بأي خطأ يعترض طريقي حتى ولو تحدث سكان بريطانيا جميعهم، فلن أفتح فمي بكلمة»؛ كان هذا شعورها ليلة احترقت لندن وتصاعدت أعمال الشغب، حتى عندما بدأ التصدي للمواجهات مع الشرطة البريطانية في اليوم الثالث التي امتدت إلى الأحياء التي تقطن أحدها، ظل موقفها ثابتاً ولم يتزعزع بالامتناع عن الخوض في النقاشات التي سادت محيط العمل بالفندق، كانت تكتفي بمتابعة الأخبار من تلفازها الصغير عندما تعود منهكة من العمل، وتتجرع كأساً من الفودكا الصرفة. كانت تتابع ما يحدث عبر وسائل الإعلام، وكلما سمعت عن تصاعد الأحداث، تضاعفت نوبات الذعر لديها واستعادت مشاهد الزبير وحلب، امتد

الشغب إلى مدينة بيرمنغهام واتسعت رقعة المواجهات وبدأت تتفاءل لدى سماعها بإلقاء القبض على أعداد ممن تورطوا في أحداث الشغب والعنف. كان الخبر الذي توقفت عنده، فيما ظلت السيجارة عالقة بين شفتيها لدى سماعها بيان مكتب ديفيد كاميرون عن قطع عطلته في إيطاليا والعودة إلى لندن لمواجهة الشغب المتصاعد في العاصمة. كانت تسمع طوال الوقت تعليقات زملائها في العمل حول رئيس وزرائهم والانتقادات اللاذعة من بقائه خارج البلاد منذ أن اندلعت الأحداث.

عندما أطلت وزيرة الداخلية البريطانية «تريزا» إثر اجتماعها مع رجال الأمن والشرطة، ابتسمت وثار فضولها أن تواجه امرأة كل هذا الشغب. «في حلب حاول رجال منع ذلك ولم يفلحوا، فهل تقدر هذه السيدة على ذلك؟». كانت تتساءل وذهنها عالق بصور حلب والدمار الذي لحق بالزبير، وها هي المشاهد تتكرر، وأين؟ في لندن، نُهبت محال تجارية، وأحرقت العديد من الممتلكات العامة والخاصة، بعد اليوم الرابع لم تتمكن من الذهاب إلى العمل وعندما اتصلت بالفندق للاستفسار خشية أن تسجل غياباً، نصحها «فلين» بألا تخرج اليوم، فقد بدأت الاشتباكات بين شرطة مكافحة الشغب والشبان الهائجين، وقد بثت القنوات التلفزيونية، صور الشغب إذ ظلت طوال اليوم تتابع الصور من التلفاز ولم تتوقف عن التدخين وتجرع الفوكا، بعدما امتدت الاشتباكات حتى أقصى المدينة.

تمكن الشباب الهائجون من نهب المتاجر المختلفة وأشعلوا النيران في السيارات وحاويات القمامة، واستولوا على الشاحنات وأفرغوا محتوياتها.

«يسرا، من الأفضل أن تنامي عندي، أخشى عليك الغوغاء، تعالي إلى كينغستون».

كانت هذه أول مرة تسمع فيها عن مقاطعة «كينغستون»، خمنت أن تكون في مكان معزول، ينفرد فيها الرجل وتكون ضحية هذا المهووس بها الذي ما فتئ، منذ أن عملت بالفندق، يلاحقها بالنظرات الشبقة وبأنفاسه التي ينبعث منها مزيج من رائحة الويسكي الرخيص وبقايا الطعام. «أفضل الموت في الشارع على يد أهوج من العزلة ساعة واحدة مع هذا الرجل»، قالت ذلك في سرها ولكنها ردت عليه بشكره وتقديره لها واعتذارها مبررة ذلك بعدم قدرتها على النوم في مكان مختلف عن مكانها.

«اعتدت النوم في سريري حتى عندما كنت أنام مع أسرتي».

كان هذا ردها عليه، حدث ذلك في بداية معرفتها به، ثم أدركت مع الأيام التالية أن الرجل بالرغم من هوسه وتحرشه العفوي بها وخلوه من أي روح عدائية انطوائية غريبة كما هي حال أغلب الإنكليز، لكنها لا تطيق مجرد الحديث معه، فلا شكله الخارجي ولا سنه، إضافة إلى أنه متزوج وله أسرة « لا شيء يغري بالتودد إليه، ولكن لا مانع من استغلاله». لفت انتباهها أمر وهو اتصالاته السرية بأحدهم وبدا لها ذلك كما لو أنه على علاقة بشيء ما.

قارنت بين الأيام التي عاشتها في الزبير أثناء القصف المرعب الأشبه بالألعاب النارية، وبين الليالي السوداء الدامية بحلب وبرد الخيام على الحدود، بلا طعام ولا دثار، وبين مجموعات هائجة في شوارع لندن، تطاردها الشرطة وتضيق عليها الخناق، اعتبرت ذلك نزهة قياساً على ما مرت به من أهوال، لم تشعر بذلك الخوف الذي تملك بعض سكان الحي الذي تقطنه وهم يغلقون عليهم الأبواب في الليل خشية متسللين أو هاربين ممن يطاردهم الأمن الإنكليزي.

****

أول ما لفت نظرها في بريطانيا وجوه الناس الكئيبة في الصباح الباكر، شدتها تلك الظاهرة، ولطالما تساءلت فيما تتساءل طوال اليوم في داخلها كعادتها، عن سبب هذه الكآبة الزريّة التي تبدو على وجوه الناس هناك وخصوصاً المواطنين الإنكليز، عكس المقيمين العرب الذين رأت حركات أجسادهم ونظرات وجوههم مختلفة عن الإنكليز الأصليين أنفسهم. بعد سنوات وعن طريق الفضول عرفت من أحد العاملين من الزملاء الإنكليز بأنها الأزمة المالية التي تمر بها بريطانيا، والتي انتزعت من أفراد الطبقة الوسطى والمحدودة كل ما كانوا يتمتعون به في السنوات الماضية من ترف، أما بالنسبة إلى المقيمين العرب واللاجئين فإن هؤلاء على حد ما فهمت يتلقون المساعدات والتمويل من خارج بريطانيا بوسائل مختلفة عبر الشبكات المنتشرة هناك، عرفت ذلك حينما حاولت اللجوء إلى هذه الوسيلة بادعاء أنها

لاجئة سياسية وأنها عذبت واغتصبت وشردت عبر الحدود وتعرضت للفرز الطائفي، كانت تتعمد إخفاء انتمائها الطائفي، إلا عندما يفرض عليها ذلك، لقد جردتها السنون المريرة منذ خروجها من الزبير، المدينة الساحرة لتصبح الطائر المحلق على حدود المدن والضائع في المطارات ومحطات الترانزيت لتبقى صورة الزبير القديمة في سيقان القصب ومياه المجاري ونخيل البصرة شواهد على الزمان الغادر.

****

(٢)

خرجت يسرا القرمزي من رحم امرأة كويتية، بشرتها ذات لون بصراوي في الثالث عشر من ديسمبر من عام ١٩٨٥، وشهدت النور في منطقة من الزبير بالبصرة في أرض مغمورة بالمياه، تنمو فيها سيقان القصب والبردي طبيعياً وتكون بارتفاع الإنسان المتوسط الطول. كانت البلاد تغرق في حرب ضروس مع الفرس ولم تترك خياراً في العيش الهادئ الذي اعتادت الأسرة المكونة من والدها العقيد جبار الشريف الذي غادر للالتحاق بالجبهة مع إيران؛ والدتها نجوى القطان من عائلة كويتية تعرف إليها خلال التحاقه للعمل بالسفارة العراقية في الكويت عند تخرجه بعد انتهاء خدمته في الجيش بوظيفة ملحق لم تحدد هويته، وقد استدعي بعدها إلى الجبهة إثر اشتداد المعارك وفقدان الآلاف من الضباط والجنود هناك. كانت والدتها نجوى المرأة الحنطة كما كان يناديها زوجها، تعمل في مدرسة ابتدائية بالزبير وقد أجبرت على التقاعد بسبب عاهة أصابتها نتيجة حادث مروري، واشتملت دائرة الأسرة على شقيقين، فراس الأكبر وقد انتزع من طفولته والتحق بالجبهة، وسام الأصغر الذي ترك المدرسة وغاب في دهاليز الأحياء

والأزقة وجاب غابات النخيل والمزارع يعمل في مختلف المهن الصغيرة التي لم تناسب طفولته بعد أن خرج عن السيطرة بسبب غياب الأب وضياع الأم في شؤون الحياة الصعبة وهي تتدبر حياتهم بقدر المستطاع، أما يسرا فقد كانت الفتاة الوحيدة في الأسرة التي ضاعت بين شقيقين غابا في حقول البردي وأم ذاقت مرارة الوحدة والبحث عن الرزق، ووالد التهمته المعارك الشرسة ولا يعلم عنه شيء خلال عدة أشهر، سوى بضع مرات يصلهم فيها لأيام، ثم يختفي، ظل راتبه الصغير يربط بينه وبينهم كأسرة، وهذا ما أدّى إلى حالة العزلة والتوحد مع ذاتها باعتبارها الفتاة الوحيدة في المحيط، ولكنها، أي هذه الوحدة، ساعدت من جهة أخرى على خلق حيز شاسع من الوقت في التركيز على التحصيل الدراسي فيما بعد.

كان هناك شقيق ثري لوالدها جبار الشريف بحسب ما تناهى إلى سمعها، يعيش مرّات في مدينة حلب بسوريا، لديه أملاك ومصالح ولكنها لم تعلم عنه أكثر سوى أن اسمه هيثم الشريف، زرع ذلك برأسها أفكاراً سرعان ما نمت ونسجت من حولها عالماً خيالياً من الثراء، لم تصدق أن لها عماً في هذا العالم يمكنه أن يحقق لها الأحلام التي نبتت في عقلها منذ الطفولة، حيث تنتقل من مدرسة إلى عالمة آثار إلى طبيبة إلى عازفة بيانو ثم تستقر على سيدة أعمال. كانت تحلم بهذه العوالم وهي تتحدث مع والدتها، ولكنها لم تبح بكيفية الوصول إلى هذه المكانة، لكنها احتفظت في خزانة أفكارها السرية بالمغامرة

التي توشك أن تقدم عليها، جعلت من اسم هيثم القرمزي عنواناً جديداً لمغامرة الحقبة المجهولة التالية لو سدت الأبواب في وجهها واسودت الدنيا، أقفلت على الاسم في ذاكرتها واحتفظت بمفتاح لقادم الزمان لو كتب لها أن تفلت من آثار الحرب القائمة.

عندما بدأت تقرأ الأبراج، أيقنت أن هناك عالماً آخر يتشكل منه عالمنا الداخلي ويرتبط بالأفلاك، دأبت في ملاحقة ما تنشره المجلات والجرائد من عروض الأبراج، فتشكل عالماً سرياً اسمه برج القوس، كان عبارة عن مفتاح ولوج سرّ الأسرار، فقد حصرت كل ما له علاقة بالأبراج وراحت تقصه من الجرائد والمجلات وتحتفظ به في درج خصصته لأسرارها الصغيرة التي كانت بمثابة خزانة العمر، رأت ذاتها متوقدة، متحررة، امرأة من برج القوس، منفعلة باستمرار، عصبية مع صبغة من عزلة وفقدان للثقة بالآخرين، تجرح غيرها ولا تُجرح، كانت تعشق السهر وتتوق إلى التحدّي ولا تستسلم للفشل، وتتميز بالصرامة حتى مع ذاتها، تغضب ونادراً ما تسامح، مما جعلها تتساءل في وقت ما «هل أنا كذلك؟» فتبحث في أفكارها وتبدأ تقارن بين ما تقرأه وبين برجها، وتطابقه مع واقعها وتكرر السؤال «هل أنا كتلك المرأة؟». كثيراً ما كانت تغضب وتحنق ولكن لا تفصح عن غضبها وتكتفي بإغلاق باب الغرفة وتبكي.. قرأت ذات مرة في مكان ما لا تذكره اليوم أن «المرأة القوس تنضج مبكرة، وهكذا انتصرت لنفسها وهي تحرق سنوات الطفولة للوصول إلى النضج الإجباري، تجبرها الظروف على

تحمل مسؤوليات جسام، لا تضعف أمام التحديات ولا تهرب من مواجهة مصيرها، لا يمكن أن تخضع المرأة القوس لأي أمر خارج إرادتها، وتعشق أن تكون محط أنظار الآخرين».

كانت ترى في الأبراج سحراً ربانياً يتكون من حلقات الماء والأرض والنار والهواء، وسمح لها خيالها وهي تتدثر بشتاء ديسمبر أن تخترع لها حلقة، هي حلقة الثلج بحكم كونها من مواليد ديسمبر، وجعلت من برج القوس وهو البرج التاسع في دائرة الأبراج الذي ينتهي به فصل الخريف برجها العاجي الذي لا يصله أحد ممن يحيطون بها بمن فيهم والدتها التي بالرغم من كل محاولات التوغل في خزانة أسرارها لم توفق إلا في الأمور الصغيرة؛ لم يتسلل إليه فضولي ولم يقتحمه متطفل.

كان قضاء الزبير بمحافظة البصرة المكسو بالنخيل والزراعة والمياه والحشرات والذباب في بعض الفصول، يشكل لها عائقاً لتمد خيالها فيه وتتجاوز حدود البيوت والمساجد والطرقات المغبرة ولكنها كانت تجتاز تلك العقبة بتأمل النخيل والبساتين والمياه المتدفقة من خور الزبير حينما كانت ترافق والدها قبل أن تشتد المعارك.. كانت رائحة النفط والغبار النفطي هما ما تعبق به السماء ويفوح به شفق المساء في الزبير، لتتخيل فيما بعد وهي تعبر التاريخ عبق الزمن السحيق القادم من قبور الزبير بن العوام المدفون بسوق القضاء الكبير، والشاعر الحسن البصري وطلحة بن الزبير وبقايا منارة كأنها الأطلال يخيم عليها ظل رمادي أشبه بيوم غائم، كان قد صلى فيها الإمام علي

ابن أبي طالب، وظلت تشهد على تاريخ الزبير التي علقت بذاكرتها وهي تنمو ذهنياً وجسدياً ويتقبل عقلها التطور البيولوجي بسرعة أشبه بنمو سيقان القصب في المستنقعات المحيطة بالمكان، كانت الأولى على الطالبات منذ المراحل الأولى وكانت الأولى في سباقات الجري، عيناها دائماً وهي تبدأ الجري على خط النهاية وكأنها ترسم نتيجتها منذ الخطوة الأولى وهي تقفز في الهواء كأنها فراشة تكسر الفضاء من دون حدود تطرق لها، عبرت المسافات جميعها وخطت نحو التميز في كل المراحل التي تبلغها، ورغم ذلك لم تفك عنها العزلة.

كان عالمها منذ ولدت في الثالث عشر من ديسمبر هو مدينة الزبير الجديدة، التي جاءت على أنقاض الزبير التاريخية ببقايا القصور القديمة العائدة إلى قصور البصرة والتي تقع إلى الشمال من المدينة التي يشاطئها النهر وهو يجري باتجاه شط العرب، كما حفر الأهالي سلسلة أنهر صغيرة لتروي المدينة وبساتينها، وقد بدت، أي تلك الأنهار بوجود القصور حولها جنة الله حسب تعبير العوام، ولشدة حبها وتعلقها بتلك البيئة انغمست يسرا منذ بلغت العاشرة في البحث والتنقيب عن كل ما له علاقة بتاريخ الزبير، إذ راحت تقرأ كل ما تقع عيناها عليه من قصاصات تاريخية وتربطه بما تشاهده حولها من بقايا شواهد للمدينة القديمة التي بنيت من القصب والبردي وجذوع النخيل قبل آلاف السنين، وقبل أن تختفي كل تلك الشواهد إثر حريق البصرة الرهيب الذي في إثره قام الخليفة عمر بن الخطاب ببنائها مرة أخرى.

(٣)

«النيادة» كلمة، كانت كالبصمة من هالة أضفاها جبار الشريف بأحاديثه المتقطعة كلما سنحت الفرصة له للعودة إلى الدار، ظل يذكرها بمن تكون ولمن تنتسب وحررها ذلك من الخوف الدائم الذي زرعته توجيهات والدتها لها بضرورة الاختلاط بالناس والاندماج مع الآخرين. ركز جبار الشريف على النسب الأصلي العربي المنتمي إلى الجزيرة العربية وتحديداً منطقة نجد من المملكة العربية السعودية، فكان يكرر لها عبارته الشهيرة «نحن من أرض النبي محمد». أو عبارته الثانية التي سكنته أينما ذهب «أنا وأنت من أرض النبوة».

كان يطلق على كل من عاش في مدينة الزبير بأنه أصليّ، وعنى ذلك بالعربي، ظل يجاهر بأفكاره حول النسب لنجد والحجاز حتى خلال فترة الحرب على الزبير التي كان يرى فيها حرباً فقط على هذه المدينة التي شرفها عمر بن الخطاب حسب تعبيره لها، وقد سعت نجوى القطان باستمرار في مناكفته بشأن ما يتلوه من أفكار وقصص تاريخية على عقل طفلة لم تتجاوز السابعة من عمرها «دعك من شحنها يكفينا أننا ممزقون، كيف ستخرج هذه النبتة إلى العالم وأنت

تحشوها بهذه الكتل التاريخية الصفراء؟». كانت قصة الزبير التي قامت على أنقاض البصرة القديمة هي محور نسيج الأحاديث مع يسرا «كان جدك قرمزي اللون يعود إلى عهد الرجال الضخام من عصور الجزيرة العربية الغابرة، ولذلك لُقبوا بالقرمزيين، أصلك قرمزي يا ابنتي».

«هي زبيرية وكفى يا جبار»، كانت تلك عبارة نجوى القطان لزوجها وهي ترى نفسها أزيلت من قائمة الزبيرية، لكونها جاءت من الكويت ورأت في انحياز زوجها إلى ابنتها تهميشاً لها في العائلة المكونة من فراس الغائب هو الآخر في الجبهة، وسام الذي سمي بهذا الاسم تيمناً بصاروخ سام الروسي. وهو الآخر مشتت في الأحياء والأزقة ومستنقعات المياه وبين مزارع الطين وحقول القصب» ماذا يفعل؟ «لا أحد يعلم» كانت تلك شكوى نجوى القطان لزوجها كلما مرّ على الدار، وهي تفقد السيطرة عليه شيئاً فشيئاً لكنها استسلمت لقدر مكتوب، أن يتيه الطفل في أرجاء المدينة التي تفوح منها رائحة النفط، ومياه المجاري طاغية على روائح البساتين والمزارع التي تفوح من وقت إلى آخر كلما هبت رياح الشمال الجافة. كانت الرياح الجنوبية الرطبة واللزجة هي الغالبة على الحالة اليومية وقد انعكست في وجوه البشر وأكثر ما طفت على وجه سام الذي انغمس في الحقول والمزارع، كان يغيب عن الدار ساعات وأحياناً أياماً وقد أرجعت نجوى ذلك إلى تأثير الحرب الطاحنة التي كان يخوضها البلد مع الفرس حينذاك.

عندما سيطر الاحتلال الأميركي على أرجاء البلاد تذكرت

يسرا والدها المفقود من يومها، وشعرت بأنها- وحيدة في العالم فاستشعرت الخوف والقلق منذ ازدهرت حالة الاغتيالات والخطف وانتشرت مهنة التجسس على الزبيريين وعمّ الذعر الأحياء السكنية المجاورة للحواجز الأمنية المزروعة على البوابات والمدن في مناطق من البصرة. وقد شملت حملات المطاردة في البداية الجنود والضباط ثم امتدت لتشمل علماء وأطباء ومهندسين وشباباً من أهالي الزبير. كانت هناك قوائم سوداء لا أحد يعلم من يضعها ولا من يسربها تطارد سكاناً بعينهم، وقد زرع ذلك الفزع في قلب الأم التي بدأت تستشعر أياماً حالكة قادمة، ومع تزايد الهروب والاختفاء بدأت الفتاة الصغيرة تستعيد قصص والدها عن العم الثري المقيم بالشام، فبدأت نسج سيناريوهات العبور للوصول إلى حيث يقيم الرجل، ولم تجاهر بأفكارها تلك واكتفت بالبحث عن وسيلة للهرب واستعجلت وضع الخطط مع توارد الأخبار عمن قتل ومن هرب.

****

«كانت ليلة السادس عشر من يناير تلك ليلة ساحرة، بل ليلة نورانية»، بتلك العبارة روت نجوى لأهلها في الكويت فيما بعد عن قصف الزبير. كان العام ١٩٩١ منعطفاً ولدت فيه أسرة جبار مرة أخرى، وبدأت منه رحلة طويلة قاسية مع محنة التشرد تدريجاً؛ فمنذ تلك الليلة لم يعد الزوج أو الأب جبار الشريف إلى الزبير، اختفى بلا علم، كان يوم انتهاء المهلة النهائية التي منحها العالم للعراق للانسحاب من

الكويت يوماً غائماً وشديد البرودة وقاسياً على الأسرة التي تمزقت بين أم كويتية تريد تحرير أرض أهلها، وبين ولائها لزوج يقاتل ضد إرادتها، كانت ترى في الحرب اختباراً لعواطفها وهي ترى بأم عينيها طائرات قوات التحالف الدولي تشن حملة جوية مكثفة وواسعة النطاق شملت أرض الزبير كلها «هكذا رأيت يومها صورة الحرب لأول مرة»، عكس والدتها التي رأت في تلك الطائرات أملاً بعودة أهلها إلى ديارهم، كانت الأحاسيس ممزقة حتى النخاع، الطفلة ترى الحرب في الزبير والأم ترى الحرب في الكويت، والأب يرى الحرب الثانية بعد إيران على أنها حرب الكرامة، كل رأى الحرب من زاويته الواسعة أو الضيقة، فالأمر نفسه ما دامت الحرب حرباً، يسرا رأتها ألواناً تظلل المكان من الشمال إلى الجنوب «طمست مشاعري الجياشة في البداية كنت غير مكترثة»، ثم سرعان ما طفت مشاعر الخوف، ظلت تنتظر فراساً يأتي من الجبهة لتحضنه وتقفل عليه باب الدار حتى لا يخرج ولا يعود كما حدث لوالدها.

كانت طائرات العالم تقوم بمعدل ٢،٥٥٥ غارة يومياً، استُخدم خلالها ٦٠،٦٢٤ طناً من القنابل، وكان لإعلان الإذاعة العراقية أن «أم المعارك قد بدأت»، أثر في حياة الأسرة الجبارية، فكان الموت يمشي على أقدامه يبذر الفجيعة أينما ير بشراً على الأرض، في هذا المناخ الأسود تسللت الرومنسية وعالم الخيال الواسع من عقل الطفلة وزرع مكانها امرأة مذعورة على أسرتها تخشى الضياع.

كانت القنابل الذكية والقنابل العنقودية وصواريخ كروز، تبدو وسط سماء ليل الزبير وكأنها ألعاب نارية للطفلة التي فهمت أن وراء ذلك موت الكثيرين، وقد يكون من بينهم والدها، ولكنها لم تعلم بما سيجري خلال السنوات العشرين القادمة.

****

(٤)

في الغرفة رقم ٢٤٦ بفندق «H» انزلقت لأول مرة في الانسياق وراء فضولها بعد ثلاثة أيام من بدء العمل في الغرف إثر انتهاء فترة التدريب، فتناولت جرعة من زجاجة فودكا كانت لا تذكر إن كانت في نصفها أو أقل، كانت على طرف طاولة المرآة، الساعة الحادية عشرة عندما بدأت التنظيف وأغرتها الزجاجة وكأنها تدعوها لتفتحها، ورغم أنها وحدها لكنها لاإرادياً التفتت حولها وأخذت الزجاجة معها إلى الحمام، وهناك رشفت من غطائها جرعة ثم أسرعت بإعادتها إلى مكانها. كانت سياسة الفندق تقضي بعدم إغلاق الباب طوال فترة التنظيف إلا عندما تقوم بتنظيف الحمام أو يكون المكان آمناً من أي عابر قد يتسلل بغتة؛ شعرت بنوبة ذعر سرعان ما زالت إثر سريان الشراب في مفاصلها وأمدها بنشوة عابرة، صادفت وجهها فجأة في المرآة وهي تنظفها، فتوقفت عند خطوط رفيعة بارزة أسفل جفنيها فتوجست من أنها بدأت تكبر من دون أن تحقق أيّاً من أحلامها التي طالما راودتها خلال دراستها الجامعية، كانت هذه بداية تورطها السري مع نزلاء الغرف ليتسع الأمر فيما بعد بالتفتيش في كل ما تقع يديها عليه

من ممتلكات أو أوراق ووثائق، من دون أن تجرؤ على سرقة أي شيء حتى لو كان مرمياً بالزبالة.

الأيـام والأسابيع ثم الأشهر، توالت وبـدأت تعتاد العمل ويزول التوتر كلما أخذت في الجري وراء فضولها، راحت تتعرف إلى الأشخاص والجنسيات والميول والعادات التي عليها هؤلاء، وقد شكل ذلك مصدر إلهاء من القلق المزمن الذي كانت عليه منذ عبرت الحدود لأول مرة؛ المرة الأولى التي شعرت فيها بالقلق يوم ودعت من تبقى من أسرتها في البصرة بالعراق، وتوجهت إلى مدينة حلب للالتحاق بالجامعة. هناك رافقها الشعور بالخوف من الوجوه والسيارات العابرة وأصوات البشر ورنين الهواتف، ثم بدأ كل ذلك يزول مع بداية اختلاطها بطالبات الجامعة بالإضافة إلى اندماجها في السكن مع العائلة التي ينحدر منها والدها والتي هيأت لها مناخاً أسرياً ساعدها على الاندماج في الحياة اليومية الرتيبة بتفاصيلها المملة التي تبعث على الهروب إلى التدخين سراً وممارسة العادة السرية لتفريغ شحنة التوتر من دون أن يكون لذلك علاقة بتخيل أشخاص أو صور بقدر ما كان لجوءاً إلى أسهل وسيلة للخروج من حصار الوحدة، هالها فجأة وهي تجد نفسها منجذبة إلى الفتيات أكثر من الرجال من غير ميول مثلية، ومع الوقت حاولت طرد تلك المشاعر والهروب نحو عالم الرجال بالتقرب من بعض الشباب الذين شعرت بالميل والثقة نحوهم.

****

ما إن تفتح عينيها في الصباح، حتى تبدأ بفحص مشاعرها قبل أن تنهض وتتجه إلى الحمام، فإن كان شعوراً مقيتاً أو كئيباً تستسلم بضع دقائق في الفراش محاولة تغيير إحساسها تجاه الكون كله والتغلب على الحالة الزرية بإشعال فكرة مضيئة في رأسها تجاه المستقبل، وترسل إشارة إلى عقلها الباطن مفادها أن كل شيء سيكون على ما يرام، وعندها تتغير الحالة وتنهض بعد أن تفرك عينيها وتتناول كأساً ساخنة من الحليب، وتفتتح يومها بالعمل مع الغرف بحسب الجدول المعد لها وسط مناخ رتيب تكسره بتبادل الأحاديث مع زملائها من العاملين في المجال نفسه، وعندما تدخل أول غرفة مخصّصة لها وقبل أن تبدأ المهمة تلقي نظرة سريعة على المكان، تتفحص محتوياته لتكوين فكرة خاطفة عن طبيعة الساكن فيه، ومن خلال ما تتوصل إليه من معلومات تتبلور علاقة غريبة بالمكان بتأثير الروائح والمخلفات والبقايا المتناثرة هنا وهناك، فبعض المقيمين يثيرون فيها الاشمئزاز دون أن يقلل ذلك من مستوى خدمتها للغرفة وإن كانت لا تترك لمسات خاصة أو مميزة على المكان عكس ما إذا شعرت بارتياح من النزيل، فإنها تترك بعض البصمات المميزة على المكان كأن تثني الفراش بطريقة جديدة بأخرى جديدة حتى لو لم تنفد الأولى؛ باختصار يحصل الساكن على امتيازات بسيطة تنم عن تقديرها له، ومبعث هذه التفرقة في الخدمة ما يتركه المقيم من بصمات في الغرفة من حيث النظافة أو القذارة، فهناك من يلقي الملاءات وسط مستنقع من الماء على الأرض أو

النفايات خارج سلال الزبالة أو ملابسه الداخلية على الأرض وسط الغرفة، وهناك من يقوم بالعكس، فتشعر معه وكأنه في بيته، يعتني بكل شيء يخصه أو يخص الغرفة، ويحرص على وضع أدوات الحمام في مكانها ولا يسكب الماء على الأرضية، وفوق ذلك هناك من يخفي ملابسه الداخلية المستعملة في كيس من البلاستيك ويضعها بأسفل خزانة الملابس قبل أن يرسلها إلى المصبغة، مثل هؤلاء كانوا يثيرون إعجابها وتتعاطف معهم. كانت هناك نوعية أخرى من النزلاء تعرفت إليهم بسبب كرمهم أو بخلهم، فقد لاحظت على بعضهم الثراء في الملابس والبخل في أنواع الطعام، كان هناك ساكن دأبت في رصد ماركات الملابس العالمية التي يرتديها وقارنت بينها وبين أنواع الطعام الذي يأتي به، فوجدته بخيلاً حد التعاسة، فكل ما يجلبه من أطعمة رخيصة ومضرة تكاد لا تشترى، وعجبت من إنسان مثله يغمر جسمه من الخارج بالملابس الثمينة ويغطس معدته في أرذل الأطعمة، كما لاحظت أنه لا يستخدم على الإطلاق براد الغرفة، وعندما أتيح لها رؤيته قبل أن يغادر وجدته سمجاً فأيقنت صحة حدسها.

توقفت ذات ظهيرة من شتاء ديسمبر اكتسحت فيها الثلوج الخارج، وغطت كل ما تقع عليه عيناها، وفي الغرفة ١٢٣، في الطبقة الأولى مقيم بحراني دفعها فضولها في البداية للتعرف إليه من خلال رغبة ملحة في التعرف إلى أي قادم من البحرين لتقيس حقيقة هذه الجنسية عند شخصية البحراني لتمحو أو تؤكد فكرتها عن زوجها

يوسف الجناح، المغتصب الذي هربت منه، فهي لم تعاشر سوى وحش بشري مخادع وممسوخ دينياً، اندفعت مأخوذة بفكرة اكتشاف المجهول في هذا المقيم الذي أول ما أثارها فيه رؤيتها قرص سي دي لأغنية «يا له من عالم رائع» للويس أرمسترونغ، لم تسمع بالأغنية من قبل ولكنها جرت على عادتها في سبر غور الشخص المراد البحث عنه من خلال أشيائه وعاداته الصغيرة المتاحة لها في الغرفة من دون التورط في التفتيش والتقصي المفضوح، وقد أتقنت هذه اللعبة بحرفة خلال سنوات العمل، فبدأت بالبحث عن شخصيته عبر ما خلفه من الأوراق والفواتير المتناثرة هنا وهناك والمتعلقة بالفيزا، وكذلك ومن بطاقة الشحن لحقيبة السفر الملصقة على مقبض الحقيبة، فأدركت اسمه ومن ثم توصلت إلى أنه لم يكن سوى دبلوماسي من جواز سفره الذي كان في جيب سترته الشتوية وهي تفتشها، استمرت في التقصي لتتوصل إلى نتيجة مختلفة عن شخصية زوجها وأيقنت أن ثمة خطأ في الكون عندما يصادفك في الحياة إنسان لديه خلل من دون بقية البشر المنتشرين في المعمورة بالملايين، فيكون هذا الإنسان من نصيبك، وإن كان هذا مكتوباً عليك في لوح القدر منذ البداية لتسقط في قفصه المحكم كما حدث لها.

حرصت على اقتناص أي فرصة متاحة لتنظيف غرفته المزدوجة التي رغم مرافقها العديدة لم يتركها يوماً بحالة زرية، فأقلّه كان يحرص على رمي المخلفات في السلة ويضع الكؤوس والزجاجات في مكانها

ويخفي ملابسه الداخلية في الخزانة بالإضافة إلى أنه يترك جزءاً من سريره الكبير مرتباً ولا يشغل سوى جزء منه تاركاً أدواته الصغيرة التي لا يحتاج لأخذها معه لدى مغادرته مرتبة على منضدة جانبية قرب السرير وإلى الجهة حيث ينام؛، الشيء الوحيد الذي كانت تعانيه أنه لم يكن لديه توقيت محدد للخروج، فكانت نوبة عملها تمتد حتى المساء وهو لايزال في الغرفة، وذات يوم بارد غطت فيه الثلوج النوافذ ولزم الجميع أماكنهم، رأت الغرفة مفتوحة وصوت التلفاز مرتفعاً على ما بدا لها نشرة إخبارية، فهمت بأنه مدرك للغة الإنكليزية عكس زوجها الذي لم يفقه حرفاً من هذه اللغة رغم يسر حاله، واسترجعت بضع مرات كان الزوج يحاول التحدث بهذه اللغة مع عدد من الهنود والأجانب بخليط من العربية والإنكليزية الرثة مع عجزه عن فهم ما يقولونه له، كانت مقارنتها بين هذا وذاك سر اهتمامها بهذه الشخصية التي تجرأت ووقفت لوهلة عند بابه حالما رأته مفتوحاً لتتمكن أقلّه من التعرف إلى شكله، مرت لحظات دون أن يخرج أو تسمع له حركة، فزاد فضولها واندفعت بحركة لاإرادية لا ينقصها التمثيل وطرقت الباب، فصعقت حينما أطلت من زاوية عبر الممر فتاة بدا من ملامحها أنها من جنسية مختلفة عن الإنكليز ونظرت إليها باحتقار لكونها عاملة النظافة. ومن دون أن تنتظر سمعتها تقول.

«لا شكراً».

كانت تنوي أن تسأله إن كان يريد خدمة الغرف وهي مهمة

متاحة لها، سؤال النزيل إذا صادف والتقته، ولكنها أسرعت تهرول وقد صدمت بحدسها الذي كانت طوال هذه المدة معتمدة عليه في سبر غور المقيمين، كانت تنظف غرفته بشكل شبه يومي ولم تلتقط أيّة إشارة أو ما ينبئ بوجود نساء معه، ولم تعرف بعد طبيعة العلاقة ولا كيفية وصول المرأة إلى المكان رغم أن سياسة الفندق المعتمدة هي منع تسلل المومسات، ولم تصادف خلال تنظيف المكان هذه الفترة أي دليل على وجود نساء، لا مخلفات السلة ولا علب الواقيات مرمية هنا أو هناك كعادة من يجلبون معهم النساء، سواء المتزوجات أو المتسللات خلسة في الليل عبر الممرات والتي تكشفها الكاميرات ويتم التغاضي عنهن طالما لم يدخلن متسللات، ويتم ذلك عبر بوابة الاستقبال، أما بوجود حجز لهن بالغرف أو من خلال وجودهن في المطاعم والبارات. شعرت بإحباط وانكسار واستغربت هذا الشعور السلبي الذي ليس له داعٍ؛ مع مرور الوقت ونتيجة لتوثق الصداقة مع المستر «فلين» مسؤول أمن الفندق، ولدى مرورها بمكتبه بين فينة وأخرى للتحية وشرب الشاي راحت تشاهد بعض المناظر المصورة لتصرفات بعض النزلاء، وخصوصاً بعد منتصف الليل أو قبل الفجر، وقد حرص أن تكتم الأمر لأنه غير مشروع، وقد سمح لها بذلك، للتقرب منها بشكل غير مباشر وحتى لا يوحي بأي تلميح، وفسرت تردده في ذلك نظراً إلى كبر سنه، حيث تجاوز السابعة والخمسين، وبدت التجاعيد على وجهه، وفقد جزءاً من شعر رأسه بالإضافة إلى أنه

متزوج وله أبناء وبنات في سنها، وقد سبق له أن أطلعها على صورهم مع بداية الصداقة معه، لهذا كله رأت في نظراته وهي تختلس النظر عندما يحدثها وداً واضحاً ظل يخفيه وراء اهتمامه بها، حيث كان يسرع بمصافحتها في الصباح ويلقي عليها التحية في المساء قبل أن تغادر إلى شقتها القريبة من الفندق، وقد حدث مرات وهو يوصلها بالسيارة عندما يكون الطقس سيئاً، إذ لمحت في نظراته رغبة كي تدعوه لتناول فنجان من القهوة أو كوب من الشاي كما هي عادة الإنكليز عندما تكون هناك بينهم صداقة من نوع ما، ولكنه آثر ألا يفعل لأنه أدرك أنها عربية ولها تحفظها عن العادات الغربية.

تقبع شقتها الصغيرة الأشبه باستوديو، في عمارة قديمة تسكنها غالبية عربية من المغرب ومصر وكينيا مع جاليات شرق أوسطية أخرى، وهي تقع داخل حي سكني خلفي يبعد عن الفندق نحو عدة أميال، وتنتشر فيها زمر شبابية طائشة ومستهترة وكثيراً ما سمعت عن بعض الحوادث السيئة كالسرقة والتحرش تقع للسكان وخصوصاً الفتيات واللاجئين، وقد نصحها فلين بالسكن في منطقة «كينغستون» التي تبعد عن «الداون تاون» حوالى عشرين دقيقة بالقطار، وهي منطقة هادئة تطل على نهر التايمز ويقطنها هو منذ سنوات، وزاد من تسهيل الأمر عليها بأنه سيقوم بإيصالها يومياً، إلا أن ثمة مشكلة ستطرأ بسبب تباين نوبات العمل وفي جدول الإجازات، وعندما استفسرت عن الأمر علمت بأن السكن هناك مكلف رغم بعد المنطقة عن لندن بالإضافة

إلى أنها ستواجه بعد المسافة وسيكلفها كثيراً من الوقت والجهد وهي تخرج في الخامسة أقلّه إذا أرادت الوصول في الموعد المحدد لنوبتها.

أرجأت الأمر لكونها مشوشة وغير قادرة على التركيز، ما يشغل بالها الآن أبعد من ذلك ولا حدود له، فالمسافات التي قطعتها والدول والمطارات والموانئ والاحتجاز والسجن وكل المحطات المربكة التي مرت بها تقض مضجعها ولا تترك لها خيارات محددة، فكل ما تملكه الآن هو الاستمرار في الحياة بلندن والحصول على فرصة لنيل الجنسية لتضمن الاستقرار الذي افتقدته منذ أن غادرت البصرة مروراً بالحدود التركية ثم البحرين ودبي وأخيراً لندن، كان التفكير في الانتقال إلى «كينغستون» أشبه بالحفرة الهوائية التي تنتظرها إذا لم تتأن هذه المرة، فكل اختياراتها السابقة كانت كارثية وأوقعتها في هوة دفينة ذروتها الزواج من الشيخ يوسف الجناح ولا تضمن هذه المرة أن تنجرف مع فلين في عرضه المغري لأنه قد يكلفها هذه المرة أن تُسجن في حفرة أخرى مع شخص في عمر جدها، وليست مستعدة للمغامرة بعد كل تلك المحطات السريعة المفضية إلى الحفر الغائرة. طردت الفكرة رغم مغرياتها وطفقت تنغمس في اللهو مع ساكني الفندق وحياتهم المثيرة بالسخرية، ولكن هذه القصص الصغيرة تبقى ممرات يومية تلهيها عن الغوص في الذات وتعذيبها باسترجاع الماضي وصوره المعتمة؛ باشرت الغوص في تلك الرحلة من التفاصيل المضحكة المبكية مع زبائن الفندق وتوقفت عند سعاد البشراوي المقيمة بالغرفة

رقم ٤٣٣ التي جاءت من السعودية وتحمل جنسيتها وتتحدث بلكنة لبنانية، وهي ذات بشرة سمراء فاتحة، لا تنسجم مع لكنتها، وتتميز بثراء فاحش ولكنها لا تغادر سويت الغرفة إلا أثناء الليل، دأبت على غير المعتاد في تنظيف المكان بوجودها معها حتى كانت تشاهدها بملابس النوم أو معتكفة في الفراش، شعرت في البداية بالإحراج من العمل كما لو كانت تراقبها ولكنها اعتادت فيما بعد إجراء بعض الحوارات السريعة المقتضبة عندما راحت الأخرى تمطرها بالأسئلة بعد أن عرفت جنسيتها العراقية، كما أنها حرمت من التلصص عليها أو بالبحث في مقتنياتها أو بتفحص أوراقها وفواتيرها، ولهذا لم تستطع بلوغ المعلومات التي كانت تتوق للحصول عليها واكتفت بقراءة تصرفاتها المعقدة، حامت الشكوك حولها وهي تشاهدها لا تترك الجوال يسقط من يدها وتتحدث مع أشخاص باللغات كافة، ومن دون أن يكون حديثها مباشراً، أقلّه هذا ما خلصت إليه وهي معها حتى كانت ظهيرة يوم حينما فوجئت بها تتناول فطورها المتأخر فهمت بالمغادرة معتذرة، ولكن الأخرى أصرت على أن تتناول الفطور معها، فجرت محادثة لم تتوقعها.

«عذراً .. سياسة الفندق تحظر الجلوس ومشاركة الزبائن».

قفزت المرأة من مكانها وهي بالبيجامة الصفراء المخططة بالأسود وقد كشفت عن جسد ناضج متناسق ينضح أنوثة ومؤخرة مكتنزة هي لاشك تثير الرجال، هذا ما دار في خلدها، أسرعت وأقفلت

الباب وسحبتها من يدها وجلست قبالتها بينما هي على الكنبة المدورة بين السرير وطاولة المرآة.

«لن يعلم أحد ما يجري، إلا إذا كانت هنا أيضاً كاميرات».

تذكرت بأن عربة التنظيف خارج الغرفة، ولكنها أمسكت عن الكلام، نظرت إليها وهي تضحك وقد لمحت في طرف عينيها ذكاء يخفي الكثير من الأسرار، كانت تشعر في تلك اللحظة بخوف من المرأة لم تشعر به حتى عندما كانت نازحة على الحدود، جفلت لوهلة وهي مترددة في مد يدها صوب صينية الطعام وكانت حائرة من أين تبدأ حتى بادرتها المرأة قائلة بلهجة صارمة.

«لن آكل شيئاً إن لم تبادري معي».

تناولت حبة زيتون سوداء وسط ضحكة منفلتة من المرأة اللغز كما أوحى لها خيالها وهي تتأمل حركاتها السريعة المتوترة.

«شبعت؟».

توقفت سعاد البشراوي عن الطعام وسألتها فجأة مغيرة دفة الحديث.

«كم عمرك؟».

«أعتقد سبعة وعشرون».

نهضت البشراوي وهي تنهي الحديث، اتجهت نحو الباب فتحته، واستأذنتها وهي تودعها بنبرة ودية.

«سنلتقي في دائرة الحياة».

ثم استطردت قبل أن تخرج قائلة بنبرة ذات مغزى كما فهمت منها يسرا.

«سيكون لكِ شأن يوماً ما، صدقيني».

سارت في الممر تدفع عربة التنظيف وهي منشغلة بالمرأة التي تركتها توّاً، تعلمت على مر الأيام بأن الأمر الذي لا تفهمه لا تشغل بالك به، وها هي الآن مشغولة الفكر بها وكأنها لم تتعلم تلك القاعدة التي وضعتها لنفسها، كثيراً ما كانت تضع لنفسها قواعد سرعان ما تخرقها وكانت ترجع تلك الحالة إلى القدر الذي يصنع من حولها الوقائع، وجل ما كانت تفعله وقت خرق القواعد هو الانصياع للقدر من أن تعلن الاستسلام له وهي أشبه هنا بمن يعاني الإنكار.

«دعي الأمور تتعقد فما أسرع ما يزول التعقيد».

واصلت عبور الممر لتلتقي في طريقها أحد النزلاء، بدا من هيئته أنه أميركي الجنسية، فحيته بابتسامة كما هي تعليمات الإدارة، وهي من أصول المهنة التي تلقت التدريب عليها، إذ يمكنك تحية المقيمين بابتسامة فقط أو بعبارة صباح الخير أو مساء الخير، ويحظر فتح حديث مطول إلا فيما يخص العمل والتنظيف والاستفسار عن خدمات الفندق، لم تكن دائماً بمزاج يومي تطبق فيه هذه التعليمات وخصوصاً في الصباح الذي يصادف مرورها بالدورة الشهرية، حيث يتصاعد الشعور بالغضب على الحياة برمتها، وتهاجمها نوبات الذعر مصحوبة بضربات القلب المتلاحقة، تخيفها وتزيد من قلقها فتهاجمها

الشكوك في صحتها وهذا أشد ما تتعرض له خلال نوبة العمل، لم تكن هذه الحالة ملازمة لها حتى وهي على الحدود نازحة، اكتسبتها فقط منذ أن تزوجت يوسف الجناح وجاءت إلى البحرين وظلت حبيسة الشقة وحدها طوال الوقت، هنا بدأت معها هذه الحالة التي تكمن وراء مخاوف سوداوية يخيل إليها حينها بأنها ستموت وحيدة في الشقة من دون علم أحد.

اعتادت طوال فترة الشتاء التي تتدنى فيها درجات الحرارة دون الصفر وتغمر الثلوج الشوارع والطرقات، القراءة ومشاهدة التلفاز رغم برامجه المملة والقديمة، فوجدت في مسلسل «فريزر» و«أكوردين تو جيم» تسلية وحيدة بعد انتهاء نوبتها التي تشغل فيها نفسها عن التفكير الذاتي، الذي يرغمها عادة على القلق ويدفعها إلى التأمل في بعض القرارات المترددة في اتخاذها، مثل إقامة علاقة مع أحدهم أو التعرف إلى صديقات من خارج نطاق العمل الفندقي، بل تمادت ذات مرة في التفكير في تجربة تعاطي الحشيش من باب الفضول لتستكشف الشعور الذي تسمع عنه مع زميلتها في العمل، وخصوصاً ماري التي دأبت تحرضها على تجربته وكانت تصدها باستمرار متعللة بأنها تصلي وهذه من الموبقات، وقد فاجأتها ماري بعد مدة حينما علمت بالتفاصيل، بأن الخمر حرام فلماذا تتجرعه؟ فسرت لها وهي تضحك أن هناك عدداً من علماء المسلمين أفتوا بأن الخمر لم يحرم وإنما غير مستحب، وهذا فرق كما قالت لها، فردت الأخرى.

«كريزي»

بعد ساعات من اللقاء وبعد صفاء ذهنها وتغلبها على شكوكها شعرت بأنها ظلت طوال السنوات الماضية المليئة بالشقاء والمعاناة غبية لا تستغل الفرص المتاحة لها من السماء للخروج من محنتها باستغلال الآخرين الذين يحاولون في الوقت نفسه استغلالها، وتقلب الآية ضد كل من يحاول استغلالها، كما فسرت لعقلها المشوش منذ خروجها من البصرة للدراسة خوفها من المجازفة، فهي تبحث منذ سنوات عن لجوء أو إقامة دائمة أو جنسية بريطانية وهو حلمها الذي سعت إليه منذ أن وطئت قدماها الأرض البريطانية، وقد رأت الكثيرين ممن تمكنوا من ذلك بمختلف الحيل والأساليب، ورغم تعرفها إلى بعض الشخصيات وإعجاب البعض منهم بها ومحاولتهم استمالتها، إلا أنها كانت تغلق الباب في وجوههم كما أنها لا تملك تكاليف توكيل محامٍ كما فعل الآخرون، وليس لها صلة بالمنظمات السياسية والأحزاب التي عادة تمول طالبي الإقامة والجنسية، وكل ما نالته، رغم ما بذلته، هو إقامة موقتة ووعود بدراسة طلبها وسنوات قادمة تحت الاختبار وغير ذلك، لم تنل سوى وظيفة منحطة من وجهة نظرها لا توازي شهادتها الجامعية، التي رأت فيها صورة المرأة التي غادرت حلم الطفولة لتسقط في مستنقع الفنادق، تنظف قذارة النزلاء، ولولا أنها اخترعت فكرة التلصص على هؤلاء لكان حالها أسوأ من واقع الأمر، كل ذلك مر ببالها وهي تغادر غرفة سعاد البشراوي المرأة

الغامضة التي كان من الممكن أن تتمادى معها وتسايرها لعل ذلك يفتح لها الباب أمام الجنسية البريطانية، فمن يعلم وراء كل امرأة مبهمة في لندن قوة ضغط لها مفعول السحر، وهي بحاجة إلى ساحر أو ساحرة، تنتشلها أقلّه من حالة «البدون» فلا جواز سفر تستقر به ولا حياة كريمة تعيش فيها، وليس هناك مستقبل منشود في المنظور القريب.

«أين أتجه؟»

أنهت تفكيرها بسؤال من آلاف الأسئلة التي تطرحها على نفسها منذ الفجر حين تستيقظ إلى أن تضع ر أسها على الوسادة أثناء الليل.

****

انتشلها فلين من تركيزها في الجريدة على صورة لامرأة اختطفت وقتلت قريبة من المنطقة التي تسكنها، مستغلاً الفرصة في إعادة استدراجها للعيش «بكينغستون»، لاحظ نبرة القلق في صوتها وهي تطلعه على الخبر الذي كان محور حديث لندن، وهو عادة، اهتمام لا يدوم سوى يومين أو ثلاثة ثم يطويه النسيان بالانتقال إلى خبر آخر يطرأ على الساحة؛ فهمت نظرته ذات المغزى التي تستدرجها للحديث عن الانتقال إلى «كينغستون»، كان تركيزها اللحظة ما زال في سعاد البشراوي، وكانت تظنّ بأن المرأة التي تعيش في الغرفة ٤٣٣ تملك مفتاحاً سرياً لكل الأشياء ولو تمكنت منها وسبر غورها ومسايرتها في دهاليز الغموض لعل ذلك يقربها من الإقامة الدائمة، ثم ما تلبث أن تلف على فلين وتخمن، ماذا يمكنه أن يقدم لها بعلاقاته المتشعبة

وصلاته المتعددة مع صناع القرار في العاصمة؟ أجرت بحثاً ميدانياً في رأسها المحشو بالعديد من الأفكار والصور والخيارات ولكنها في كل مرة تصل فيها إلى قرار سرعان ما يجرفها جبنها إلى القاع ويمحو كل ما فكرت فيه، وحدها مشاهد الحدود والنزوح المتبقية طوال الليالي الباردة تذكرها بصقيع العراء الذي عاشته.

جاءت الفرصة تهرول لها ذات صباح باكر وهي تعبر ممر الفندق بعربة التنظيف تستعد ليوم جديد من العمل، وفوجئت بالبشراوي تخرج من المصعد بكامل زينتها وماكياجها وهي تترنح ممسكة الحقيبة بيد وبالأخرى كارت الباب، فما كادت تلمحها المرأة حتى قفزت في مكانها تتلوى من الضحك وتصرخ فيها.

«ضبطك».

هزتها الكلمة وحركت أفكار البارحة، ونفضت الغبار عن جبنها، ردت عليها بلطف متناه.

«في خدمتك سيدتي».

«تعالي .. تعالي..».

جرتها من يدها وهي تترنح وكأنها تجر كلبها الصغير وراءها وهي تقهقه من دون مناسبة، ولكنها الثمالة التي تبعث على الضحك في وقت كان الفندق بممراته وصالاته يغرق في سكون رتيب تلفه إضاءة باهتة تنبعث من زوايا المكان كسرته جلبة المرأة وهي تدلف الغرفة المزدوجة وتسحب معها يسرا التي كادت تتعثر في فوضى المكان.

ألقت البشراوي بجثتها الواهنة على الكنبة قرب النافذة وأشعلت سيجارتها وهي تنظر إلى الأخرى التي كانت تنتظر منها إشارة لعمل أي شيء تطلبه بحسب ما اتخذته من قرار في الليلة الماضية بمجاراتها، ولكن باعتدال ومن دون أن يؤثر ذلك في مكانتها في العمل، حان الوقت لتتخذ خطوات أكثر جرأة تختزل مسافة الوصول إلى الجنسية التي ما انفكت تحلم بها لتتخلص من عفن الماضي الذي لم تعد تحتمل مجرد الانتماء إلى أي بقعة أرض تكمن في حزام الشرق الأوسط، كان القرار الحاسم بالانفصال عن تلك الخريطة التي تغطيها أكوام الجثث وبراميل الدماء وروائح البارود وعفن الرجال المغتصبين لكل كائن أنثوي وراء الحدود، أو في مجال القناصة الذين سبق وذاقت أزيز رصاصاتهم العشوائية تطير فوق رأسها مرات عديدة، لولا ضربات الحظ التي صادفتها وانتزعتها من مرمى الطلقات، كل ذلك جال برأسها وهي تقف قبالة المرأة الثملة تنتظر منها أي إشارة كي تبدأ بتطبيق ما رسمته قبل ساعات.

بادرت بالجلوس أمامها وراحت تنزع كعب الحذاء منها وسط نظرة من الأخرى التي بدا من ردة فعلها أنها استحسنت تلك البادرة، فبادرتها من جهتها بأن تركت يدها تمسح شعرها، وهنا راح الدم يسرع بالتدفق في عروقها ويزيد من دقات قلبها ويثير غريزة شكوكها ولكنها تحملت اللحظة حتى انتهت من خلع كعبي الحذاء وهمت بالنهوض

فأمسكتها البشراوي من يدها ورمقتها بنظرة ثاقبة مخيفة سرت في جسدها وتحملت ذلك بصمت واستسلام.

«كم أنت جميلة يا...».

«يسرا القرمزي؟».

أخذتها انفعالاتها مع سعاد البشراوي إلى مغارة الماضي الغائر في الصور القديمة الملطخة بطين الزبير، علقت بذاكرتها أحاديثها مع والدها جبار الشريف وهوسه الدائم بالأصل السعودي وعلاقة الزبير بنجد، وها هي تتواجه مع امرأة من السعودية ذات نفوذ وسلطة كما يبدو من مظهرها، ترى ماذا ستقول لو تقص عليها حكايتها عن الزبير وأصلها النجدي، هل تسعفها تلك العلاقة على الخروج من نفق المتاهة التي عاشتها منذ غادرت البصرة؟

****

(٥)

في الليالي الباردة جداً، عندما تستشعر الوحدة والخوف في غرفتها المطلة على مرج الجيران، كانت تفتقد صوت جبار الشريف بنبرته الخشنة الجافة وكلماته المبهمة في غالبيتها وهي صغيرة يحدثها عن موضوعات شائكة تتعلق بالتاريخ، أدركت الآن بعد سنوات من اختفائه الغامض الذي رجح بين وقوعه في الأسر لدى قوات التحالف أو مصرعه، وبين تصفيته داخلياً لمجاهرته بآرائه، أدركت مغزى تلك القصص المتشعبة عن العائلات الخليجية، وربطه لتاريخ الأسرة بجذور أهل الجزيرة العربية «ماذا رمى إليه من نبش تلك الجذور الغائرة في تاريخ المنطقة؟».

كان يحدثها ساعات وقت الغروب وهو يسير ماسكاً يدها الصغيرة على حافة النهر الصغير المتفرع من مجرى النهر الكبير في القرية عن تاريخ أهل الزبير وصلتهم العميقة بسكان السعودية، كان يقول لها حرفياً: «نحن سعوديو الأصل هاجرنا إلى الزبير والمناطق الحدودية بحثاً عن الرزق، وقد استوطن أجدادك هنا بعد هجرتهم المناطق المجدبة إلى المناطق التي فيها وفرة كالزبير والبصرة والناصرية

والعمارة» كانت وظائفهم التي يلتحقون بها تمثل وظائف بامتيازات مقارنة بالفقر والمجاعة في المناطق التي هجروها، كانت الأعمال تتوزع بين الزراعة وصناعة جلود الأحذية وغيرها، «النياده يا بنتي هم من بنوا مدينة الزبير التي تسكنينها اليوم على أنقاض البصرة القديمة». ويضيف ويكرر كما اعتاد دائماً لزرع الفكرة في رأسها «لقد نزحنا من نجد خلال حقبة القحط وأسسنا الزبير ونقلنا تقاليدنا النجدية، أنت سعودية وأبوك سعودي وجدك من نجد»، ثم يضحك ويستطرد مداعباً إياها «أما والدتك فهي كويتية لا أعرف لها أصلاً».

من هذه الجهة لم تتقبل نجوى القطان مزاحه الثقيل كما كانت تردد، كانت لا تفرق بين إلقائه للنكات وبين تعمده الطعن في الوجه مباشرة، ولشدة غرابة العلاقة بينه وبينها كانت ترى التوتر دائماً يزرع الشك في ما يقوله الواحد منهما للآخر؛ ظلت تراقب الكلمات تتدفق بين شفاه الاثنين وتستنبط طبيعة المجرى الذي يسير فيه الحدث، وذات يوم وهي تروي لها عن سكان الكويت أنهم ينتمون إلى قبائل عربية هاجرت من الجزيرة العربية وبرفقتهما أفراد عملوا كخدم ثم تطوروا وأصبحوا خلال حملات التنقل ينتمون إلى هذه القبائل ومنهم قبيلة والدك، عندما تصله هذه العبارة يزبد ويهدد ويستطرد «لم يعد لكم بلد، أنتم المحافظة التاسعة عشرة» عندها تبلغ الحالة عند نجوى القطان ذروتها فتظل طوال الليل تبكي وتصبح منتفخة الجفون معتكرة

المزاج، تود لو تدس له السم في طعامه ولكنها تدعو عليه بأن يذهب ولا يرجع من الجبهة.

****

اعتادت قراءة الوجوه من خلال الأشياء المتناثرة في غرف النزلاء، حدث ذلك على مدى طويل وعن خبرة اكتسبتها عبر سنوات النزوح حينما كانت تدقق في الأمور المعقدة وهي تفرض عليها التنبؤ بالأحداث، مكنتها هذه الاستجابة من التأقلم السريع في تحليل مظاهر الغرفة، وذات مرة فيما كانت تلمع مرآة الحمام راحت ترقص مع صوت أغنية أجنبية من خلال التلفاز وهي في حالة انتشاء بعد أن رشفت ربع كأس ويسكي من الزجاجة بالغرفة، بعد أن أضافت بدل الجرعة نسبة قليلة من الماء، كانت الساعة الواحدة وسبع دقائق عندما اقتحم الساكن الغرفة وفاجأها وهي ترقص، كانت تلك المرة الأولى التي يحدث فيها مثل هذا الأمر، صعقت بمجرد أن لمحها وهي تتحرك بحرية في المكان فما كان منها إلا أن توارت عن الغرفة إلى الخارج وانتظرت عند الباب إلى حين خروجه مرة أخرى، فعادت من جديد إلى الغرفة وتعلمت من هذا الموقف ألا تفتح أي شيء للنزيل إلا بعد أن تغلق باب الغرفة عليها لدقائق وهو ما يسمح به نظام الخدمة، هذا الدرس امتد ليشمل أموراً أخرى منها الاستلقاء على السرير إذا ما انتهت من التنظيف قبل الوقت المحدد، أو عندما تستخدم الحمام بنفسها، صنعت لها طقوساً تحميها من الأخطاء التي قد تؤثر فيها، كانت التقارير عن أدائها ممتازة

وحصلت على تقدير مالي ومعنوي شجعها على رفع كفاءتها، وكان سبباً في الترقي بقسم خدمات الغرف فيما بعد.

لم تلقِ بالاً لمظهرها الخارجي حتى بعد أن تنتهي من نوبة العمل، وبرغم بعض المعاكسات التي تعرضت لها في الأيام الأولى للعمل من قبل بعض النزلاء العرب بالذات، إلا أنها استمرت في تجاهل مظهرها من دون إهمال نظافتها، فقد جعلت المحافظة على عاداتها العربية جزءاً من احترامها لنفسها وإن تجاوزت عن أمور أكثر أهمية كانت تمارسها من قبل، كالصلاة التي تنتظم في أدائها كل يوم جمعة، والإجازات وخلال شهر رمضان فقط، ولكن بعد تزايد العمل وضغط المكان والوحدة المفرطة التي تعيشها، عادت تتناول أقراص الزناكس خلال إجازات العمل وحتى عندما تعمل خلال فترة المساء، كانت تتناول نصف قرص وتتحمل الإرهاق والخمول بدلاً من الشعور بالوحدة والتوتر، بدت دائبة الحركة والتنقل ما لفت انتباه المشرف عليها المستر هيث الذي توقع أن تتقن العمل بشكل سريع. كانت بحاجة إلى العمل والاستقرار وهذا ما أدى بها إلى مزيد من الاندفاع والتحمل محاولة قدر طاقتها أن تنال التقدير الذي تتوق إليه وتحرص في الوقت نفسه أن تبذل جهدها في ألا تخفق وهي تتلصص على النزلاء.. لم تقاوم الرغبة في التوغل في استكشاف أسرار النزلاء لكونه يمحو ولو لساعات مشاهد النزوح، ويبعد الشعور بالبرد ومرارة مذاق الطعام الجماعي السريع الذي كان يقدم من قبل منظمات اللاجئين وهي فترة لن تعوضها

حتى في الجنة، هذه النزعة تجاه أسرار رواد الفندق ساعدت على التغلب على القلق المزمن ونوبات الذعر التي تجتاحها من حين إلى آخر وتبلغ ذروتها بالتقيؤ، يتبعه الاسترخاء والخمول، وهنا تنزع إلى النوم ولكنها تتغلب على هذا الشعور إذا ما كانت خلال العمل، تعوض هذه الحالة بمزيد من التنقيب في مقتنيات رواد الغرف، وحدث ذات مرة أن تجاوزت الخطوط الحمراء بالبحث في خزانة أحدهم لتكتشف اقتناءه المخدرات، من حقن المورفين وأقراص الكودبين مع كمية من الأوراق النقدية من مختلف العملات، وعندما تفحصت جواز السفر داخل الخزانة نفسها وجدته ليبياً تكسو وجهه لحية، فأصيبت بنوبة خوف من أن يكون أحد الإرهابيين، تجاوزت تلك الصدمة بتجاهل الأمر وتجنبت حتى المرور في تلك المنطقة من الفندق إلى أن اطمأنت أنه غادر الغرفة.

****

(٦)

تصاعدت حدة البرد في «كينغستون» بشكل مفاجئ مع بداية انتقالها إلى البقعة الهادئة بالقرب من نهر التايمز حيث قبعت في شقة صغيرة وراء الأشجار على مقربة من قصر «همبتون كورت» غير مصدقة بأنها يسرا القرمزي التي جاءت بريطانيا مشردة وهاربة، قانعة باستوديو صغير تخفي فيه نفسها عن العيون الفضولية خشية الترحيل أو الاحتجاز، غمرتها الغرفة الصغيرة بمشاعر من السكون الأقرب إلى مياه النهر الذي بدأت عادة المشي حوله بأوقات الفراغ، متلفتة حولها بين فينة وأخرى، وجلة من عيون ترصدها أو فضول يتبعها أو حتى كابوس ينتزعها من حالة الاستقرار التي تسربت إليها بعد الضجيج وكذلك الفوضى التي خلفتها وراءها في قاع المدينة، فتركتها غير آسفة إلا على شيء واحد وهو كيف ترد الجميل للمستر فلين.

بدأت تدريباً حسياً ذاتياً، في اعتياد الغرفة والمطبخ والحمام والنافذة ولون السيراميك وحجمه ونقوشه المطابقة للذوق الإنكليزي التقليدي القديم، وقد علمت من قبل فلين بأن المكان خلفه ابن أخته الذي أنهى الدراسة في جامعة «كينغستون» القريبة من المكان،

ولمست من الصور واللوحات الورقية المعلقة طبيعة سلوكه المشوب بالتنظيم والذوق، خصوصاً فيما يتعلق بأسلوب ترك أصص النباتات الصغيرة في أرجاء الشقة قرب ستارة النافذة الوحيدة المتشحة بخطوط برونزية، مع تقاطعات ذات ألوان سوداء ورمادية باللون البرونزي الرئيسي، كان لون أرضية المكان البيج الهادئ مع سجادة قديمة متهرئة الأطراف تتوسط الصالة الصغيرة وقد نقشت عليها أشكال هندسية متعددة الألوان، وعند طرفها المحاذي للتلفاز كنبة حمراء من الجلد، أما الخشب المحيط بأدوات المطبخ فهو مطلي باللون الذهبي المائل إلى البني الغامق، في حين أن الأبواب تحمل آثار صور منزوعة باستثناء باب الحمام فهو من الألمنيوم تتوسطه مربعات زجاجية تكشف بشكل غير واضح ما يجري في الداخل.

جرت الأيام الأولى سريعة غير رتيبة انشغلت خلالها بترتيب المكان وإعادة تصميمه بوسائل بسيطة توافرت لها، مثل خزانة صغيرة للملابس غير تلك التي تركها المقيم السابق والتي تهشمت من الداخل، مع وضع بعض الصور الشخصية لبعض أفراد أسرتها التي استطاعت حملها والاحتفاظ بها رغم كل المحطات القاسية التي مرت بها، كما وجدت فرصتها في بعض المحال التجارية الصغيرة بمحطة «سيربيتون ريل ستيشين» التي تبعد عن سكنها حوالى ميل ونصف الميل دأبت في المشي يومياً للتسوق مستمتعة بالهواء والهدوء، متطلعة إلى الوجوه الرتيبة، غير تلك الوجوه المكسوة بالفضول كما هي الحال في لندن..

كان السير لدقائق كل يوم من سكنها حتى منطقة «سيربيتون» يمنحها الصفاء الذهني والاسترخاء، فتتعمد البطء في السير مانحة نفسها الفرصة للتعرف إلى المطاعم والسوبرماركات ومخازن الكحول، تقتنص بين حين وآخر زجاجة نبيذ، تحرص أن يكون أحمر ورخيصاً، تحتسيه وقت الإجازة أو أقلّه بمعدل كأسين قبل النوم، إذ اعتادت أن تخلد إلى السرير عند العاشرة مساءً لتتمكن من الاستيقاظ في الرابعة صباحاً لتلحق بسيارة فلين الذي ينتظرها قبالة العمارة، أو بالقرب من فندق «الهولدي إن» الذي داعبتها فكرة الانتقال إليه، ولكنها تمالكت نفسها من التمادي في الطلب خشية أن يوثر ذلك في علاقتها بفلين وتركت للوقت أن يرسم لها تلك الفكرة، واكتفت بصنع إيحاء في ذهن فلين، وهو يتأمل الفندق فيما هي تقف قربه في الصباح الباكر ترتجف من البرد، فقد يلفت ذلك المشهد انتباهه ويقترح عليها الانتقال، وفي النهاية بعد شهور من انتقالها أدركت أنه تجنب تلك الفكرة خشية أن يفتقدها حينئذ.

لأول مرة في حياتها أدركت أن الحياة بدأت تنصفها وإن لم يكن ذلك مقنعاً ما دام الوصول إلى الجنسية أمراً مستبعداً رغم ما بذلته من عناء مع سعاد البشراوي التي وعدتها خلال زيارتها القادمة للندن بالسعي مع عضو في مجلس العموم البريطاني لتحقيق حلمها، وقد مازحتها قبل أن تغادر، بقبلة محتشمة قائلة وهي تغمز بطرف عينها اليسرى.

«يسرا.. ستسير أمورك، صدقيني».

ادخرت ذاك الشعور بالسعادة، وطبعته في ذهنها وعلبته كما يعلب الهواء وجعلت منه لازمة للاسترخاء من عناء العمل والحياة والضائقة المالية التي بدأت تلوح في أفق حياتها بعد الانتقال إلى «كينغستون» مع تزايد التزاماتها اليومية البسيطة والضرورية للعيش، تمالكت نفسها عن البذخ كما كانت تسميه في حوارها الداخلي المستمر مع ذاتها طوال الوقت، وأملت أن تتمكن من التغلب على شغف العيش باللجوء إلى جلب أرخص الأطعمة والامتناع كلية عن اقتناء أدوات الزينة والماكياج حتى لو كانت برخص التراب، بالإضافة إلى عدم الانزلاق في الشراب واعتمدت على ما يخلفه الزبائن في الغرف من بقايا الزجاجات لدى مغادرتهم، ونادراً ما كان يترك البعض نصف أو ربع زجاجة، وحدث ذات مرة أن شعرت بالمهانة وهي تتأمل حوض الحمام تنبعث منه رائحة الويسكي والزجاجة ملقاة على الحافة وأدركت أن الساكن قد أفرغ الزجاجة في الحوض قبل أن يغادر، تمنت لو عرفته وبصقت في وجهه، كان هذا شعورها وهي تستنشق رائحة الشراب في الحوض وبحثت في خزانة الملابس الفارغة لعلها تعثر على ما يدل على شخصيته وسلوكه ولم تستشف من الغرفة الخاوية بعد مغادرته إلا نفايات من محارم وبقايا أطعمة جلبها من الخارج، بالإضافة إلى أكياس المشتريات من الملابس، لمست من ماركاتها العالمية أنه على قدر من الثراء وما أكد لها ذلك ما وجدته في أحد الأدراج، فاتورة

نسيها لساعة من ماركة «كونكورد» سعرها ثمانية وخمسون ألف درهم إماراتي في تاريخ مضى عليه شهر، مما يدل على أنه كان قادماً من دبي إلى لندن، وعرفت من خلال الفاتورة اسمه وكان يدعى شاكر البنا ورقم هاتفه مسجل على الورقة، فقررت الاحتفاظ بالفاتورة مع بقية الأوراق والفواتير التي تحمل أسماء النزلاء وأرقامهم لاستثمارها فيما لو عاد هؤلاء للإقامة مرة أخرى، فيما يشبه الأرشيف تعده في علبة صغيرة تعمدت أن تجعل منها ذخيرة للأوقات الطارئة حين تحتاج إلى معرفة المزيد من المعلومات عن هذه الشخصيات، لم يصادف خلال تلك الفترة أن التقت نزلاء سبق وأقاموا من قبل باستثناء سعاد البشراوي وبعض الشخصيات البريطانية التي اعتادت الإقامة ليلة أو يومين حينما تقام مناسبة، كحفلة زواج أو مؤتمر محلي لإحدى الشركات أو لمجموعة من المؤسسات، وعادة لا يترك هؤلاء أية مخلفات أو أوراق سوى تلك التي لا تدل على هوية أو تحمل دلالات ما.

جرى الحال على هذا المنوال، بين رتابة في العمل من وقت إلى آخر، وبين شعور بالإحباط لعدم حدوث تطور في كل ما كانت تأمله؛ على العكس من ذلك بدأت التعقيدات تدب في حياتها وتفقدها الرغبة، شيئاً فشيئاً في الترقي، فتسلل الخمول إليها وهي تقطع المسافة كل يوم بين لندن و«كينغستون» وتحولت متعة ارتياد القطار كل مساء إلى روتين بسبب الوجوه والطقس والهدوء المخيم عادة على الركاب، كما تحولت فترة الذهاب إلى العمل في الصباح الباكر مع فلين إلى

حالة زرية ومقيتة أحياناً بتأثير ثرثرته ورائحة فمه التي تكون خلال تلك اللحظات من الصباح في ذروتها، حيث تنبعث من أنفاسه رائحة الويسكي ممزوجة برائحة الجسد المشابهة لرائحة الجوارب العفنة، هكذا تخيلتها، تخيلت مرارة اللحظة لو ضاجعته أو استسلمت حتى لقبلة منه. كان عزاؤها الوحيد في الشقة الصغيرة الهادئة التي فازت بها، وفي طبيعة المكان الذي تعيش فيه، فدرجت كلما توغلت في المعاناة إلى الخروج من الشقة والتسكع في شوارع «كينغستون» قاطعة المسافة كل مساء بين الشقة ومحطة «سيربيتون» إلى أن جاء مساء يوم بلغ فيه الصقيع ذروته واحتجب السكان في المنازل ولم تفلح وسائل التدفئة في التخفيف من معاناة البرد، كانت عائدة توّاً من لندن فشاهدت تجمعاً لعدد كبير من الأشخاص خارج فندق الهوليدي، صادف ليلتها ما قبل الكريسماس بيومين، فتوجهت إلى موقف السيارات بمحاذاة الفندق وتوقفت تشعل سيجارة مع بعض الأشخاص الذين صادف أن كانوا مجموعة سياحية إيطالية غالبيتهم من النساء وقليل منهم من الرجال أو الشباب، كانوا في غالبيتهم من كبار السن وقد تدثروا بكميات هائلة من الملابس وراحوا يدخنون سجائرهم وسط الصقيع ولم يجفلوا من البرد كحالها، واستغربت كيف تحمل هؤلاء الوقوف عند واجهة الفندق في تلك الدرجة من البرد لمجرد التدخين؟ اندست بينهم وراحت تشعل سيجارتها التي اعتادت أن تلفها بنفسها، كانت يدها ترتجف ووجهها أحمر بدا منكمشاً وقد تدفق فيه الدم، فبدا أشبه بحبة طماطم مشدودة.

راحت تصغي إلى أحاديثهم من غير أن تفقه شيئاً سوى كلمات حفظتها من لسان بعض النزلاء الإيطاليين مثل «تورتا» «كرسياس» «سباتو» ولكن تركيزها على كلماتهم تضاءل مع تصلب عروقها من الداخل وتجمد قدميها كلما لفحتها نسمات الهواء المثلجة، لم تقو على الاستمرار في الوقوف، أنهت سيجارتها بسرعة ودلفت نحو الفندق ووقفت في ركن بإزاء الصالون الصغير المقابل للمطعم المفتوح على اللوبي وراحت تتمعن في الوجوه، كان هناك عدد من الإيطاليين ينهون بعض الإجراءات لدى الاستقبال، جلس بضعة رواد أمام البار فيما انشغلت اثنتان من العاملات بالخدمة، وتمنت لحظتها لو يكتب لها الانتقال إلى العمل بهذا الفرع من الفندق، ولكنها عادت وحسبتها من زاوية أخرى، إذ لن تتمكن هنا من التقاء شخصيات ذات نفوذ من مختلف أنحاء العالم كما هي الحال في لندن، وقد تنعدم فرصتها في «كينغستون» بالتعرف ذات يوم إلى شخصية تفتح لها مغارة علي بابا، حسب تعبيرها كلما أدارت حديثاً داخلياً مع نفسها، وشاطرت عقلها التحليل والتنقيب لكسر حظ النحس الملازم لها منذ سنين، أنقذها من الإسهاب في التخيل صوت امرأة تعرفها جيداً، تسلل من خلفها وأثار استغرابها.

«هاي يسرا .. ضبطتك تتسكعين يا غامضة».

التفتت نحو مسسز «بتسي» مسؤولة المطبخ بفندق لندن، وقد بدت مختلفة الهيئة تماماً عما اعتادت رؤيتها في العمل، بدت في العقد

الرابع من عمرها مع مسحة من جمال قديم يعود إلى فترة المراهقة، وظهرت بفستان سهرة أسود، وضعت على كتفها طرحة مرقطة باللونين البني والأحمر، صبغت وجهها بالماكياج وتدلى من عنقها عقد خمنت أنه غالي الثمن، اقتربت منها المرأة وتبادلت معها القبل والتفتت نحو شاب وقف بمحاذاتها وبدا من هيئته أنه عربي السمات يصغرها بسنوات، قدمته لها قائلة وهي تضحك، محدثة جلبة في المكان.

«أنور زوجي..».

تبادل الثلاثة التحية، شعرت مع وقع المفاجأة بارتياح لوجود أشخاص تتحدث معهم في المكان، قلبت نظراتها بسرعة وخفية بين زميلتها وزوجها كمن تبحث عن أسرار دفينة، فيما استرسلت الأخرى في الكلام الذي كان في غالبيته أسئلة متلاحقة عما تفعله، وساعدتها بديهيتها على عكس الأسئلة بدورها عما تفعله هي أيضاً هنا، كان الحديث يجري سريعاً بين المرأتين فيما تسلل الزوج معتذراً إلى الوراء واندس وسط الآخرين، وفسرت الأمر بأنه قصد التواري عنها لسبب ما تجهله للحظة، ركنا نحو زاوية من البار وطلبت «بتسي» كأس ويسكي ليسرا التي ترددت في البداية لدى سؤالها عن نوع الشراب، ثم استسلمت لنظرات الرجاء في عيني المرأة التي بادرتها وهي تقدم لها الكأس.

«تذكرتُ أنكِ تسكنين في «كينغستون»، كيف ترين الحياة هنا؟».

«عادية، مثلها مثل أي مكان في بريطانيا العظمي».

ضحكت المرأة وعرجت على الحديث عن العمل وفتراته، ثم فاجأتها بالسؤال.

«ليس لديك صديق .. صح؟»

«كيف خمنت؟»

«أعرف المرأة العزباء من وجهها ثم من جوابها عن السؤال؟».

ضحكت يسرا وقطعت الحديث لثوانٍ رشفت خلالها بعضاً من كأسها واستأنفت الكلام قائلة بنبرة مستفزة ولكن ودية.

«يبدو لي أن زوجك شرق أوسطي .. هل أنا مخطئة؟

«هذا لا يحتاج إلى تخمين، فأنت عربية وتتعرفين بسرعة إلى العرب مثلك، ولكن ما لا تعرفينه هو من أي بلد ولن أخبرك ما لم تعرفي بنفسك في مناسبة أخرى، وأحذرك من التجسس عليَّ».

قالت ذلك مازحة ثم راحت تمسح المكان بنظراتها كما لو كانت تطمئن إلى الرجل وما يفعله بعيداً عنها.

خلال عشرين دقيقة مدة بقائها في المكان تعرفت إلى أكثر من عاملة من عاملات الفندق اللواتي سألنها:.. لماذا لا تأتين للسهر في هذا المكان مادمتِ قريبة منه؟ ردت عليهن بأنها لا تملك الإمكانية المالية لارتياد فنادق الأربعة نجوم، فهي تعمل فيها ولكنها لا تستطيع دخولها وقت الفراغ، ضحكن وعلقن قائلات.

«لماذا لا تأتين إذن للعمل هنا؟».

لم ترد في الحال، بل تركت السؤال معلقاً إلى أن تحين الفرصة

وتستغل تلك الإجابة في وقتها المناسب؛ هي ترى الوضع الآن غير مناسب، رغم تحملها فلين حتى أنها كانت مستعدة للذهاب إلى العمل بواسطة القطار صباحاً رغم البرد والرياح والوجوه العابسة، لولا خشيتها من انقلاب الرجل عليها ووضعها في قائمة المنبوذين، وهي عادة إنكليزية سمعتها من فلين نفسه، ولمستها في العديد من العاملات معها في الفندق، وحتى لدى العاملين في مكاتب الجنسية التي لمجرد أن تتقاذف معهم الكلام حتى يحاصروك بنظراتهم المتشفية والمتكبرة، نظرت إلى الساعة فكانت التاسعة وسبع عشرة دقيقة، ومع رغبتها في عدم المغادرة وارتياحها إلى جو المكان وحاجتها إلى كأس أخرى من الويسكي بسبب قلقها من النوم المتقطع وامتناعها عن تناول الزناكس لما يسبب لها من أزمة في الاستيقاظ مبكراً، بدأت للحظة حائرة بين المغادرة والبقاء، وأخيراً حسمت أمرها وانسحبت معزية نفسها بتوفير ثمن الكأس لو جارت رغبتها وطلبتها.

في الطريق الخالية من المارة، ما عدا بضع سيارات عابرة، راح الصقيع يلفحها في وجهها والأضواء تنعكس عليه، ليبدو في لونه البرونزي، اجتاحتها رغبة جامحة في كأس أخرى صرفة، ما دفعها للإسراع في خطواتها، لدى اقترابها من مخزن الأغذية الملحق بمحطة البنزين، توقفت واستعادت ذاكرتها فيما إذا كانت زجاجة الويسكي في غرفها تسعفها وتحتمل كأساً إضافية، تذكرت بأنها في آخر مرة اشترت زجاجة نبيذ بينما رغبتها الليلة في الويسكي، انعطفت نحو المحطة

ودلفت المكان، تأملت المحتويات وأغرتها شطيرة «سندويش» وكان شعورها بالخمول وعدم الرغبة في إعداد وجبة حتى لو كانت سريعة يحرضها على الشراء فيما حساباتها المتوازنة في ترشيد إنفاقها على الطعام الجاهز والشراب هو الذي جعلها تتلفت حولها في المكان وتتأمل أنواع الشراب على الرفوف، وأمام ترددها، ومع اقتحام ثلاثة رجال المكان محدثين جلبة بأصواتهم الصاخبة، حزمت أمرها وانتزعت شطيرة «السندويش» واستلت زجاجة صغيرة «سكواتش» وأنهت معاناتها.

****

استفزها منظر الحقيبة السوداء المحشورة أسفل السرير داخل الغرفة رقم ٤٧٩ وقد اكتشفتها صدفة فيما كانت منحنية تلتقط مشبك شعرها، وأثارت فضولها الطريقة التي أخفيت فيها بالمكان، نهضت واتجهت نحو الباب وأغلقته ثم عادت وأسدلت الستارة التي كانت مفتوحة ولبست القفاز البلاستيكي المخصص لتنظيف الحمام وسحبت الحقيبة مع التركيز على وضعيتها حتى تعيدها فيما بعد إلى الوضعية نفسها؛ لقد تدربت طوال المدة الماضية على وضع الأشياء في موضعها الأصلي مع عدم لمسها بيدها مباشرة تحسباً لأي تحقيق فيما لو حدث موقف من المواقف، لم تفاجأ بأنها مقفلة، بتلك الأقفال الصغيرة المتشابهة، التي عادة ما تفتح من أي مفتاح صغير مشابه، وكثير من مقتني تلك الحقائب لا يدركون هذه الحقيقة، سارعت بإدخال

طرف مشبك الشعر في محاولة سريعة انتهت بالفشل، فاستعاضت عن تلك المحاولة بالاكتفاء بهز الحقيبة والتخمين بمحتوياتها، إذ راحت تضغط عليها من عدة جهات حيث كانت خفيفة لا تحتوي على مواد صلبة، وتكهنت بأنها قد تنطوي على أموال أو وثائق، وقد تكون أشياء تافهة، دفعتها سريعاً إلى مكانها، بالوضعية نفسها، ونهضت مسرعة تبحث عن بعض المحتويات التي قد تدل على شخصية النزيل الذي بدا من محتويات المكان أنه رجل، ومدخن من عقب سيجارة تركها أسفل النافذة خارج الشرفة، وله أولاد إذ وجدت أحد أكياس ماركات الملابس غير المعروفة أقلّه بالنسبة إليها، تحتوي على ملابس جديدة للأولاد مع فواتيرها في الداخل، أثار فضولها أمر آخر، وهو تركه في أحد الأدراج لعلبة صغيرة من الواقي وهذا دليل على الخيانة لزوجته وأولاده، وانتبهت إلى الوقت يجري فأسرعت بإنهاء عملها والخروج تاركة وراءها رغبة في العودة إلى المكان، لو لم يغادر خلال اليومين أو الثلاثة القادمة، إذا صادف وكانت غرفته من نصيبها في التنظيف.

تأقلمت مع الحياة وتقبلتها كقدر مكتوب، استسلمت لها مقتنعة بأن هذا أفضل من العالم السفلي الذي جاءت منه، فأقلّه هنا تشرب كأس ويسكي وتستمع لأغنيات «كيتي بيري» وتقرأ كتاباً أو صحيفة لا علاقة لها بحرف عربي، وتتدثر بغطاء من الصوف وتركب القطار وتعمل في لندن، وتأكل الأطعمة الصحية في بعض الأيام، ثم يأتي يوم آخر تنفر فيه من كل شيء حولها وتود لو تنطبق الأرض على السماء

وينتهي الكون، غير عابئة بكل ما سيلحق بالبشرية من دمار، فقد انتهى الكون عندها على حدود تركيا تأكل طحين الخبز وتنتظر الوجبة التالية ولا تحلم بالويسكي وشريحة اللحم المشوي، كانت المرادفات تأتيها من لحظة إلى أخرى ومن يوم إلى آخر، ومن شهر إلى ما يليه، إلى أن أدركت وهي تتأمل الحالة ذات مرة، أن للدورة الشهرية غير المنتظمة والمصحوبة بنزف وآلام السبب وراء تلك التقلبات؛ لا يد لها في النفسية المضطربة ولا تملك فائضاً من المال لاستشارة الأطباء مع العلم بأن شعورها الداخلي هو أنها بصحة ممتازة ولا تشكو من أي عطب باستثناء النزف الشهري، وقد بدأت أعراض هذه الحالة معها منذ أن غادرت البصرة ثم ازدادت بعد النزوح إثر الحرب، وكان زواجها من الشيخ يوسف الجناح هو البركان الذي فجر النزف وأحدث هذا الشرخ الذي رافقها حتى لندن، ولن تنساه ما لم تنته حياتها بالجنسية البريطانية التي تحولت إلى هوس وكابوس وحلم وسلسلة طويلة من الأوهام والشكوك، إلى حد أن بعض العاملات معها بالفندق رحن يلقبنها يسرا البريطانية، وحتى فلين نفسه اجتر معها هذه العبارة إلى أن قامت بزجره فتوقف نهائياً عن إطلاقها.

بدأت الليلة التي تلت عودتها من فندق الهوليدي بمراجعة حساباتها، في إثر تقلص تلك الميزانية الصغيرة المضغوطة أصلاً، كونها أصبحت مرتادة لفندق بدلاً من كونها عاملة فيه، أحست بمذاق الويسكي مختلفاً عن تلك الجرعات المسروقة من نزلاء الغرف، فقد

تناولته بلا وجل أو توتر، وحتى التأثير الذي امتد إلى شرايينها من تلك الكأس الوحيدة التي تناولتها فاق في طعمه وتأثيره كل الكؤوس المسروقة، الأمر الوحيد الذي تمنته أن لا تكون دلفت الفندق بملابس العمل التي غطتها فقط بجاكيت قديم تدثرت به، ودت لو كانت مستحمة وبملابس سهرة لائقة كما كانت «بتسي»، تمنت لو كانت تملك ثمن ثلاث أو أربع كؤوس تدفعها من دون شعور بالذنب، أنها تسرق من قيمة طعامها وإيجار شقتها لتدفعه ثمناً للويسكي، هذا التأثير النفسي لتلك الليلة تطور ليصبح حافزاً لتثور على قدرها المرسوم برتابة الحياة المسالمة التي تعيشها والنابعة من خوف لازمها منذ وطئت قدماها لندن، أن ترتكب حماقة أو حتى هفوة تُبعد في إثرها خارج الأرض البريطانية.. لم تعِ الفرق بين السلام الذي تبحث عنه والاستسلام الذي أوقعت نفسها فيه وتقبلته كقدر مكتوب عليها التأقلم معه، وهذا ما جرى طوال المدة التي أقامتها هنا، كل هذه الأفكار راودتها تلك الليلة وهي ترى «بتسي» تزهو في فستان سهرة وتقبض على شاب يكبرها سناً تتباهى به وهي في النهاية لا تختلف عنها إلا في كونها تحمل الجنسية البريطانية، «فلماذا لا أكون مثلها؟». هذا أكبر سؤال سيطر عليها منذ تلك الأمسية وفتح الباب أمام الكثير من الأفكار الجريئة والمخيفة والمحرضة على نفض الغبار عن حزام العفة الذي يحاصرها منذ أن جاءت، ووضعها في قالب أكبر من سنها وأقل من جمالها الذي تقبلته بيأس، ومنذ سنوات وقد هرب منها، فلم يسبق لها

أن تأملت وجهها في المرآة أو ارتدت ملابس تجلب الأنظار أو تلفت نظر الرجال، لم تكن تتعمد ذلك بقدر ما كانت بعيدة البال عن التفكير في العلاقات، فجسدها الذي طالما دهشت منه في الماضي، وقد كانت بمثابة كيوبيد الحب الذي امتلكها منذ كانت في الثانوية العامة تراكم عليه رماد المعاناة وتجمد شيطان الجسد ولم يعد يحن للإثارة، فطوت المشاعر وذابت الأحاسيس تدريجاً إلى أن ماتت من دون أن تعلم، ولولا تلك الأمسية العابرة «بالهوليدي إن» لما فاجأها السؤال وحرضها على الانتفاضة على نفسها المعدمة.

بدأت خطوة صغيرة في إطلاق العنان للجموح أن يتحرر من قيوده بالتقاط الخيط من الفندق، عليها أن تبدأ الصلة مع الليل والسهرات واللقاءات ونسج العلاقات، مع قدر من الحذر ولكن ليس في كل الأحوال، فعليها أن تفتح الطريق لعنفوان الجسد أن يستعيد بريقه وأن تبدأ تعشق جسدها الذي أهملته وظلمته خلال الفترة الماضية وكاد يوهن؛ فمن الجسد تستعيد الروح أنفاسها وكانت الكراهية التي كنتها لجسدها في السنوات السالفة تلعب دوراً في الحياة المحبطة التي حلت بها، «مم الخوف؟»، سألت نفسها السؤال واقتحمت الحمام، استحمت ونظفت أجزاء جسدها المختلفة كأنها المرة الأولى التي تفعل فيها ذلك، كانت تشعر بأن هذه العملية ستعيد إليها بريق المراهقة والشباب، لماذا الشباب؟ هي الآن في جوهر الشباب، فلماذا الإحجام عن تصديق ذلك؟ أنهت الاستحمام لتواجه محنة أخرى غير متوقعة،

فهي لا تملك الملابس المطلوبة للهيئة الجديدة والنظيفة، سراويل الجينز بعضها واسع والأخرى منتهية الموضة، القمصان باهتة وأغلبها قديم لا يصلح إلا للمطبخ أو العمل، أما الملابس الثقيلة فهي أشبه ما تكون لمتشردة منها لا لامرأة عاملة؛ أمام هذه الصدمة غطت جسمها بملابس المنزل وأعدت لنفسها كأس ويسكي صرفة، احتستها وسكبت أخرى وراحت تمعن النظر في الغرفة والمحتويات فيما كومة الملابس على الأرض، أخذت تتأملها وودت لو تقذف بها من النافذة أو تشعل فيها النار لتنسى منظرها، وقبل أن يتسرب اليأس مرة أخرى راحت تحتسي الشراب بهدوء عكس الكأس الأولى، بدأت التركيز على فكرة ما راحت تعتمل في داخلها وإذ بها تنهض وترتدي ملابسها المتوافرة، استلت جهاز الجوال من فوق السرير وراحت تضرب الأرقام بتشنج وانتظرت الرد الذي جاءها من فلين.

«فلين .. أنا متوعكة لا أستطيع الحراك، هل بالإمكان ألا أحضر غداً وترتب أنت الأمر مع الإدارة؟».

عرض عليها الرجل أن يأتي ويأخذها إلى العيادة ولكنها أسرعت بالنفي مؤكدة بأن كل ما تحتاج إليه هو الراحة في الفراش، بعدها انجرفت في وضع الماكياج وتغيير هيئتها وصبغت شفتيها واستلت حقيبتها وهرعت إلى الخارج. ورغم البرد الشديد والهواء البارد الذي لفح وجهها إلا أنها لم تتوقف إلا بعد أن حطت قدماها في أقرب نادٍ ليلي.

****

كان الوقت مبكراً على حضور الرواد وثمة فتاتان ورجل يجلسون على البار، ورجل ثالث على الطرف في زاوية من المكان، راح يتطلع إليها فتجاهلته وقبل أن تعود أدراجها جاءها صوت «البارمن» يعرض عليها المساعدة، كانت ترتجف من البرد وأحست بقدميها لا تحتملان العودة إلى الشارع مرة أخرى والهواء المثلج يستقر في رئتيها، ولو خرجت هذه اللحظة فإنها لن تقوى على السير خطوتين وأجرة التاكسي هنا ليست في الوارد، كان صوت البارمن هو ما تنتظره في هذه اللحظة.

«البرد شديد في الخارج ولا أقوى على العودة سيراً على الأقدام».

وجدت نفسها واقعة في الفخ، إلى أن أنقذها صوت الرجل القابع في الزاوية آمراً البارمن أن يرى ماذا تشرب السيدة.

بدأت الأمسية بكأس الويسكي وخاطرة عابرة مرت ببالها.

«ماذا لو دخل فلين المكان هذه اللحظة؟».

****

(٧)

أشاعت المدفأة في الغرفة دفئاً غريباً عن المناخ الخارجي، فقد تدفقت الحرارة عبر الأرجاء على مدى الليلة المنصرمة بعد عودتها عند الفجر، وألقت برأسها على الوسادة بكامل ملابسها واستسلمت لنوم عميق لم تحلم به حتى مع أقراص الزناكس التي تستحوذ عليها بين وقت وآخر.. كانت مستثارة جنسياً مثلما كان يحدث لها خلال سنوات المراهقة، فعمدت إلى الاستمناء بعد مغادرة الرجل الذي رافقها، حتى خارت قواها وانسلت في الفراش، فخيم السكون على الغرفة، وانتشرت رائحة السيجار الذي خلفه الرجل وراءه قبل أن يغادر بعد أن صعد بها إلى الشقة إثر فقدان توازنها لإفراطها في الشراب، وبعد المسافة التي قطعتها في الذهاب إلى النادي، تناثر رذاذ السيجار ورماده خلال فترة الحديث القصير الذي دار بينهما استكمالاً للحديث الذي بدآه في النادي، وانتهى إلى معرفة من دون أن يصل الأمر إلى علاقة جسدية، فقد بدأ الحديث بكأس ويسكي قدمها لها ثم توالت الأسئلة بينه وبينها وتداعت معه كؤوس أخرى وفرت ثمنها، بعدها واجهت محاولته الرقص معها فأخبرته ضاحكة، في المرة التالية بعد

أن تتعلم الرقص من أجله، لم تعرف عن الرجل سوى أنه سياسي من حزب المحافظين يعمل مساعداً لأحد الوزراء المحافظين من دون أن يطلعها على اسم الوزير، وبعد بضع كؤوس أدارت رأسها فتجرأت وسألته هل يعمل في مكتب وزير العدل أو الداخلية فاستطلع السبب، فأخبرته بأنها بلغت حد اليأس في الحصول على الإقامة الدائمة، وعندها بدأ الحديث عن شخصيتها وماذا تعمل ثم فقدت خيط الكلام ولم تعِ نفسها إلا وهي تصعد الشقة ثم تفقد الوعي مرة أخرى.

فتحت عينيها عند الظهيرة الغائمة وعلى صوت المطر في الخارج والظلام يسود الغرفة، تنفست الهواء قبل أن تنهض من الفراش وتصدم بقدمها طرف السرير على الأرض، نظرت حولها فرأت المكان مرتباً ولا أثر إلا لبعض الرماد على الأرض وحقيبتها في زاوية من أعلى السرير، فيما علبة السجائر مفتوحة ولا تحتوي سوى على سيجارتين من العلبة الكاملة التي فتحتها الليلة الماضية، ولا تعلم كيف انتهت العلبة على هذا الشكل وهي التي لم تكن تدخن سوى سيجارتين أو ثلاث في اليوم، كانت الأمسية المنصرمة الأولى منذ مجيئها إلى بريطانيا تقضيها في مغامرة ليلية دون حسابات للنتائج، كان تصرفها الليلة الفائتة نتيجة شعور بالوصول إلى النهاية المسدودة في حياتها الرتيبة الخالية من أي نتائج بالرغم من مضي ثلاث سنوات من وضع قدميها على الأرض البريطانية ولم تكتسب سوى لقب ساخر يطلقه البعض عليها وهو «يسرا البريطانية»، ولشدة كراهيتها لهذه العبارة

لم تستطع منعهم من الاستمرار في إطلاقها عليها، وها قد انتهى بها الأمر في الفراش وحيدة حتى بعد أن وصل الرجل معها إلى الشقة، ولم تستسلم لأي رغبة أو محاولة لاختبار أنوثتها المتواطئة مع الجمود، ولا الشعور حتى هذه الساعة بأن ثمة رجلاً يمكنها التقرب منه أو الإحساس برغبة في المضاجعة، وإذا ما فعلت ابتداء من اللحظة فسوف تفعلها من أجل الإقامة الدائمة بعد أن تضمن أن المحاولة تستحق ذلك، عندها استعادت ذكريات الأمسية المنصرمة واستذكرت اسم الرجل وهو «ألن» وتوسمت فيه خيط الأمل من أجل شيء ما في الأفق يقود إلى تبديل حياتها، وتخيلت للحظة وهي قرب النافذة تصغي إلى صوت المطر في الخارج أمراً ما يطرأ ويقلب حياتها رأساً على عقب، فجأة وفي خضم هذا الإحساس نظرت إلى نفسها في المرآة وهي بملابس الأمس فطغى شعور بالألم من فقرها الذي جعلها ترتدي هذه الخردة من الملابس، وساورها الشك في التعرف إلى الآخرين وإقامة العلاقات والنجاح فيها وهي لا تملك الفرصة للعناية بشكلها الداخلي، لم يؤثر فيها ما سمعته عن البريطانيين والأجانب عموماً من عدم اهتمامهم بالمظهر الخارجي، بل على العكس رأت الإنكليز والنساء تحديداً يغرقن في التفاصيل من حيث العناية بالمظهر، ويبالغن أكثر مما تصورت في الزينة وإبراز الشكل الخارجي، راحت تجول في المكان الضيق وتفحص الأشياء بوجوم، وفجأة قفزت من مكانها مع صوت الرعد في الخارج، كانت السماء أشبه ببساط أسود تتخلله

ثقوب رمادية، تضيء عندما يشقها البرق بكتل كهربائية تحفر أخاديد في أفق الليل الإنكليزي، أطلت من النافذة فرأت فجأة حفرة غائرة في الفضاء أعادت إليها منظر سماء الزبير، جمدت في مكانها وسمعت صوتاً من بعيد يهمس.

«لست وحيدة يا بنتي، الله معك».

كان ذلك أشبه بصوت جبار الشريف.

****

(٨)

[بدأت قصة الرحيل مع أمسية دافئة قبل ليل العشرين من مارس من عام ٢٠٠٣، كانت والدتها قبل ذلك بأسبوع قد جمعت حقائبها بسرية ومن دون أن تبوح لأحد من الجيران الذين كانوا حينذاك في قلق، وتوقع مع خوف لما يجري من سرعة في التداعيات المتلاحقة مع بدء إعلان اقتراب توجيه ضربة إلى العراق وبدء الحرب الثالثة، كانت يسرا التي أنهت المرحلة الثانوية من التعليم تواً تراقب والدتها وهي مشغولة بالهرب إلى الكويت حالما تبدأ الحرب كما خططت لها مع بعض الجيران الذين وضعوا خطة اللجوء إلى الخارج؛ راح الجميع يتحركون وكأن على رؤوسهم الطير، الأجواء مشحونة بالتذمر من فقدان المؤن وانتشار المجاعة في بعض المناطق وارتفاع أسعار المواد الغذائية، ظهر الناس في الشوارع يهيمون على وجوههم التي يكتنفها غبار كثيف بدا كالسحب تعلو السماء وانتشرت رائحة غريبة منذ أيام لفتت انتباه البعض، فسرتها نجوى القطان لابنتها يسرا على أنها غازات سامة ينشرها النظام لتغطية السماء بمواد تمنع طائرات التحالف من رؤية أهدافها.

«ماذا تخرف»، هكذا ردت الفتاة التي بلغت حينها الثامنة عشرة وأنهت توّاً المرحلة الثانوية بامتياز، أفسدت أجواء الحرب احتفالها بالنتيجة التي كانت تأمل أن تدخلها الجامعة.

«سأبحث عن الحلم، عن عمي هيثم عبر الإنترنت وألتحق بجامعة في حلب».

«سيأتي الحلم من الكويت، ستغادرين أنتِ وسام إلى أرض الخير».

ردت عليها بنبرة مستفزة وهي تتعمد النظر إلى عينيها.

«لم تذكري فراس، هو ابنك أيضاً؟».

توقفت نجوى القطان عند عتبة باب الغرفة التي كانت تهم بدخولها، وتأملت وجه ابنتها وقالت وهي تصر على أسنانها كما اعتادت عندما تغضب.

«تتحدثين كأنك جبار السعدون».

ردت الفتاة بسرعة وبلهجة حازمة.

«جبار الشريف من فضلك».

****

تطلعت نجوى القطان إلى سماء العراق، ولاح لها أفق الزبير وحده من بين كل الأمكنة وبدا لها الفضاء كأنه يوم الحشر، سمعت يسرا صوت نجوى القطان تتمتم ببضع كلمات غير منسقة، وتناهى إلى سمعها من غرفة المعيشة الملاصقة للفناء الخارجي ويفصلهما

باب إطاره من الخشب المدهون بصبغ «الوارنيش» الرصاصي اللون، صوت لمقرئ يتلو سورة الحشر ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) ﴾.

توقفت لوهلة، أطلت بوجهها من نافذة الغرفة نحو السماء الملبدة بالغازات والغيوم، شعرت ببرودة تسري في يدها التي وضعتها على إطار النافذة وسرت رعشة بداخلها وهي تسمع المقرئ الذي لم تميز إن كان يقرأ من إذاعة بغداد التي ما انفكت تذيع بعض القراءات القرآنية منذ أن لاح لها موعد شن الهجوم الدولي على البلاد أو خلال جهاز تسجيل أدارته والدتها التي اعتادت سماع القرآن كلما شعرت بحزن يدهمها نتيجة للأوضاع المتدهورة في الزبير، امتد تأملها إلى السماء بين نظرة فاحصة للغيوم تجري عند المساء وبين صوت المقرئ الذي انساب، يزرع الخوف في داخلها وكأنه ينذر بمحنة تطرق الأبواب، طفقت تتحسس وجهها بكفها كمن تقيس درجة حرارتها، لتصحو على صوت والدتها يأتي من الطابق العلوي.

«لا أحد يسقي الحديقة هذه الأيام، ألقي نظرة إذا ما كانت بحاجة إلى الماء».

ردت عليها وهي تبلع موجة تثاؤب اجتاحتها محاولة كبت استيائها الذي أخذ يتصاعد في الآونة الأخيرة.

«أنت تعلمين لا توجد مياه هذه الأيام، حتى الصهاريج لم تعد تأتي؟».

كانت البلاد واقعة تحت حصار خانق أثر في إمدادات الكهرباء والماء، وكانت أغلب الساعات يعيشها السكان إما بدون مياه أو كهرباء وإما الاثنين معاً.. ظلت تنظر عبر النافذة فيما تتناهى أصوات من الخارج على غير العادة، إذ كان الحي يغط في هدوء والناس اعتادوا الاختباء أو العزلة لشعورهم بالمرارة واليأس، كانت طبول الحرب التي تقرع منذ أيام قد بلغت مداها خلال الساعات الأخيرة من اليوم، ودار شريط السنوات المنصرمة لبرهة في ذهنها الواهن جراء التعب والتشويش، عبرت سنوات الطفولة ووجوه زميلاتها في الدراسة، رأت وجه صباح السند التي تذكرها بغيرتها منها وهي تأتي الفصل متأنقة وتسير بخطوات متكبرة تعكس تميزها عن بقية الطالبات، ثم كيف انعكست الغيرة صداقة بينهما حتى يوم وفاتها المفاجئة نتيجة مرض غامض عصف بها لبضعة أيام ثم رحلت مخلفة حسرة في المدرسة كلها، تذكرت سعاد بن سلوم مدرسة العلوم بوجهها الطفولي وصوتها الذكوري وهي تقذف الكلمات النابية على الطالبات، وكيف وقعت المشاجرة ذات صباح عند باب الفصل مع إحدى الطالبات البويات وتدعى «خضرة المياس».

عبرت يسرا مراحل الدراسة خلال فترات الحروب منذ الطفولة وحتى المراهقة والأجـواء كلها مشبعة بالحروب والانتفاضات

والحصار الذي ترك بصماته على النفوس، كانت وهي على مقاعد الدراسة الابتدائية والإعدادية والثانوية تسير بالنمط نفسه من الرتابة والوحدة والعزلة، وكانت هذه الحالات تتضاعف سنة بعد أخرى لكن وللغرابة أخذ ذكاؤها يتصاعد هو الآخر وكلما ازدادت عزلة، زادت ذكاءً ووسع ذلك من فجوة العلاقة بينها وبين الأم.

لم يكن لدى والدتها أهمية للحالة الانعزالية التي مرت بها، البداية وفي فترة الطفولة، مرحلتها التي قطعتها سريعاً، فاتحت فيها نجوى القطان جبار الشريف بحالة الفتاة وأبدت له في المرة قبل الأخيرة من بدء الحرب شكوكها من أن تكون الفتاة تعاني التوحد، فما كان منه إلا أن أطلق ضحكة ساخرة وهو الذي لا يعرف الضحك ولا حتى الابتسام في حياته، نظر إليها نظرة صارمة قائلاً بنبرة جافة:

«بعد كل هذه السنوات اكتشفت حضرتك توحدها، يا سلام عليك».

ثم شرح لها بنبرة أخرى مختلفة بأن فتاة بهذا الذكاء الخارق الذي يفوق ذكاء النساء من أمثالها لا يمكن أن تكون متوحدة، واسترسل في المماحكة قائلاً: «البنت سر أبيها وهي تشبهني»، بعدها لم يكن الشغل الشاغل للأم ما يجري للفتاة، كأنما كانت كلمات جبار الشريف بمثابة قطع للجسور بينها وبين الابنة المدللة لديه، وشعرت بأنها استحوذت عليه من دون بقية أفراد الأسرة، بل ذهبت أبعد من ذلك حين تجاهلت فيما بعد كل ما تمر به يسرا من مواجهات في حياتها سواء في الحي

أو في المدرسة، ولم تكن في يوم آخر بعد تلك المواجهة مع الأب، محل الاطمئنان إليها من قبل الأم، كانت ترى أن الأطفال لا يعانون التوحد إذا كانوا بهذا الخبث والذكاء، رأت في ابنتها خبث الطفولة في البداية، ثم اكتشفت فيها خبث النساء حينما كبرت، ولم يمر يوم بعد ذلك شعرت فيه يسرا بوجود الأم إلا عندما تمرض أو تصاب بإصابة من سقطة، أو صدمة، فقد كانت تقترب منها وتعالجها في حين كانت الأخرى تكتفي بالمراقبة والنظر إلى عيني الأم لعلها تصطاد مسحة من عاطفة.

كان الاكتشاف المباغت لأعراض التوحد عندما التقت هيثم الشريف الذي لاحظ بعد أقل من شهر حالة الفتاة وربطها بما قرأه وسمعه عن التوحد عند الأطفال الذين تظهر أعراضهم منذ الشهور الأولى، ولكنه توقف عندما ربط بين ما يعرفه عن هذا المرض من تأخر الطفل في الكلام واللعب والتفاعل مع الآخرين، وبين ما هي عليه من التفوق والذكاء والنتائج التي حققتها في كل مراحلها الدراسية.

****

عقارب الساعة تشير إلى الرابعة من ٢٠ مـارس ٢٠٠٣ اعتاد السكان السهر وجافى النوم غالبيتهم مع انتظار قرب الضربة وشعورهم بالخوف والقلق، ومع قرب الفجر بعد انقضاء ٩٠ دقيقة على مهلة مغادرة صدام حسين، دوت انفجارات مروعة، وسمعت أصوات رهيبة هزت أركان الأرض وأيقظت من كان غاطاً في النوم «حانت ساعة القيامة ولعلها ساعة الفرج أيضاً». هذا ما رددته نجوى القطان وهي تدثر سام باللحاف على الكنبة الصفراء بقلب الصالة الأمامية من الدار حيث ألقى بجسده المنهك وغط في نوم عميق ولم توقظه تلك الأصوات، وفي زاوية من الدار اختبأت يسرا متدثرة بعدة قطع من الملابس لا تعرف كيف وصلت إليها ولا كيف ارتدتها ولكنها في الغالب كانت تشعر بالبرد والفزع والرغبة في التقيؤ الخارج عن الإرادة، وهو شعور لازمها منذ الطفولة ثم عاودها غداة حرب الخليج الثانية التي شنها التحالف لتحرير الكويت، وها هو الآن يعاودها مع الحرب الثالثة، كانت طفلة لم تستشعر الخوف ولا القلق ولا ماهية ما يجري ولكنها عبرت عن تلك الحالة بالرغبة في التقيؤ، فلازمها ذلك الشعور في المدرسة وعند المواقف المعقدة التي تمر بها كلما وقع حدث أو واجهت موقفاً.

****

عاشت بداية الحرب ونهايتها على صدام، منذ سمعت باسمه حتى سقوطه، شريط ذكريات ارتبط باسمه ووالدها جبار الشريف؛ فعندما خرج العالم يعلن نهاية الحرب وبداية حرب أخرى داخلية انتهت قصة جبار، وبدأت قصة الرحيل بحثاً عن بداية جديدة للحياة. منذ تلك اللحظة حتى اليوم ظل البحث قائماً، لم تكن الحرب إلا بداية المحنة لها، وللحرب عندها وجه آخر هو بحثها الدائم عن ملاذ وجنسية ووطن تستقر فيه، ومن هنا بدت حلب تلوح في الأفق وأخذ اسم هيثم الشريف يتسلل إلى خيالها وتحلم به وظهرت له عدة صور مختلفة في خيالها عنه، فمرة يبدو ضخماً سميناً وعابساً، يلبس البذلة كالتي كان يرتديها والدها، وفوقها يرتدي البشت النجفي البني، ومرة تراه قصيراً وأخرى عجوزاً، كانت أحلامها كلها عنه مختلفة في كل مرة ولم تستقر صورة من الصور في خيالها لمرة واحدة إلى أن واجهت الصورة ورأت الأصل واختلف بعدها الوضع كلية.

في الأيـام التالية، وبعد وصول طلائع القوات الأميركية، والبريطانية بوجوههم المغبرة إلى الجنوب والشمال، وفي ٩ أبريل ٢٠٠٣ تقدمت القوات الأميركية وسط بغداد وقامت بتحطيم تمثال صدام، وسيطر المقاتلون على المدن والشوارع. ومع انتشار أعمال النهب والتخريب التي روعت السكان انبثق المجهول يغطي سماء البلاد، وساد الوجوم الجميع وسكن الخوف النفوس، كان قرارها بالرحيل مهما كلف الأمر، ولكنها رغم ذلك لا تعرف إلى أين؟ ومتى؟

بالرغم من إغراء والدتها لها بالعبور إلى الكويت، إذ جاءتها ذات صباح ماطر وكانت تمسك بيدها جواز سفر كويتياً قديماً منتهي الصلاحية ورفعته في وجهها قائلة بنبرة منتصرة.

«هذه الوثيقة سوف تنقذنا من الموت».

لم تتوقع لها بعد ذلك أن تخرج أو تعرف عنها شيئاً «هل اختفت أمي من حياتي إلى الأبد؟» ظلت سنوات تجتر السؤال تلو الآخر كلما مرت حقب زمنية تنقلت خلالها عابرة الحدود والمطارات، مدناً وعواصم، لم يحدث خلالها ولا مرة أن سأل عنها أحد أو تقصى حولها طرف ما على سطح الكرة الأرضية، غابت في الدنيا وحيدة بعد أن فقدت صلتها بآخر فرع في الشجرة وهو هيثم الشريف الذي كانت قصته تستحق أن تروى.

****

(٩)

جعلت من اليوم التالي والأيام التالية لمغامرتها الليلية نقلة جديدة في سلوكها أشبه ما تكون بالقفزة في الهواء، وقد لمح فلين التغيير المباغت الذي جرفها في الكلام والمظهر والجرأة، فساوره الشك في الأسباب، وتعمد نبشها بأكثر من إشارة منه، أنها على علاقة بأحد. كان الهدف من هذا التلميح هو التأكد من أن تحولها في المظهر خلفه شخص ما، وهي عادة غالباً ما تكون وراء العلاقات العاطفية، هذا الشعور لديه، ولد غيرة متخفية في صورة مطاردة فضولية بالأسئلة المغلفة بالمزاح، أما زميلاتها في قسم خدمة الغرف، فقد بدأن يتهامسن من ورائها حول هذا التغيير الطارئ ورحن يراقبن تصرفاتها، وبعضهن بدأن يشعرن بالغيرة خصوصاً مع التطور في مظهرها واستعادتها بريق الجمال الذي كانت عليه، فعيناها القرمزيتان، تنتميان إلى سلالة من عائلة عراقية مقيمة بالبصرة غالبية أفرادها تتميز عيونهم باللون القرمزي منذ عقود، ومنه استمدت العائلة لقبها «القرمزي»، هذا اللون الذي أخفته الأحداث والنزوح الذي خلفته كل هذه الندوب ومسحت روحها المشبعة بالنكهة العراقية المحلية، وغلفتها بطبقة من الجمود

العاطفي، تحجرت مشاعرها تجاه العلاقات العاطفية بسبب ما مرت به من مواجهات مع الكون برمته، حتى عندما حسمت أمرها وقررت خوض معركتها مع الآخرين والتواصل معهم واستغلالهم لم تسعفها ذاتها الداخلية الغارقة في الركود الحسي من الانصياع للعاطفة تجاه أي من الرجال، بقدر ما وظفت كل أجهزتها الداخلية الحسية والجسدية لاستقلالها في إخضاع أولئك الذين يحومون حولها لإرادتها الجديدة وهي تسعى بذلك للتغيير السريع مع إلغاء بعض الحسابات من قائمتها المتحفظة.

كانت متيقنة أن انتهاك حالة الجمود الذي عاشته طوال الفترة الماضية يتطلب منها تغييرات تبدأ بملابسها، وهو أمر مكلف لا يتحمله راتبها المحدود وتوزيعه بين الإيجار والطعام والأدوية والمصاريف اليومية، هذه المعضلة اعترضت طريق التغيير الذي أوشكت أن تبدأه، فالمشاعر قادرة على تغييرها، والأفكار يمكن السيطرة عليها، ما عدا تغيير المظهر المكلف، وللتغلب على هذه المشكلة اتفقت مع صديقة لها من العاملات على تبادل الملابس بينهما.

تنبهت إلى أنها توشك على الانخراط في مغامرة أخرى تبدأها بنزع الخجل من حياتها ولأول مرة تهدر كرامتها، كما شعرت من تصرفها بالدخول في صفقة تبادل الملابس التي ابتدعتها وهي تعلم بأنها لا تملك الملابس اللائقة التي تقايض بها الآخرين، استدعت كل المخلوقات الشيطانية النائمة منذ سنين في كهوف أعماقها لتوقظ

المارد المتجمد منذ عبرت الحدود العراقية السورية باتجاه حلب، ثم عبورها الثاني من الأرض السورية إلى الحدود التركية، كانت الفترة التي عملت فيها بالخطوط الجوية اللبنانية، وقتاً مستقطعاً من حياتها الهادئة التي لم تستفد منها في ترقية ذوقها في الملابس والمظهر، رغم الفترة التي قضتها في بيروت وسط تشكيلات الأذواق النسائية المختلفة وضمن جميع أنواع الموضة العالمية التي يغص بها لبنان، كل ذلك استرجعته في ذاكرتها وهي تعيد رسم خريطة الطريق لها للقفز من حقبة إلى أخرى بعد أن يئست من الحصول على الجنسية البريطانية بالطرائق الروتينية، وبعد الاستخارة من دون صلاة! خطت الخطوة المميتة كما سمتها في داخلها برمي الخجل وراءها، ونبذ الشعور بالدونية.

بادرت في خطوتها الأولى بالتحدث إلى إحدى زميلاتها المقربات منها من أصل أيرلندي وتدعى «فلونا»عن تبادل ملابسهما توفيراً للمال، وفي الوقت نفسه للاستفادة إحداهما من الأخرى وفوجئت بتجاوبها معها، بل أضافت فلونا إليهما اثنتين من صديقاتها كانتا على قدر من اليسر وتتوافر لديهما مجموعة من الملابس، والوحيدة التي فازت في هذه المقايضة هي التي لم ترَ أيّاً من الفتيات مستعدة لتقبل ملابسها، وإن أخذنها فهو من باب المجاملة وهي أول من أدركت ذلك ولكنها لم تندم على خطوتها تلك، كانت بحاجة إلى مثل هذه المقايضة غير العادلة من منظور الفتيات الأخريات لأنها بهذه الوسيلة وحدها تمكنت من تغيير مظهرها ولو على حساب غيرها؛ لم

تكن تملك خياراً آخر غير الاتجار بجسدها الأمر الذي لم تكن مستعدة له حتى الآن رغم أن هذا الهاجس راودها ونزع عنها مشاعر العفة التي طالما كانت ملازمة لها منذ تشربت توجيهات البيت الديني بالبصرة، وحوصرت ضمن نطاق نظرات الأخوة الذين تربوا بدورهم على النزعة المحافظة قبل أن تلقي وراءها بكل ذلك الإرث الديني، وتتحلل من طقوس الأسرة الممتدة إلى عمق السنين قبل أن تأتي الحرب وتهدر كل ذلك المكون الأسري وتتركها بعيدة عن الديار، لا تعلم بما جرى تلك الليلة المظلمة حينما سقطت الصواريخ حول دارها، لا تعلم بما تخطط له الأقدار لتأتي الأيام المبهمة ترسم خريطة حياتها وقد انتهت الآن بمدينة الضباب، تتعلم من جديد كيف تعيد تشكيل حياتها بخلاف ما كان قدرها الأول في البصرة قد رسمه لها.

****

استمرت في فتح حقائب النزلاء، تتلصص على خزائن الملابس وتنقب في الأدراج، وفي الوقت نفسه أخذت تغير هيئتها وتجمّل صورتها وتبحث في عيون الآخرين عن ردود الأفعال لتتعرف إلى ما توصلت إليه في التعديلات المظهرية.. لاحظ البعض في الأيام الأولى الفرق، ليس في الشكل فقط بل في التصرفات وقد زادت هذه التغييرات من ردة فعل فلين الذي تحول عطفه عليها إلى معاملة جافة من غير أن يكشف عنها مباشرة، تمثلت في التزامه الصمت منذ أن تركب معه السيارة في الصباح وحتى يقطعا المسافة إلى لندن، وقد بادرت في

كل مرة تكسر الصمت بتعليق منها، فتجابه بهزة رأس أو نظرة جامدة، وقد أدركت أنه يفتعل هذا التصرف ليوصل إليها رسالته التي لا تعلم مضمونها، ولكنها تدرك بأنه يطمع في علاقة عابرة، كانت تخشى أن يفقد اهتمامه بها، فقد استفادت منه كثيراً على صعيد العمل والتوصيل وتوفير الشقة ولكنها لا تطيق مجرد أن يقترب منها، فقد رأت فيه جسداً متعباً متهرئاً وأنفاساً حادة غير زكية الرائحة، هكذا اعتبرتها كلما فتح فمه بالحديث في الصباح الباكر، بالإضافة إلى أنه متزوج وله أولاد في مثل سنّها وأخيراً هو من ذلك النوع الثرثار السمج الذي لا يقول شيئاً مفيداً طوال الوقت سوى أحاديث مملة عن الطقس وارتفاع الأسعار وتعليقات ساخرة على العاملين معه.. لم تفقد الثقة بأنها قادرة على استمالته من دون الوقوع في شركه، ولكنها تخشى مجرد التفكير في معاداته لها لأنها ستفقد حظوته وعندها ستقع في كمائنه التي ينصبها عادة لكل من لا يطيقه، ليست في وارد خسارة هذا الرجل وليست مستعدة لتقبل أنفاسه، فعليها أن تمسك العصا من الوسط وتلعب به قدر المستطاع إلى حين التمكن من الإفلات من نفوذه، لملمت أفكارها وغازلته ببضع كلمات وسرعان ما عاد يغمرها بحنان مصطنع ولكنه لا يخلو من اهتمام يميزها من بقية الزملاء في العمل الذين في غالبيتهم يلمسون هذا التمييز ويستشعرون أن ثمة علاقة ما وإن لم تصل إلى مستوى أن تكون خليلته.. الإنكليز لهم موهبة فراسة بالنظر في معرفة خفايا العلاقات ومستوى ما تصل إليه، وربما دارت أحاديث

سرية من وراء الستار حول هذه العلاقة المتميزة ولكنهم لم يصلوا إلى مستوى التلميح إليها.

قررت ألا تنظر وراءهـا وإلى كل ما جرى لها في السنوات المنصرمة، حسمت أمرها وهمست لنفسها، بعبارة « قضي الأمر»، وعنت بذلك أن طريق الوصول لتحقيق الأهداف الذي بدأته حين أقامت في دبي ولم تسعفها الظروف هناك، لابد من إكماله، فقد تم سجنها لتصاب بعدها بخيبة أمل دفعتها للنكوص عن مغامرة الصعود، وقد أخافها العالم وتجردت من شعور المغامرة، فسيطر عليها الخوف ومن يومها وهي تتجنب الخوض في محاولات الوصول إلى القمة؛ كانت ترى الصعود إلى فوق يشبه الصعود إلى المنحدر، فالطرق أمامها خالية من الضمانات والدروب وعرة في كل ما عبرته مع أبواب موصدة من كل الجهات، ولكن يبقى أمامها أن تستعد لانقلاب تحدثه في حياتها تدفع ثمنه في البداية لتقفز من الحفرة التي تعيش فيها الآن وقد وجدت في ألن وسعاد البشراوي وغيرهما، وسيلة لابد من المغامرة المحفوفة بالمجازفة، ومن غير ذلك ستبقى مهددة بوجودها وستظل عينها على الترحال الذي بدأته من البصرة مروراً بحلب وانتهاء بلندن، وحان الوقت لتتوقف عند منعطف يكون بوابة القمة.

تسارعت التحولات حولها وتمكنت من التصرف بعجرفة وذكاء، حتى أنها أخذت تتقن الدهاء الذي طالما سمعت عنه، واستغلت قراءة بعض المجلات المتاحة لها لتطور وسيلة الاحتيال على المواقف،

فتخلصت موقتاً من ملاحقة فلين لها بتسريبها له أنها تعالج من مرض السيلان، إلا أن ذلك انعكس عليها سلباً بعد أيام حينما انتشر الخبر سراً بين بعض زميلاتها وأدركت أن فلين ليس واشياً فحسب بل حقيراً، وواصلت التعاطي معه ولم تقطع الصلة به لحسابات تبني عليها موقفها قبل أن ترمي به خارج نطاق مصلحتها التي أصبحت الآن فوق كل شيء، كانت فترة حساسة من حياتها التي أخذت فجأة منحى آخر كما لو أنها بدلت بعض الأجهزة القديمة بأجهزة جديدة، أو كما لو أنها ولدت مرة أخرى من رحم أخرى، ومن بقعة أخرى من الأرض، مرت بأحداث مغايرة للتي مرت بها من قبل، كانت تشعر بداخلها أنها أصبحت شريرة من غير أن تعمد إلى ذلك بإرادتها، ومكنتها هذه المشاعر من التخلص نسبياً من بعض المشاهد المفرطة في القسوة التي عانتها، الشيء الوحيد الذي ظل يقض مضجعها هو المال، كانت بحاجة لأن تلبس وتأكل وتحسن من مظهرها الخارجي بالإضافة إلى تحسين التغذية لديها، فقد كانت تكتفي بالأطعمة الرخيصة والمنتهية الصلاحية في أغلب الأوقات اختصاراً للمصاريف التي لم تكن قادرة على تحملها مع ما تدفعه من ضرائب وإيجار ومصاريف حياتية يومية، ومع انتظار شيء يحدث ولم يحدث، جالت الأفكار في ذهنها عما يمكن أن تفعله لجذب المال إليها، وصادف أن وقع في يدها كتاب «ذا سكريت» فراحت تلتهمه بالقراءة كلما سنح لها الوقت في محاولة لتقمص الأفكار الواردة فيه لاستيعاب فهم جديد للحياة من خلال ما يطرحه من معادلات توازي

بين اليأس والأمل والتمني والعمل واجتذاب العناصر الإيجابية في الحياة والإفلات من شعورها بالخيبة كلما همت بالانطلاق في مغامرة من خلال محيطها الاجتماعي المحدود الذي تصارع من أجل توسيعه بوسائل شتى، فتصطدم بالهزيمة في كل مرة تراهن على محاولة ما، رأت في كتاب «ذا سكريت» مفتاحاً يفتح لها الباب لولوج عالم الأمل الذي طالما بحثت عنه وأفلت منها في نهاية المطاف.

صادف ذات صباح باكر عندما نزلت من سيارة فلين أمام بوابة الفندق أن رأت سعاد البشراوي قادمة في سيارة ليموزين سوداء، صعقت لدى تجاهلها لها حتى وهي تلوح لها بتحية من يدها من بعيد، وتساءلت مستغربة عما إذا كانت مسرعة ولم تأخذ بالها منها، أو ثمة رسالة من وراء تجاهلها، أم إنها لم تعرفها بسبب ذهنها المشتت نتيجة مخدر ما، قلبت الاحتمالات في ذهنها ثم تركت لعقلها الباطن يستنبط النتيجة، استقرت على ترك الموقف يفسر نفسه إلى حين تلقاها في إحدى الغرف، وما عليها أن تفعله سوى معرفة الغرفة التي تشغلها وسيكون لكل حادث حديث.

بدأت يومها من الغرفة ٢٩٦ بالطبقة الثانية، وكانت غرفة عادية جداً لا تستفزها في شيء وبدا من محتوياتها شخصية النزيل، رجل عادي طبيعي لا تتضمن مخلفاته ما يثير فضولها، ولم تستغرق سوى بضع دقائق انتهت منها بسرعة. وكحسن نية منها لكونها لم تتعب في تنظيفها تركت له هدية على الوسادة، طريقة جديدة في تصفيف

الفراش مع وضع مميز للمخدات بالإضافة إلى كمية جديدة من أدوات الاستحمام وخرجت مسرعة تستعلم عن رقم غرفة سعاد البشراوي، بحثت عن فلين ليساعدها عن طريق علاقاته بقسم الاستقبال ولم تجده، فآثرت أن تسند المهمة إلى نفسها في البحث والتقصي بالمرور على الغرف الخاصة والمزدوجة لتتأكد في البداية من المكان، ثم تتدبّر الوسيلة للوصول إلى الغرفة قبل غيرها سواء بالتلاعب بجدول تنظيف الغرف أو بالاتفاق مع زميلة لها على ألا يكون ذلك مثيراً للشك.

كانت الساعة الثامنة والنصف صباحاً ونادراً ما تكون هناك غرف في هذه الساعة فارغة وقابلة للتنظيف، وحتى تتخلص من أعمال الخدمة الداخلية بالقسم في إعداد عربات التنظيف أو بتلقي التعليمات الروتينية، توجهت إلى الإدارة العليا وسجلت طلبها في قائمة الدورات التدريبية التي أعلن عنها لشغل وظيفة بقسم الاستقبال، وهذه المرة الثالثة التي تملأ فيها طلباً من هذا القبيل دون أن توفق في الحصول على مقعد بهذه الدورات التي تعتبر فرصة لكل من يقع عليه الاختيار، فالراتب أعلى والمكان أنظف والفرصة للتعرف إلى النزلاء ولفت انتباههم أكثر، حيث يتيح اللباس الرسمي اجتذاب الأنظار، عكس اللباس الخاص بتنظيف الغرف الذي عادة ما يثير التقزز لدى النزلاء لكونه يوحي بتنظيف الحمامات ويعطي انطباعاً بأن الشخصية ما هي إلا خادمة.

تراءى لها وهي تدخن سيجارة بناصية البوابة الخارجية أسفل

الفندق بأن الوقت يمر بطيئاً وثمة حافز يشغل بالها منذ أن صادفت البشراوي في ردهة الفندق الخارجية وعلقت بذهنها فكرة التغيير وفرصة القفز من موقعها المنحط كما تعتبره، اليوم من دون سائر الأيام المنصرمة ولا تعرف السبب وراء هذا الشعور المباغت الذي قطعه سامي الماليزي الوافد توّاًمن فرع آخر والذي يعمل بقسم الإدارة المالية، وقد ظهر فجأة أمامها بقامته القصيرة، ولون بشرته الخمرية وعينيه اللتين تشعان ذكاء حاداً، وصوته الهادئ البطيء، بدا من هيئته أنه شاب ثلاثيني طموح من نظرته، أطل بسيجارته، حياها وانتظر فرصة أن ترد التحية ثم بادر باختلاق حديث عابر متسائلاً .

«متى ينتهي هذا البرد القارس ويستعيد الناس توازنهم؟».

ردت عليه بأن ثمة موجة أخرى أقسى من هذه في الطريق خلال اليومين أو الثلاثة القادمة، فانهار بقامته أمامها مختلقاً صيغة أخرى للحوار، فتح بموجبها الباب للتطرق إلى بعض الأمور الشخصية، فكان سؤاله لها ما إذا كانت في الشرق الأوسط تمر مثل هذه الموجات الباردة فردت عليه بأنها لا تتذكر موجات كهذه حين كانت تقيم إلى جانب البحر، ولم تتطرق إلى أيّ شيء يتصل بالمكان أو الزمان أو الحالة التي يشتم منها أنها جاءت من خلفية مزدحمة بالأحداث أو من حالة معقدة، واكتفت بالقول إن الشرق الأوسط يختلف عن هنا.

«ما هي المزايا المطلوبة للعمل بقسم الاستقبال؟».

ألقت عليه بالسؤال وهي مدركة بأنه ليس هو الشخص المؤهل

لمعرفة الأسرار، ولا بمن يملك أن يساعدها بشيء في هذا المجال، ولكنه خدمها بشيء واحد حين أجابها بالقول..

«الجمال والمظهر وأنت جميلة».

عندما أطفأ سيجارته وانسحب استعادت جوابه لها، استغربت تعمده عدم تطرقه إلى مظهرها، فقد ذكر الجمال والمظهر وقال إنها جميلة ولم ينعت المظهر، هل يريد أن يبعث لها برسالة عن مظهرها وهي تعلم أنها في الفترة الأخيرة اعتنت بشكلها الخارجي أكثر من قبل؟ وماذا قال لو رآها من قبل؟ فجأة تنبهت إلى أنه رآها قبل ذلك عشرات المرات هنا وفي أماكن أخرى، ولم يلمح لها ولم يفتح معها أي حديث، ولعل الأمر يعود إلى أنه لم يستحسن مظهرها. غاصت في الأفكار وقبل أن تطاردها الخيالات والمشاعر السلبية وتطفح على السطح الأفكار السوداوية والمفرطة في اليأس، سارعت إلى الداخل وهي ترتعد من البرد وقد جمدت قدماها وتورد وجهها وبدت حائرة فيما ستقوم به، انعطفت نحو الردهة الداخلية المؤدية إلى قسم الأمن وهناك صادفتها المسز كالاهان السكرتيرة بالأمن وتوقفت تحييها ثم التفتت نحوها قبل أن تعبر الردهة وسألتها.

«هل تؤدين لي خدمة مسز كالاهان؟ آمل أن تساعديني على العثور على نزيل أين يقيم؟».

حان وقت رد الجميل، فقبل شهور رجتها المرأة أن تخدمها بالتجسس على غرفة شقيقها الذي جاء إلى الفندق وسكن ليلتين، وقد

سهلت لها مهمة دخول الغرفة والتقصي فيها إلى أن أدت لها الخدمة على أكمل وجه، وسلمتها تقريراً شفوياً عن كل محتويات الغرفة، وكان من أهمها العثور على علبة واقيات مغلقة داخل أحد الأدراج الصغيرة المحاذية للسرير مع حقنة فارغة بسلة النفايات بالحمام، وعندما مدت لها يدها بعشرين جنيهاً مكافأة لها على ذلك رفضت أخذها رغم حاجتها إلى المبلغ حينها، والآن حان وقت رد الخدمة.

كانت صدمتها عنيفة وهي تتلقى الجواب بعد بحث في قائمة النزلاء بأنه لا يوجد اسم سعاد البشراوي، لقد رأتها تدخل بنفسها قبل أربع ساعات مضت ولشدة غرابة الموضوع أن تأتي البشراوي الفندق في تلك الساعة المبكرة مع دخول الموظفين، «فأين اختفت إذن؟»، كان ذلك سؤالها المباشر للمسز «كالاهان» التي ردت بثقة قوية قائلة تنهي الموضوع.

«يستحيل أن تدخل باسم مستعار، فنحن فندق أربع نجوم ونظامنا الأمني لا يسمح بذلك، هناك تفسير أستطيع أن أعطيه، لقد جاءت زائرة لشخصية تقيم هنا».

«سعاد البشراوي سيدة ثرية وذات نفوذ، لماذا تسكن فندق أربع نجوم؟ بإمكانها أن تقيم بقصر من سبع نجوم ما الذي يأتي بها إلى هنا؟». هذا ما رددته بينها بين نفسها وهي تنتقل بين ردهة وأخرى ومن جناح إلى آخر حتى حان دورها في غرفة رقم ٤٥٩ التي دخلتها مكتئبة وغير متحمسة للعمل وتود لو تخرج وتطرق كل الغرف لفك

شفرة المرأة الغامضة التي ما فتئت تأتي إلى هذا المكان خفية وتخرج خفية وكانت لها فرصة للتقرب منها ودخول فضاء عالمها كي تجتذبها دائرتها المغناطيسية، ولعل من حظها اختراق عالم الغموض والنفوذ حتى لو على شكل تابعة أو مساعدة أو حتى خادمة، فمن شأن ذلك أن يفتح مغارة علي بابا التي تحوم حولها منذ سنوات، لكن يبدو أنّ ولوج هذا العالم بحاجة أولاً إلى الانزلاق نحو العالم السفلي وهي مستعدة منذ الآن، وهذه اللحظة اليائسة بالذات أن تسقط فيه.

راحت تقضي الوقت بتنظيف الغرفة غير مكترثة على غير عادتها لمحتوياتها، وكان بالها مشوشاً من شدة الانشغال حتى وقعت عيناها على ورقة صفراء صغيرة أسفل قدم الطاولة المحاذية للسرير، تناولتها وقرأت العبارة التالية.

«قابلني في مسجد «ريجنت بارك» في الزاوية المعهودة، الساعة المعتادة ولا تصحب الأطفال».

اجتاحتها موجة فضول لمزيد من التقصي، فأخذت تبحث في بقية المكان، فتحت الأدراج وقلبت الأوراق والمخلفات وكل ما تقع عليه يداها مع وضعها في الحسبان مرور الوقت، أقفلت الباب ودست يدها في كل شيء حتى وقعت أخيراً على كتاب القرصان الأحمر، وهو عبارة عن مؤلف قديم يبحث في طريقة التسلل إلى البريد الإلكتروني للغير وتخريبه أو العبث به، وعندما تصفحت لاحظت تأشيرة على بعض الفقرات في الكتاب بالخط الأحمر وركزت على طبيعة الفقرات

فوجدت أغلبها تتعلق بالقرصنة الإلكترونية، أثارها ما وجدته بين الأوراق الأخيرة من الكتاب وهو ورقة أخرى من حجم الورقة الأولى ولونها التي كانت أسفل السرير، الورقة الثانية تضمنت عبارة «السفر يوم ٢٩ حزيران على البغلة الزرقاء»، ثم كُتب سطر آخر أسفل الورقة «لا أنسى دعوة بوعائشة». أعادت الكتاب إلى وضعه بالضبط ورتبت المكان وأزاحت من رأسها صورة البشراوي وحلت مكانها أوراق الرجل الصفراء التي أثارت رغبتها في معرفة المزيد.

«هذا سلوك الإرهابي عادة»

لو تستطيع سبر غور هذا النزيل من دون تعريض مشاعرها وأفكارها للخوف والتشويش لاستمرت في البحث، ولكن الوقت يمضي وقد تجاوزت بدقائق الفترة المحددة لإنهاء التنظيف، سارعت بترتيب المكان كما وجدته، وفجأة تذكرت أين تضع الورقة الصفراء التي وجدتها أسفل قدم السرير، فليس من المبرر أن تتركها مكانها بما أنها قامت بالتنظيف ولا من المناسب أن ترميها، وقد تثير الشك حولها لو وضعتها له في مكان بارز، فقد يتساءل عن معنى وجود الورقة هنا، وبعد تردد وضعتها على المكتب إلى جانب مصباح الطاولة وألقت نظرة سريعة على المكان للتأكد من أن كل شيء بمكانه ثم أسرعت بالخروج تدفع عربة التنظيف ورأسها يتأجج بالأفكار المختلفة حول نزيل الغرفة رقم ٤٥٩ الذي أشعل ذهنها بالخيالات التي صنعتها بنفسها وهي تستمر في توسيعها عبر سلسلة من الأفكار المتدفقة صعوداً حتى

بلوغ الصورة النهائية للحدث، وهو أن ساكن هذه الغرفة إما أن يكون رجلاً غامضاً جاء من وراء الكون بحثاً عن هدف ما، وإما هو مشروع لإرهابي لا يتقن فن الاختفاء، وهي مترددة الآن بين الصمت أو الإبلاغ عنه لدى إدارة الأمن بالفندق كما هي الحال مع النظام المتبع.

بدد شعورها البرد الذي رافقها منذ عودتها من الردهة الخارجية للفندق إثر تدخينها السيجارة وبدأت تستعيد تدريجاً صورة سعاد البشراوي، مضى الصباح كله بين التفكير في البشراوي والغرفة ٤٥٩ وكأنها على موعد هذا اليوم مع كل هذه الأحداث التي لا تعرف ما علاقتها ببحثها عن وجودها وطموحاتها في بريطانيا التي جاءتها تحلم بحياة جديدة بعيدة عن كل إرث الماضي وتداعياته، كانت مشوشة لدرجة أنها لا تذكر أين وضعت الورقة الصفراء.. الوقت المتبقي بالجناح الرابع من الفندق المخصص لها اليوم ضيق، راحت تعبر الممرات للبحث عن غرفة فارغة، فوجدت واحدة عند المنعطف القريب من ردهة المصعد، وقفت برهة وتأملت المكان ثم فتحت الباب ودلفت الغرفة رقم ٤٧٦، وبدأت رحلتها مع الغرفة ومحتوياتها، وبادرت منذ اللحظة الأولى بدخول الحمام، وتجرعت رشفة قاسية من علبة بيرة مفتوحة وجدتها عند حافة المغسلة، ما زالت صالحة، ألقت بها في الزبالة، ثم تنفست بحدة وأطلقت زفرة حادة وبدأت العمل.

****

في طريق عودتها بالقطار مساءً، وفيما خيم السكون والصمت

على ركاب المقطورة التي تشغل واحداً من مقاعدها، والذين انشغل أغلبهم بقراءة الجريدة المعتادة أو بالتدثر حماية من البرد القارس الذي هجم إثر توقف الأمطار وهبوب الرياح الشمالية الشديدة، استلت ورقة بيضاء من جيبها وراحت تستعيد العبارات التي نقلتها من أوراق الغرفة الصفراء في محاولة لفهم ما تخفيه الكلمات من رموز كما لو كانت تحقق في المسألة. كانت الفكرة من وراء كل هذا الشغف بالأوراق والعبارات هو اكتشاف أمر جلل تحاول استغلاله لمصلحتها، كأن تبلغ السلطات عنها وتظهر تعاونها مع الأمن البريطاني لتكون لها حظوة في الحصول على الإقامة الدائمة، وربما تحسن من وضعها المعيشي والوظيفي، كانت دائبة التنقيب عن فرصة من هذا القبيل في كل ما تتعرض له من مواقف، تكاد تخترع موقفاً ما يساعد على بلوغ هذه الفرصة التي تبدي من خلاله تعاونها مع جهات العمل وتبدو في صورة المقيمة الشريفة المخلصة للمكان الذي تنتمي إليه، هذه الأفكار كانت وراء البحث الدائم في الوقائع والأسرار وهي تواجهها بالرغم من خوفها المواكب لمثل هذه الأفكار، خشية أن تنعكس رغبة التبرع بالخدمة، رد فعل عكسياً يوقعها في مزيد من التعقيدات، كانت في حيرة دائمة بين أن تبادر إلى التعاون مع المجتمع وبين الخوف من وقوعها في شباك المشاكل فترحّل بسبب هفوة هنا أو هناك، لقلة معرفتها بالقوانين وعادات المجتمع البريطاني الذي رغم السنوات التي قضتها فيه لم تستطع حتى الآن فهم تفكير الناس، لبعدها عن الاختلاط بالتجمعات

البشرية وعزلتها عن الاندماج مع الآخرين إلا فيما ندر، كانت قفزتها الأخيرة بالتغيير الذي تتطلع إليه، فرض عليها الإسراع بالتحول إلى حالة مختلفة رأت فيها وسيلة تقربها من هدفها، وليست هذه الورقة التي تتأملها الآن إلا وسيلة يمكن استثمارها لو تيقنت منها قبل أن تقدمها، كانت تخشى أن تكون ورقة عادية لا تحمل سوى ملاحظات تافهة قد تضعها في حرج لو سلمتها، وقد تكون ورقة خطيرة تخفي معها أعمالاً إرهابية لو أهملتها، انشغل بالها في هذا الاتجاه وذاك حتى أنها لم تنتبه لوصول القطار إلى المحطّة إلا بعد الإعلان عن ذلك، وضعت الورقة في جيبها وعلقت حقيبتها في كتفها وراحت تقطع الطريق يلفحها الهواء البارد، شعرت بأن قدميها متجمدتان من الدقيقة الأولى التي هبطت فيها من القطار، حثت الخطى بسرعة لتحريك الدورة الدموية، يمنحها ذلك شعوراً بالدفء، وجال في بالها أن تستحم وتغير ملابسها ومزاجها وتخرج تسهر بعض الوقت لتمحو آثار النهار بطوله الذي قضته في توتر منذ لحظة مصادفتها البشراوي وحتى انتهاء نوبة العمل، كان نهاراً حافلاً بالأحداث الصغيرة والمربكة زادتها توتراً وتشويشاً، أحست بحاجتها إلى مكافأة تعطيها لنفسها بعد اليوم الطويل، ولا يوجد أفضل من أن تسهر بالفندق المجاور، إذ كانت لا تستطيع قطع الطريق في هذه الليلة الباردة إلى نادٍ ليلي.

استقرت على هذه الفكرة وحثت خطواتها مسرعة، تأمل الوصول إلى الحمام من أي شيء آخر تفعله، قبل أن تخلع عنها هذه الملابس

التي تشعر بأنها ملوثة بكل القاذورات المعجونة بروائح الآخرين ومخلفاتهم، حتى عندما تستبدل زي العمل تظل رائحة ما نتنة تنفذ إليها، ولا وسيلة سوى دخول الحمام قبل أي شيء آخر يخطر ببالها.

****

كان الطريق إلى فندق «الهوليدي إن» قريباً ولا يشكل الوصول إليه معضلة مع هذا البرد، علقت حقيبتها في كتفها وبداخلها مظلة المطر تحسباً لتغير الطقس فجأة، سارت بخطوات متثاقلة وقد تدثرت بجاكت أسود طويل وتحته ارتدت فستاناً أحمر ضيقاً قصيراً من القطن الدافئ، مع كعب متوسط الارتفاع وتبرجت بكل ما استطاعت أن تبرز به مفاتنها التي أخذت تستعيد بريقها بعد أن خضعت لنظام جديد للتغذية، استبعدت منه كل النشويات والسكريات واقتصر على الزبادي والبيض ولحم الدجاج المشوي بالإضافة إلى قطعة فواكه واحدة في اليوم مع نوع من العصير الخالي من السكر، كانت خطتها التركيز على مظهرها الخارجي أكثر من الاهتمام بجوهرها الذي يخضع للحالة النفسية، وكان اعتقادها بأن استعادة رونقها الخارجي سينعكس إيجاباً على نفسيتها التي بحاجة إلى معنويات لا تأتي إلا مع المال، والمال بدوره لا يأتي إلا من خلال المظهر وهي النتيجة التي خلصت إليها في الآونة الأخيرة ودفعتها إلى التبرّج والاهتمام بمظهر جسدها ونضارة وجهها، أعلنت الحرب على العزلة والخوف والعفة وكأنها بذلك تسابق الزمن الذي قطعته بلا جدوى، ولم تخرج منه إلا بسحق

إنسانيتها وهدر كرامتها وبضعة جنيهات لا تكفي حتى لزجاجة نبيذ، كل ذلك وهي تعبر الجسر من ضفة إلى أخرى، من مطار إلى آخر، ومن مدينة إلى أخرى وكلها ضفاف ومطارات ومدن تغص بالاستلاب وتبتز ما تبقى منها كامرأة لا تحمل جواز سفر ولا تقطن في وطن ولا تعرف جيراناً ولا تتصل بأهل، فعندما جاءتها رسالة ذات مرة، عابرة القارات منذ سنتين من عمة لها لم تكن تحمل حنيناً بقدر ما كانت توبيخاً على سمعتها التي أهدرتها في ملاهي دبي الليلية وفي غرف فنادق الخمس نجوم، وصفتها عبارة من الرسالة بالفاجرة، «من أين جاءوا بهذا الوصف؟»، سألت نفسها من دون أن تشعر بمرارة الكلمة، فقد تجمد إحساسها بالانتماء إلى أسرة في مكان ما من هذا الكون، فذكرياتها توزعت عبر الحدود والخيام والعراء وما بين العراق وحلب وتركيا ولبنان والبحرين ودبي وبريطانيا، فما معنى الفجور في رسالة تائهة من أرض مستلبة؟

دلفت الفندق وصادفتها منذ الوهلة الأولى موجة دفء خيمت على البهو الذي لم يكن مكتظاً بالرواد كما توقعت، كانت هناك ثلاث نساء تحلقن حول طاولة عند مدخل البهو، فيما وقعت عيناها على رجل نحيل في منتصف العمر ارتدى بذلة كحلية اللون وقميصاً أزرق من دون ربطة عنق، لمحت فيه عزلة من خلال كأس الويسكي المركون أمامه وعبر وضعه يده اليسرى على طرف رأسه، كما لمحت فتاتين تتحدثان همساً في زاوية مقاربة من طرف المطعم المتصل بالبار،

ورأت من بين الحضور نادلة شابة لأول مرة تلتقيها ورجلاً هندياً خلف البار راح يمسح الكؤوس لعدم وجود طلبات تشغله، لم ترتح في بادئ الأمر، فقد شعرت بأن العيون القليلة الموجودة تلاحقها لكون المكان شبه فارغ من الزبائن، مما يمنحهم الفرصة لرصد كل حركة داخلة أو خارجة، وتناقض ذلك الإحساس مع طبيعتها المضادة للأماكن المزدحمة التي كانت تواجه من خلالها شعوراً مختلفاً مشوباً بالذعر من عيون الآخرين وتطفل نظراتهم وكأنها تسوقها إلى مسلخ بشري، أدواته النظرات الثاقبة المركزة على كل حركة أو إشارة، كانت طبيعتها الهروب من النظرات في الأماكن المزدحمة وها هي الآن تواجه الشعور نفسه بخلو المكان من الرواد، وفيما هي تبحث عن طاولة تكون غير مرئية من الحضور عثرت لدى هبوطها عتبة البهو الأمامية وكادت تسقط لولا أن ألقت بحقيبتها على الأرض وأمسكت بطرف الحاجز الفاصل بين البار والمطعم المفتوحين على بعضهما، فوجئت بأن حركتها تلك لم تلفت انتباه أي من الحضور، فأيقنت أن ما يدور في رأسها من مخاوف لم يكن سوى نتيجة خيالاتها السوداوية تجاه الأمكنة والبشر، سارعت بالجلوس إلى طاولة معدة لشخصين وانتظرت أن يأتيها أحدهم لكنها لمحت الجميع مشغولين بعدم الانتباه لشيء مما يجري وكأنهم في حالة بيات، تركت الحقيبة واتجهت نحو البار وطلبت كأس «سكوتش» مزدوجة وعادت بها بعد أن اصطدمت عيناها بالرجل القابع عند البار وقد هز رأسه لها وهي تعبر المكان وبادلته بهزة من رأسها، ثم أخذت

مكانها إلى الطاولة وراحت تلهي نفسها بهاتفها الجوال دون أن تكون بحاجة إلى شيء تفعله سوى التظاهر بالانشغال، وهي عادة اكتسبتها منذ خرجت من الزبير في السنوات الأولى للدراسة، كانت تتلهى بتصنع الانشغال منذ علقت على الحدود ووقفت أمام ضابط الأمن الشامي يفحص جوازات العابرين على حدود العراق نحو الشام.

الساعة التاسعة وأربع وثلاثون دقيقة لحظة تطلعها إلى الساعة المعلقة أعلى جدار البار، انساب معها الهدوء يقطعه صوت خفيف لموسيقى كلاسيكية حديثة قللت من رتابة الجو الذي ساده السكون، رغم أن الوقت لم يكن متأخراً، فقد اعتادت زيارة المكان بضع مرات وصادفت بعضاً من النادلات تعرفن إليها ولم يكن بمثل هذا الهدوء من قبل، أسعدها شعور البهجة العشوائي الذي اجتاحها مع هذا المناخ المفعم بالسكون تحسه للمرة الأولى ربما منذ سنوات الفرار الأبدي، ذكرها هذا الشعور «بمراد الرجل الخرافي» صديق جبار الشريف عشية انتظارها له حاملاً ختم الفردوس المسمى بحلب.

****

(١٠)

[ازدهرت موجة الاغتيالات مع بدء الاحتلال الأميركي، وتفشت مظاهر النهب والسرقة وسادت مهنة التجسس على الذين كانوا ينتمون إلى الجيش، وبدت الأحياء والمدن في الزبير عرضة للاستباحة وانتشرت القوائم السوداء لأسماء الكثير من العائلات التي أفرادها محسوبون على النظام السابق، وعندما التقت جارة لهما صدفة وهي قادمة من دار إحدى صديقاتها بادرتها أم قيس التي يلقبونها «بالحجاية» وهي المرأة الأرملة المعروفة بتطرفها في نشر الأخبار في الحي، بادرتها قائلة وعيناها مفتوحتان على اتساعهما كأنما تتفحصها من الرأس إلى القدمين.

«بلغي والدتك السلام وحذريها أن تأخذ بالها من القوائم».

لم تعرف ما عنته بالقوائم، ولكنها فهمت بعد حين بأنها تلك اللوائح بأسماء من هم مطلوبون للاغتيال والتصفية تحت مسمى الفلول، لم تكترث للأمر ولم تنزعج، فمن هو معني بالقوائم والدها العقيد جبار الشريف، وهو على أي حال من المفقودين ولم يعد أو يشاهد أو تُسمع عنه أخبار منذ الساعة الأولى للحرب، لم تبلغ والدتها

بالرسالة ليقينها أن ذلك سوف يسرع من فرارها، وهي لم تصل بعد إلى العم هيثم الذي ظلت طوال الوقت تتقصى عنه إلى أن دفعها ذلك ذات مساء وقبل ولوج الظلام، إلى مخفر الشرطة القريب من منعطف مدخل الحي، كان وراء دافعها هذا معرفتها بصديق لوالدها من رواد مجلس «النيادة» فيما مضى وشعورها بالارتياح من ذوي الأصول السعودية كما أوصاها جبار، تذكرت إثر لقائها أم قيس، وبعده صوت الرجل الذي كان يتحدث قبل سنوات مع والدها، من وراء حاجز خشبي يفصل الصالة الخارجية عن باحة الدار، وتمنّت لو أنها تتوصل إلى خيط عن هيثم الشريف الذي يلقب بحسب ما سمعت «بسعدون الجاسي» وهي كناية عن كلمة القاسي؛ لم يكن أمامها مفر من المغامرة بأي ثمن للوصول ولو إلى أي معلومة بسيطة، فيما يتعلق بشقيق والدها، كانت مصممة على الهروب واللجوء إلى حلب المدينة الشامية التي بدأت تتسلل إلى منامها وتغزو أحلامها، عرفت عن الرجل الشهامة والرجولة والروح الوطنية المنتمية إلى التراب، كما كان يطلق جبار على أصدقائه رواد المجالس والمقاهي، كانت قدماها وهما تقودانها إلى مركز الشرطة تتعثران بدافع القلق والتوجس من النتائج، فقد سمعت بأن أغلب من سيطروا على مراكز الشرطة بعد الغزو هم من قطاع الطرق والجواسيس ومطاردي الفلول بحسب ما يتردد على ألسنة البعض، ورغم اضطراب خطواتها وتصاعد ضربات قلبها لكنها واصلت السير غير عابئة بالوجوه الكالحة والمتزمتة التي كانت تراقب بعضها بعضاً حتى وصلت إلى المركز الذي كانت تحيط به سيارتا «بيكب» مدنيتان قديمتان من نوع

تويوتا يعتليهما بضعة رجال، بعضهم يرتدي ملابس مدنية وبعضهم الآخر بزيّ رجال الشرطة، توقفت على بعد من المكان وراقبت حركة المارة فوجدت المكان يكاد يكون خالياً، فتقدمت من السيارة الأولى التي ما كاد يلمحها ركابها حتى ركزوا نظراتهم عليها بفضول.

ترددت قبل أن تبادر بالسؤال لحظة تذكر كلمة القوائم، خمنت أن تكون تلك الكلمة ذات مدلول سيِّئ عليها، إلى أن بادرها أحد الرجال ممن يرتدون زي الشرطة بالقول:

«نعم.. هل أخدمك بشيء يا بنتي».

ارتاحت إلى نبرة الرجل وأحست باطمئنان إلى صوته وإلى كلمة ابنتي، تشجعت وطرحت سؤالها المعلق منذ حين.

«أبحث عن السعدون».

تبادل الرجال النظرات فيما بينهم، وخلال لحظة وجيزة هبط من السيارة رجل آخر غير الذي بادرها بالسؤال وتقدم منها قائلاً بنبرة ضبابية لم تستشف منها أي مغزى:

«من جنابك؟».

تداعت إلى مخيلتها الواسعة والمتشككة مخاوف بشأن ما سمعته من أم قيس عن القوائم، وجدت أن الوقت قد تأخر عن التراجع عن مقصدها فقررت خوض المغامرة حتى نهايتها عندما تجرأت وذكرت دفعة واحدة وكأنها تسلم رأسها إلى السيف.

«أنا يسرا بنت جبار الشريف».

استردت أنفاسها والتقطت الخيط من الرجل الذي اقترب منها

بهدوء وأضافت بجرأة غير متوقعة منها بالقول بنبرة يشوبها اليأس «أبحث عن السعدون الذي يعرف والدي منذ زمن بعيد».

ألقت العبارة، واستسلمت لشعور غامض اختلط بصوت أم قيس عن القوائم وتخيلت نتائج سلبية سوداء من هذه المغامرة وربطتها بما توحي به كلمة القوائم، وفجأة فهمت بسرعة البرق وكأن وحياً هبط عليها ولقنها المعنى «قوائم المطلوبين للقوات الأميركية».

بعد سنوات من هذه الواقعة توصلت إلى أن هذه القوائم هي الأسماء التي تدخل من إيران وواشنطن وتتضمن أسماء رجال الجيش والشرطة، العلماء والمهندسين، من رجال ونساء وشيوخ وشباب، وجميعهم من المستهدفين بعد سقوط صدام حسين، هؤلاء الذين تضم القوائم أسماءهم، مطلوبون للعدالة الجديدة حتى من قبل أن يقام النظام الجديد، من هؤلاء، هرب من هرب وقتل من قتل، واختفى من اختفى.

فجأة ولدى ذكر اسمها، قفز الرجل الأول الذي بادرها منذ البداية واقترب منها وسحبها بعيداً عن السيارة، وسط نظرات الرجال الآخرين الذين راحوا يراقبون المشهد.

«اذهبي الآن».

بعد يومين على ذلك، جاء الرجل نفسه عند الساعة السابعة مساءً مع بدء سريان حظر التجوال في المنطقة، متخفياً وسط الظلام نظراً لانقطاع التيار الكهربائي، وقد ارتدى زي شيخ عالم دين، طرق الباب ولدى فتحه من قبل سام الذي كان على وشك الخروج متحدياً الحظر،

دفعه الرجل إلى الداخل وأغلق الباب بسرعة وقبل أن يترك الشاب في قلقه واستغرابه همس له بصوت هادئ «لا تخف أنا صاحب صديق».

بدا المشهد أشبه بتحرك سري غامض يجري في المنزل، لدى هبوط يسرا ووالدتها وقد فوجئتا بوجود الرجل الملثم الذي ما إن رآهما حتى أزاح اللثام عن وجهه وبادرهما قائلاً بنبرة ودية وعيناه تتحركان في كل الاتجاهات على سعتهما.

«لا داعي للقلق».

تعرفت يسرا للوهلة الأولى إلى الرجل الذي طلب منها قبل يومين أن تذهب من دون أن يضيف شيئاً وسط شعور بالاطمئنان إلى تعابير وجهه ونبرة صوته، وأيقنت بحسها الفطري أن الرجل لم يأتِ لسوء.

«من جنابك؟».

كان ذلك أول رد فعل من قبل نجوى القطان وقد بدت متشككة وغير مطمئنة إلى وجود رجل غريب بالدار في مثل هذا الوقت الذي يحظر فيه التجوال وتنقطع فيه الكهرباء ويتخفى فيه غالبية السكان، ويسوده الشك في كل شيء يدور في المنطقة وفي البلد بأسره.

«بحسب علمي أنتم عائلة جبار الشريف».

ثم استرسل وهو يشير بإصبعه إلى يسرا التي تسمرت في المكان تنتظر ما تسفر عنه هذه المواجهة التي تدرك أنها وراءها.

«جاءت هذه البنت بنية طيبة، تسأل عن شيء لا أعرفه، ولخطورة الأوضاع لم تترك لي فرصة معرفة التفاصيل».

التفتت نجوى القطان بغرابة واستنكار نحو ابنتها ونظرت إليها

نظرة تأنيب على تصرفها ذاك، فيما نكست الفتاة رأسها في الأرض وشعر الرجل بحرج الفتاة وقلق الأم، وحيرة الشاب الذي وقف في الخلف، فسارع يطمئن الجميع من خلال نظرة هادئة ونبرة حانية.

«لا تخافوا، أنا صديق قديم وأكاد أكون أخاً لجبار، جئت أساعد عندما رأيت هذه الفتاة الحائرة تبحث عن شيء ما وسط غابة من الرجال المشتبه فيهم والجواسيس، أغلبهم من عصابات لا نعرف من أين هبطوا علينا ولا كيف؟».

ثم التفت نحو يسرا وسألها بصوت من يملك رغبة في المساعدة.

«ماذا أردت من مجيئك؟».

«أسأل عن شقيق والدي هيثم الشريف المقيم بحلب».

قالت يسرا ذلك بسرعة ومن دون مقدمات وسط دهشة الجميع، نظر الرجل إليها وقال بصوت من يريد أن يطمئن الجميع إلى نيته الطيبة ويزيل أية شكوك حوله.

«اسمي مراد، وسأفعل ما بوسعي لمعرفة ما يدور في حلب، محتمل أن نصل إليه».

اكتفت يسرا بعبارة الرجل وعلقت حلب في رأسها منذ ذاك الحين.

****

من يومها وبعد مغادرة مراد الدار، علقت عبارة «محتمل أن نصل إليه» في مخيلتها كالغصن في ساق شجرة، راحت تقرأ كل شيء عن حلب، وجن جنونها بالخيوط التي توصلها إلى تاريخ المدينة وجذورها

وطقوسها وأسرارها، كانت على موعد مع الجنة للهروب من الجحيم الزبيرية التي كانت فيما مضى فردوس الأرض بالنسبة إليها، ربطت طفولتها بالمياه والبردي والأنهار الصغيرة المتفرعة والمتدفقة على البساتين، كل هذه تحولت إلى جواسيس وعصابات وقطاع طرق، موت واختطاف وانتظار مصير مجهول، كل شيء كان بانتظار فاجعة تقع، كانت تسرع الخطى في محاولة الفرار، كأن قطاراً يحاول دهس كل ما يصادفه، كل لحظة وأخرى تأخذها أفكارها بسرعة الضوء نحو مخرج، سرعان ما تَحُول الأوضاع السائدة والحصار دون الوصول إليه، زاد من توترها حالة الأم هي الأخرى التي ما فتئت تجري التعديلات على خططها في الفرار إلى الكويت، كان المناخ السائد بعد خروج مراد هو الانتظار الطويل، حتى نجوى القطان كانت تأمل مساعدة من الرجل الخرافي الذي أصبح أمل الجميع في الجنة الموعودة، سواء في الكويت أو حلب، الوحيد العالق في الزبير هو سام، إذ لم يدر في خلده أي من تلك الخطط والمشاريع، اكتفى بالتسكع في الطرق والأحياء والاختباء في البساتين المدمرة والمنازل التي دمرها القصف أو التي تعرضت للنهب والتدمير، أما فراس فأخباره استحالت كأخبار والده من قبل.

«يا الله، عليك يا حلب؟» تساءلت في داخلها وكأنها مقدمة على بلوغ الفردوس. لقد نبع هذا الشعور تلقائياً ليعبر عن حالة النكران التي تعيشها في الزبير، ليشكل لها حافزاً على الخروج حتى لو لم تكن حلب بهذا السحر الذي زرعته بدافع حسي نابع من وجود العم الأسطوري

هناك، كيف يعيش وأين؟ ومن هو؟ هل يقبلها أو يرفضها؟ أسئلة دارت في خلدها، ثم اكتفت بحلم الوصول إليه فحسب.

«من بنى حلب هم أولاد ملك الموصل بولكوس الموصلّي واسمه لدى أهل اليونان سرد ينبلوس وهو أول ملك عام ٣٩٨٩ سنة لآدم، وحكم ٤٥ سنةً، ثم حكمت من بعده ابنته أطوسا، وفي سيرة أخرى بنيت حلب بحسب أبي الريحان البيروني في حقبة بلقورس أحد ملوك نينوى ودام حكمه ثلاثين عاماً من سنة آدم». انحصرت قراءاتها في تاريخ المدينة، وزرع فيها ذلك الشعور الحدس من أنها ستلقى حلب قريباً.

عندما تستيقظ قبل الفجر على حلم من سيل الأحلام المتدفقة، وتذهب إلى الحمام ثم تعود، تظل ساعات حتى بزوغ الشمس إذا لم يكن اليوم غائماً وهي تبحث وتنقب وتتقصى الأخبار بانتظار معجزة تهبط، ويعود مراد بخبر ما يشفي غليلها، لكن ما تجده أمامها كل نهار وجه نجوى القطان يلمع بالزيت لفرط التوتر والقلق الذي تعانيه في بحثها الأزلي عن ثغرة للهرب من الزبير، حالها حال ابنتها مع فرق المكان الذي تنويان الهروب إليه.

«تعالي نفطر، فأنتِ تكادين تكونين مضربة عن الطعام».

ردت عليها بصوت من يأس بكل شيء، ما عدا الفرار من المكان.

«وهل يوجد ما يؤكل؟».

«لدي بيضتان تعالي نقتسمهما مع الزيتون».

ندرة الطعام سادت البلاد إثر الحرب مباشرة، واختفت المواد

وارتفعت أسعارها، وشهدت الساحة حرباً من نوع آخر هي حرب البحث عن الطعام؛ فمحظوظ من يستطيع تناول وجبتين أو ثلاث في اليوم، فعلى رغم توافر الخضار واللحوم والحليب والخبز إلا أن وصول هذه المواد إلى السكان كان بمثابة المعركة، ورغم صعوبة توافر الغذاء إلا أن مزاج الشارع لم يكن بتلك الرغبة في الأكل، فالغالبية أصابها ما يشبه انسداد النفس بسبب القلق والذعر اللذين خيما بظليهما على البلاد.

كلما شعرت بالجوع، اجتاحتها رغبة في التعرف إلى الطبخ الحلبي، فما تكاد تهدأ من البحث في تاريخ مدينة الأحلام حلب، حتى تعاود التقصي عن المطبخ الحلبي، تتأمل الزيتون في الصحن أمامها فتغرق في غيمة تأخذها بسلاسة نحو مكان صنعته بنفسها في مخيلتها وأسمته حلب، مدينة العم هيثم الشريف.

المطبخ الحلبي سحره ورونقه ونكهته مع زيته وطعمه بالزيتون، والفستق، وأطباق الكباب، الكبة، المحاشي، الباذنجان والكوسى كانت تلك الصور المتخيلة في عقلها الباطن، يعكسه في تفكيرها الخارجي وهي تنسج المشهد الذي ستكون عليه حالما تطأ قدماها المدينة.

«أهواك يا حلب».

****

(١١)

حط طائر صغير، على نافذتها عند تلك الصبيحة الرتيبة إثر ليلة ماطرة اشتد في إثرها البرد، لَوّن الأفق، وشطر السماء قطعتين من السحب أخذت الأولى شكل لسان نهر التيمز باللون الرصاصي القاتم، والقطعة الأخرى، شكل ورقة العنب المصفحة باللون الرصاصي المائل إلى السواد، ولأن الليل ما زال يطبع الوقت بصداه رغم بزوغ الفجر، فقد أيقظها صوت الطائر الشرشور، وذكرها بصوت الحسون الوردي الذي سافر معها من حافة سماء الزبير حتى أطراف برج الحمام بحلب، خيل إليها أنه يحمل رسالة من جبار الشريف. «ماذا يريد أن يوصل إلي هذا الحسون في هذا الوقت المبكر من الفجر؟»، تساءلت وهي تهم بترك النافذة التي يتسلل من أطرافها برد «كينغستون»، ولاحقها الكسل والبرد والشعور بالخمول، ودت لو يكون اليوم إجازتها لتبقى في الفراش تتأمل هذا الطائر الوحيد الضال وهو من فصيلة «الفينش» الإنكليزي (finch) الشرشور بلونه البني القاتم، فيما مال لون ظهره إلى البني الفاتح وكذلك صدره، أما أسفل بطنه الصغير المدبب فقد اكتسى باللون الكستنائي، بينما اتخذ رأسه اللون الرمادي، وبدا اللون

الأسود يطبع منقاره وجناحيه، تأملته كما لو كان إنساناً راحلاً من موطن إلى آخر، ربما رسمت من خلاله رحلتها الطويلة من الزبير إلى حلب مروراً بالحدود التركية ثم البحرين ودبي وانتهاء «بكينغستون». كانت الصورة دقيقة وعميقة سبرت غور الأزمنة كلها وعبرت الأمكنة بمطاراتها وحدودها وحقائبها وتأشيراتها وما صاحبها من سجون وتحقيقات، اختزلت ذلك كله في دقائق الصباح، الذي رأت فيه هذا الطائر المرهق من أهوال الطقس وكأنه استقر في محطته عند نافذتها في هذا الوقت، شبهت رحلته برحلتها، ابتسمت وهي تتأمله وودت لو تمسكه وتمسح عنه التعب.

عادت من الحمام لتزيح الستارة عن النافذة، فوجئت به منكمشاً وقد التحف بالبرد الذي لم يرغمه على التوقف عن الزقزقة، كان صوته يخفت ويعود وكأنه يود التأكيد على صموده «ما الذي يرغمه على البقاء والتشبث بالنافذة؟»، ارتدت روب الحمام الأبيض القطني الذي استعارته من الفندق، ونظرت إلى الساعة التي كانت تشير إلى الخامسة وسبع عشرة دقيقة.

«لن أصل إلى موعدي بأسفل العمارة على طرف الشارع، سيغضب فلين ويمط شفتيه ويتصنع العتب طمعاً في مزيد من الدلال».

كانت الغرفة تغص بالفوضى، ملابس الليلة الماضية على الأرض، والحذاء الأسود ذو الكعب العالي عند طرف السرير «متى خلعته هنا؟» تساءلت وهي تقذفه بعيداً حتى لا تتعثر به، ضوء الغرفة

ما زال خافتاً، لم ترغب في إضاءة المصباح الرئيسي، لتقنع نفسها بأن الوقت مبكر والليل لم ينته، والفجر ما هو إلا مجرد كلمة لا تنطبق على هذه اللحظة التي تقترب من نزولها إلى الشارع، لم يستغرقها الوقت طويلاً، ارتدت سروال الجينز الأسود الضيق وجاكيت الصوف الثقيل فوق قميص القطن البني وأسرعت بالنزول وهي تحمل حقيبتها مع كيس النيلون الذي يحمل ماركة زارا، وبداخله بذلة العمل وحذاء بدون كعب مع علبة حليب صغيرة، وقبل أن تغادر مسرعة عادت إلى النافذة وأرسلت قبلة إلى الطائر القابع هناك مرددة بنبرة باسمة رغم شعورها بالخمول والكآبة.

«وداعاً يا بنشي الجميل، أراك في الغد عند نافذة الزبير».

****

بين صباح الزبير وصباح لندن مسافات من الذكريات والأفكار والمشاعر، ترتبط جميعها بالرغبة في التحرر من الخوف، لم تذق طعم الأمان والاستقرار، لم تعش الشعور براحة البال والاندماج في المحيط أيّاً كان، ولم تغادر القلب الذي ما فتئ يطرق بضرباته كامل جسدها المرتعش من أي حركة تقع حولها، بدأ ذلك من جديد هذا الصباح، الذي ما كادت تصل إلى الفندق في لندن وترتدي بذلة العمل حتى سبقتها رسالة موقعة من الإدارة قبل أن تصل وتتسلم جدول الغرف وتجر عربة التبديل والتنظيف، كانت الإدارة تتعامل مع موظفيها بالرسائل القصيرة المكتوبة عند أي ظرف مهما كان سطحياً، لذلك

لم تول الأمر أي أهمية، دست الرسالة في جيبها واتجهت نحو مكتب خدمات الغرف، فوجئت بعدم إدراج اسمها في كشف العمل.

«ماذا يخفي لي اليوم من مفاجآت؟».

فتحت الرسالة واندمجت في قراءتها منذ أول سطر، جاء فيها، إنها مطلوبة إلى قسم شؤون الموظفين للتحقيق، من دون ذكر الأسباب، وحتى ذلك الحين هي موقوفة عن العمل. خرجت إلى بهو الفندق فرأت الوجوه في الصباح على طبيعتها الرتيبة الباردة، الخالية من أي تعبير، كما هي الحال في كل الصباحات المماثلة قبل أن تدب الحركة في المكان بالنزلاء والزوار، تبادلت التحية مع من صادفتهم في الممر وهي تتجه نحو الردهة الخلفية، وعند الواجهة الخارجية للفندق من الخلف، وقفت من دون الاكتراث للبرد والهواء المتدفق عبر ممر خارجي ضيق يفصل بين الفندق من الخارج وموقف سيارات الموظفين، أشعلت سيجارة على غير عادتها في الصباح الباكر قبل أن تتناول وجبتها السريعة، وسرحت بفكرها نحو ثغور عديدة من الأمكنة المتعددة التي مرت، لم تشعر بالبرد يلفح صفحة وجهها المتجمد، غاصت في مشاعر متلاطمة كموج شديد التدافع وسط رياح عنيفة تلعب به، «سأفصل، ماذا سأفعل حينها؟». كعادتها بدأت سلسلة الذعر مع تدفق الأفكار السلبية تهاجمها، وأخذت المشاعر السوداء التي اختفت برهة تنتعش إثر الرسالة التي تلقتها توّاً واستدعتها للتحقيق.

«ماذا لو صرفت من العمل؟».

لا تعرف في حياتها غير الأسئلة، تطرحها على نفسها وتنصرف، لأنها لا تملك الأجوبة، تمضي يكتنفها الذعر كلما مسها القلق من فقدان العمل أو إلغاء تسفيرها من المكان الذي أوت إليه، في كل مرة تغادر المكان حتى ولو كان خيمة على الحدود، تصعق وتضطرب وتشعر بأنها ضاعت إلى الأبد، في كل مرة تقترب من الذهاب عن المكان الذي تعمل به أو تنام فيه، تحس بأن الدنيا ضاعت منها، وعندما تجلس على حافة اليأس لدى تراكم الأفكار السلبية من الجهات كافة تشك بأن الله تخلى عنها، حالها هذا الصباح مع الرسالة التي تلقتها للتحقيق معها، وهي تخمن منذ اللحظة بأنها الرسالة التي تسبق التخلي عنها، دارت هذه الأفكار خلال الدقائق السريعة التي دخنت فيها أول سيجارة صباحية، مضغت في إثرها قطعة علكة ثم دلفت إلى الداخل مسرعة نحو شؤون الموظفين، وسؤال آخر جديد يلاحقها «هل لفلين علاقة بالموضوع؟».

****

«تفضلي بالجلوس».

كانت تسمع الكثير من الحكايات عن السيّدة ليبولد، عن مكرها ودهائها ولكنها المرّة الأولى منذ التحاقها بالفندق للعمل تجلس قبالتها وجهاً لوجه، وراحت تبحث في عينيها عن مدى الخبث الذي أشيع عنها، وجدتها هادئة باردة لا تظهر أي تعبير يستطيع المرء التنبؤ بردود

فعلها، لها عينان صغيرتان غائرتان في الداخل تنفذان قوة كعينَيْ رجل، تدلى نهدان كبيران لم تخفِ حجمهما كنزة صوفية كانت ترتديها فوق الفستان الأحمر المنقط بالأسود، كان وجهها مستديراً تعلوه تسريحة كثيفة على هيئة وصلات مجعدة في الأسفل، أخذت تنظر إلى الأوراق أمامها وهي تتعمد تجاهلها، شعرت يسرا بالعرق في راحة يدها وهي تقبض على رسالة الاستدعاء، كانت الغرفة دافئة ومكيفة بالهواء الحار، أحست به فوق المعتاد، ظهر هناك مكتب صغير ملحق بمكتب السيّدة ليبولد يفصلهما باب ظل نصفه مفتوحاً وظهرت من خلاله إحدى الموظفات التي سبق لها وشاهدتها في ردهات الفندق، لم تتمكن من التعرف إليها، كانت بطبيعتها محدودة العلاقات مع العاملات هناك ولم تتمكن من إقامة شبكة من الاتصالات كما يحدث للجميع، حالة العزلة ما انفكت تسيطر عليها رغم مرور أكثر من أربع سنوات في بريطانيا، قضت نصفها في البحث عن ملجأ تستقر فيه.

عندما رفعت السيّدة ليبولد رأسها عن الورق ابتسمت لها وكشفت عن أسنان صغيرة متناسقة، تعلوها صفرة قد تكون ناتجة من التدخين، لاحظت من خلال الابتسامة العابرة أنها لا تنسجم مع ما عرف عنها من مكر.

«يسرا، هل تشتكين من شيء معنا».

رغم سنوات العمل التي قضتها في الفندق لا تفهم الإنكليز ولا طريقة تفكيرهم، لهم أساليبهم الملتوية من حيث دخولهم في

الموضوع الذي يريدون التحدث فيه، مقدمة غير متوقعة، وكلمات قصيرة منتقاة بعناية، ونظرة جامدة باردة من أي تأثير عاطفي، وعليك أن تتعامل معهم بحذر قبل أن يوقعوك في كمين نصبوه لك، تجمعت كل تلك الهواجس دفعة واحدة كموجة فزع وهي ترقب نظرات المرأة الباردة أمامها، أطرقت تفكر كيف تجيب عن سؤال السيّدة ليبولد، فهي لم تشك شيئاً ولم تصرح بشيء أو تنتقد شيئاً وتخشى لو تلكأت عن الجواب أن ينعكس عليها ذلك سلباً.

«أنا سعيدة بالعمل هنا سيّدة ليبولد، لا أشكو من شيء».

كصخرة ثقيلة بدت ردة فعل السيّدة ليبولد، اتخذت هيئة متصلبة مستقيمة بظهرها على المقعد الجلدي الأسود ذي المسند الطويل، وسجلت بضع كلمات في ورقة أمامها ثم رفعت رأسها وسألت يسرا بنغمة من يريد جواباً مختصراً.

«إذن لماذا تريدين الانتقال من هنا؟».

قهقهت في داخلها وأدركت بحسها البديهي الذي يوقظ كل الكائنات الحساسة من حولها، ويدبر الانفعالات، ويبث فيها الأفكار السوداء والخيالات بأن ثمة من نقل إلى الإدارة إعلانها قبل فترة أنها تود الانتقال إلى فندق الهوليدي إن «بكينغستون».

«ما أسرع ما تنتقل الكلمات في هذا المكان وتنتشر بين الجميع حتى لو دارت في مخيلة المرء من دون أن يصرح بها». لا تذكر لمن صرحت بهذه الرغبة، فهي محدودة العلاقات، قليلة الكلام، وكل ما

تذكره أنها انزلقت ذات مرة أو مرتين بالتعبير عن هذه الرغبة لإحدى زميلاتها «فلين فعلها وسرب الإعلان». ركزت للحظة على كيفية الرد على المرأة التي تنتظر منها جواباً «هل يستدعي تعبيرها عن رغبة في الانتقال؟ استدعاءها للتحقيق في صباح بارد مبكر قبل أن يفطر الجميع؟»، عليها الرد بسرعة ومن دون تردد، ويكون جوابها مقنعاً ولا يصب ضد مصلحتها.

«كان تصريحاً مقتضباً مني لزميلة معي لكون سكني في جوار فندق الهوليدي إن «بكينغستون»، هذا كل ما أذكره سيدة ليبولد».

شددت على عبارة سيدة ليبولد بنغمة خاصة توحي بالاحترام والتقدير ليقينها أن الإنكليز وخصوصاً منهم من يعيرون اعتباراً لطريق نطق الاسم في الحديث من شخص عادي صغير المكانة لشخص آخر ذي مكانة خاصة كهذه المرأة الحديدية الجاثمة على صدرها الآن، ودت لو تدخن الحشيشة، لدخنت واحدة قبل أن تأتي هنا وتواجه الوحش الكاسر الذي يهدد مستقبلها ويمكنه أن يلقي بها على رصيف شارع «كينغستون» تمهيداً لترحيلها من بريطانيا، لتتوارى من جديد وراء حدود دولة من دول الشرق الأوسط.

جرت الأفكار السوداوية المفرطة معها في كل مرة تتعرض لموقف ولو حتى مكالمة مجهولة تأتيها خارج الوقت المتوقع «هذه أنا لن أتغير أبداً»، قالت عبارتها في سرها بيأس لعدم قدرتها على منع تدفق سلسلة الأفكار المحبطة قبل حدوث النتائج.

«هل تودين الانتقال إلى هناك؟».

جاء السؤال كوقع صاعقة من برق شديد الوطأة على رأسها، هل تجيب بنعم أم لا، حائرة مترددة تخشى أن يقودها الجواب للخروج من الوظيفة ثم الخروج من بريطانيا وبعدها العودة إلى الحدود لاجئة، تذكرت طائر الصباح الحسون بألوانه التي تشبه قوس قزح، واستعادت زقزقته، لاح لها وجه العقيد جبار الشريف، لسعتها وخزة حادة في شرايين القلب كمن تستنهضها لتحرير ذاتها من حالة الخوف، وجه العقيد الذي اختفى إثر الحرب، مدها بدفء اجتازت في إثره ترددها ونطقت أخيراً بما شعرت به «نعم، أريد الانتقال إلى هوليدي إن «كينغستون».

«إنه من أهدأ فروعنا ويوفر الرومنسية، هل لك صديق هناك؟».

تذكرت اسم المرأة هناك «كيتي» ولكنها لا تستطيع أن تصرخ في وجهها «كم أنت ماكرة»، احتفظت بشعورها هذا في أعماقها وردت عليها بما يبعد الشبهة عنها.

«لا سيدتي، إنه فقط قريب من سكني وأفتقد سيارة تنقلني إلى هنا».

«فلين، ألا يوصلك كل يوم؟».

«الخبيثة تعرف كل شيء عني، هذا طبع نساء الإنكليز العجائز». قالت ذلك بداخلها وردت عليها بنبرة واثقة.

«من المحرج أن أعتمد عليه كل يوم، سيدتي».

نهضت المرأة الحديدية من مقعدها وراحت تحدق إلى الأخرى الجالسة قبالتها، التفتت إليها مرتبكة، رأت وجهها المجعد عند الحاجبين في الضوء المنبعث من سقف الغرفة، لمعت عيناها الزرقاوان واتسع إطار أهدابها، برزت ندبة صغيرة حمراء أسفل الذقن، ولكن رغم الصورة التراجيدية التي رأتها فيها هذه اللحظة ظل طيف جبار الشريف يمدها بالقوة.

«انتهت المقابلة، شكراً لتعاونك يسرا البريطانية».

رافقت عبارتها ابتسامة تنم عن تعمدها التعبير عن روح المزاح بذكرها عبارة «يسرا البريطانية» التي عادة ما يمزح معها زملاؤها لشدة تمسكها بحلم الحصول على الإقامة الدائمة، بدا لها من نبرة السيّدة ليبولد، أنها لم تذهب بعيداً في الضغط عليها، ولا يبدو أن ثمة كارثة منتظرة، فقد مازحتها بعبارة أثارت استغرابها لمعرفتها هذه الكنية التي يرددها العاملون معها، « السيّدة ليبولد تعرف كل شيء، إنها أشبه بجهاز الأمن m-16».

خرجت من المكان وقد تملكها شعور قوي بتدخين حشيشة، فقد أغرتها أكثر من زميلة معها بتقديم سيجارة حشيشة في أكثر من مناسبة، صممت وهي تعبر الرواق باتجاه قسم خدمة الغرف على حيازة قطعة لهذه الليلة بعد أن تعود إلى «كينغستون» وتختفي وراء الدخان لتتخلص من كابوس هذا اليوم الذي شعرت بأنه لم يبدأ بعد، وتشك بأن ينتهي على خير.

«صباح الخير».

أول عبارة محفزة تلقتها منذ جاءت الفندق هذا الصباح وشعرت معها بتفاؤل عابر، ربما بعثته العبارة التي انطلقت من وجه لمحت فيه البريق الذي تتوسله من الوجوه التي تطالعها طوال الوقت ولا تكشف عن تعبير سوى البرود والجمود.

«صباح الخير، شكراً».

تركت كل شيء لليل يمسح آثار النهار المريع الذي بدأ منذ حط طائر الشرشور الإنكليزي عند نافذة حجرتها «لا بد من حشيشة الليلة، سأنحرف قليلاً».

****

مضت بضعة أيام على مقابلتها للمسز ليبولد ولم يحدث شيء، شعرت باطمئنان، وإن لم يسترخِ فكرها الذي ظل يخترع المتاعب، حاولت التغيير في بعض تصرفاتها، فوثقت من علاقاتها بزميلات العمل وإن لم تستطع الاندماج الكلي معهن، أما مع الرجال فقد تمكنت من أن تكون أرق في تعاطيها معهم وإن ظلت لا تطيق مجرد تنفس فلين في وجهها عند الصباح الباكر وهو يقلها إلى العمل، حاولت تقبله بوسائل شتى، كأن تبتسم لنكاته السمجة، أو ترد على مكالماته بالليل أو تتبادل وإياه الحديث أكثر من دقيقة ونصف الدقيقة، لكنها في المقابل راحت تحمل له أكواب الشاي والقهوة إلى مكتبه وقت الاستراحة، أو تدعوه للحديث مدة تدخين السيجارة في الردهة الخارجية مع الحرص

الشديد أن تنهي سيجارتها قبل أن تنتهي حتى أدرك ذلك بعد مرات عدة، فأخذ عليها الإسراف في التدخين من دون داع، وذات مرة ألقى بمزحة وهو يتحدث معها وقد علت جبهته عقدة لحمية لا تلاحظ إلا لمن يدقق في وجهه وهو يلقي النكات، مع نبرة اختلطت بالتصنع، دنا بوجهه حتى كاد يلامس وجهها كعادته عندما يتحدث مع الآخرين.

«أشك بأنك تتعمدين إنهاء سيجارتك قبل أوانها لتتخلصي من الوقوف معي»

«يا إلهي».

قالتها من القلب وشعرت كم هو أحمق وسمج ولا يمكن تحمله، في الوقت نفسه شعرت بإشفاق عليه وعلى زوجته وأولاده وكل من يعيش معه، إنه نموذج للإنكليزي الكئيب الذي يشبه طقس الشتاء عندما يطول وتغيب خلاله الشمس أياماً عديدة فيظهر الخمول على الناس ويعلو وجوههم السأم ويصبح النهار أشبه بالليل، كانت عبارته عن نفسه بمثابة المزحة ولكنها جسدت حالته الكاملة مع الحياة والكون وعلاقاته بالآخرين مع تمسكه بالتقرب من النساء «هل يعلم بحاله؟». كانت يسرا تتساءل دائماً كلما وقفت معه وتحملت طريقته في الحديث معها وإلقاء الخطب الرنانة عن نفسه وأخباره ونشاطاته، وأكثر ما يقززها منه طريقة تناوله للطعام بيد، ومسكه لعلبة البيرة باليد الأخرى، فيما يتناثر رذاذ الطعام من فمه، تشعر برغبة في لكمه على وجهه وتخرس صوته.

اكتشاف آخر ربما كان له الفضل في تليين قلبها تجاهه وهو أنه كان وراء موضوع الحديث الذي شاع حول انتقالها إلى فندق «كينغستون» الأمر الذي يجعلها لا تعرف أتضحك أم تبكي لما سببه لها من قلق طوال الفترة الماضية، غير أنها تابعت حياتها الطبيعية متجاهلة ما مرت به، وفي الوقت نفسه راحت تعمل على تحسين علاقاتها بالآخرين وقد تمكنت من اقتحام عالم الحشيشة، ولفترة توقفت عن العبث بمحتويات النزلاء بعد مقابلتها للسيّدة ليبوليد إثر تعرضها لنوبة ذعر من أن تكون مراقبة، لم تطق صبراً على إدمانها تلك العادة الفضولية المسلية التي تشكل لها منفذاً إلى العالم الخارجي من حولها؛ فبواسطة تلك الممارسة المزمنة كانت تطل على عالم النزلاء وتتعرف إلى حياتهم وأنماطهم وتفاصيل سلوكياتهم من خلال حقائبهم ومحتوياتها وأوراقهم وفواتيرهم وكل ما تقع عيناها عليه من محتويات الغرفة، إن كانت في متناول يدها ولا تشكل تهديداً لها أو تترك شكوكاً لدى النزلاء الذين ما انفكوا يمنحونها شعوراً يفوق التسلية ويشغل فراغها الداخلي الذي وجد له أخيراً متنفساً عبر تدخين الحشيشة، كانت هناك قصة وراء اقتناصها فرصة التسلل إلى عالم المخدرات التي بدأت منذ إدمانها الزناكس وانقطاعها عنه فترات متباعدة، ثم عودتها إليه كلما ألم بها شعور بالخوف أو قلق من محيطها الذي ما انفكت تشعر معه بالتهديد من كل شيء حولها، ابتداء برنين هاتفها مروراً بنظرات الآخرين الباردة والخالية من العواطف، وهو من طبيعة المجتمع البريطاني.

(١٢)

تدفق اللاجئون السوريون على بريطانيا إثر النزوح من مناطق القتال بعد اندلاع الأحداث الدامية في العام ٢٠١١، بدأت وجوه غريبة تطل من الشوارع والأرصفة وعند المطاعم العربية وأمام المكتبات، تشير إلى بداية انتشار لوجود السوريين مع العراقيين، الذين جاءوا بدورهم منذ اندلاع الحرب في العراق؛ لم تستطع الاندماج مع العراقيين لأنها لم تصادف من يحمل نكهة الزبير، وها هي تبحث في وجوه السوريين ممن عاشوا في حلب لعلها تصل إلى خيط يؤدي إلى ربطها من جديد بعائلة هيثم الشريف التي تشردت بدورها بعد الأحداث هناك، منهم من قتل ومنهم من اعتقل ومنهم من لجأ إلى أستراليا لوجود أقارب هناك من قبل الحرب، أما هي فقد «كتب عليّ أن أعيش الحرب أينما كنت، حتى وأنا في لندن». قالت عبارتها في سرها ومضت تقطع دروب الكفاح المرير لتبقى في أمان بالعاصمة البريطانية، تبذل كل ما في وسعها ألا تخطئ، فوضعها لا يسمح بالأخطاء، ومن شأن غلطة صغيرة قبل أن تحصل على الإقامة أن ترمي بها على رصيف الشرق الأوسط،

هكذا كانت تتخيل الشرق الأوسط برمته، ساحة استلاب لأمثالها ممن تشردوا نتيجة الثورات المجنونة والحروب والصراعات التي لم ترحم من تورط فيها ومن لم يتورط، فقد انزلق المذنب والبريء، والضحية والجلاد، وها هي الوجوه الهاربة من تلك المناطق الدامية تشاهدها في شوارع لندن «أحمد الله أنني أعيش في كينغستون». كانت لندن بالنسبة إليها تهديداً دائماً؛ فخلال السنوات التي عاشتها هناك ظلت متحفزة طوال الوقت ضد تهديد لا تعلم مصدره ولا متى يقع، أو كيف؟، كانت ترى التهديد في كل شيء حولها، في العرب والأجانب، في الشارع وفي الشقة وفي الطريق الخلفي من لندن وسط المناطق الفقيرة والمزدحمة بالجاليات الشرق أوسطية، ومن الإنكليز أنفسهم، إذ رأت في وجوههم تحفّزاً لاستفزاز كل من له وجه أسمر من الشرق أو نبرة غريبة في حديثه، لذلك فضلت العزلة والابتعاد عن العرب لتعيش بسلام. كان السلام يعني لها الاستقرار في العمل والحصول على الجنسية البريطانية، التي حصل عليها الأفارقة والآسيويون واللاتينيون، إلا هي وحدها التي تستحق من بين كل هذه الآلاف المنتشرة في الشوارع والمدن والمقاطعات البريطانية، تم استثناؤها من هذه النعمة التي تحلم بها، حينذاك قررت أن تبدأ المغامرة هذه المرة، ولكن مع التخطيط لها بعد أن تنتشي إثر تدخينها الحشيشة مع جرعتين من الفودكا أو النبيذ وهي الحالة التي اكتشفت أنها تمدها بالمجازفة والاندفاع، وهو ما تحتاج

إليه لتنسج لها حياة مغايرة عن تلك التي غرقت فيها منذ وطئت قدماها الأرض البريطانية.

«يجب أن أحصل على الجنسية بأي ثمن».

****

يسرا البريطانية

(١)

الوجوه الجامدة والعصية على الفهم وهي تتحرك وسط شلل من الكتل البشرية وكأنها غير عابئة بالجنسية التي تحملها «لو تمكنت منها، سأدخل الجنة الأرضية» عانت كآبة التفكير في الأمر مدة دخولها البلاد، كانت المسافة بين حصولها على الإقامة الإنسانية والإقامة الدائمة كالصراط المستقيم، ودت لو كانت من الأطفال اللاجئين، بالنسبة إلى الأطفال، ينص قانون الجنسية البريطانية أنه تمنح الجنسية للطفل من مواليد بريطانيا إلى أبوين غير قانونيين لمجرد بلوغه سن العاشرة وتمنح تلقائياً، من أبوين قانونيين الإقامة الدائمة في سن السابعة ثم الطريق قصيرة للجنسية، هذا ما توصلت إليه من بحثها العشوائي المتوتر.

ارتدت جاكت أحمر، فوق القميص الرصاصي المفتوح على الصدر، تمعنت في الغرفة حولها لتجدها ضيقة ورتيبة، يخيم عليها

الهدوء البارد، تغلفها رطوبة، تصاعد شعور بالاختناق دفعها للخروج مسرعة إلى الشارع.

****

لم تتمكن من مواصلة السهر في المكان الذي اختارته وتوقعت أن ترى شخصاً ذا قيمة ونفوذ تلقي بأوراقها معه، «الشرف انتهى» أقنعت نفسها بذلك رغم أنها لم تشعر بميول جنسية تجاه كل من صادفتهم، ولكن متطلبات الجنسية تفرض الآن البحث عن مفتاح الطريق السهل، قررت التوقف عن سبر غور المراحل التي يطلبها الشخص المتقدم للجنسية وتركت وراءها الثلاث قواعد من المراحل المحددة للقانون المعدل الذي يوفر الشروح الكاملة حول التغييرات التي طرأت على القانون نفسه، تعبت من الركض وراء الوسائل القانونية وعجزت عن تفسير ما يحدث لها من تجاهل وعقبات، أرهقتها التفسيرات وشروح المتطفلين، والساخرين منذ أن تقدمت بأوراقها للجنسية عبر السنوات التي انقضت، ظل الطلب تحت الدارسة من سنة إلى أخرى، في البداية قيل لها ثلاث سنوات وتمنحين بداية ما يسمى بالجنسية الموقتة أو الإقامة الفعلية الموقتة على أساس أن الطلب مقبول في خلال الفترة من سنة إلى ثلاثة سنوات بحكم أنه يخضع للمرحلة الثانية وهي مرحلة منح الجنسية، حيث يتم فيها دراسة وضعية طالب الجنسية من ناحية العمل وعدم وجود سوابق، ملت روحها، وتقبلت الإهانة تلو الأخرى، صبرت على الضيم ومرارة العيش وقاومت الإغراءات حتى لا تقع في

محظور السوابق، ولكنها في النهاية رأت بأم عينيها وقد خرج الجميع ممن تعرفهم بجنسياتهم البريطانية وظلت تلعق جرح التيه، تربص بها الجميع من دون أن تستسلم، كل ذلك في سبيل ألا تخالف القوانين أو تفصل من العمل.

كانت تعلم بأن توظيفها جرى عن طريق تأشيرة عمل آنية مرتبطة بمدة الإقامة الموقتة، ولو انتهت الإقامة ستخسر العمل وتصبح مخالفة للقانون، إذ يحق للجهة المختصة رفض طلبها؛ حدثت تغييرات على قوانين العمل والإقامة وكل ذلك صب في غير مصلحتها نتيجة التهييج وتزايد النقمة على المقيمين بسبب التطرف، هذا التغيير قد يطيح حلمها وعليها أن تسرع بالمجازفة.

ركبت «الباص» ذا الطابقين المتوجه نحو «جيستين» مستخدمة بطاقة «Oyster» اليومية بعد أن شحنتها من محطة «سيربيتون»، وقد حزمت أمرها على فعل لم تفكر فيه من قبل، تجنبت طوال السنوات المنصرمة أن تفعله بعدما رأت نتائج ذلك الأمر وما قد يسببه لها من نوازل، لم يكن أمامها الليلة سوى إلقاء آخر ورقة وليحدث ما يحدث، فقد سئمت هذا الخوف والتوتر الدائمين بلا جدوى من مصير تأشيرة الإقامة القصيرة التي توشك أن تنتهي ولا تملك لا المال ولا الوقت للخروج من العمل؛ فقدت الاتصالات بالجهات المختصة لتجديد الإقامة، هذا إن أرادوا تجديدها لها بحسب ما نُمي إليها من صعوبات تواجه المقيمين الآن، توجهت نحو منزل «مايك» الباكستاني، ولهذا

الشخص قصة طويلة معها حاولت أن تنساها وفك ارتباطها بكل ذكرى شنيعة مرت بها معه، ويكفي أن تذكر فقط كيف تلقاها منذ الساعات الأولى التي انتهت فيها واسطة الرجل القطري الذي حاول ابتزازها جسدياً ثم ساعد على ترحيلها، هربت منه لتلتقي مايك الذي بدوره تلقفها وحاول إقحامها في شبكته الغامضة التي تدير كل ما هو غير قانوني تحت مظلة قانونية، من الدعارة والقمار وتهريب الأشخاص وإخفاء الهاربين والعمل في المساجد والمكاتب الإسلامية والوساطة للمبشرين وغير ذلك مما لم تسبر غوره خلال الأيام القليلة الأولى التي التقته قبل أن تهرب، بعد أن سلمته كل ما تملك من مال مقابل توفير الإقامة والعمل، وعندما تلاعبت به في البداية ولم تجد في إثرها مناصاً من دفع الثمن، اختفت من حياته بشعور من لا يريد أن يرى هذا الوجه إلى الأبد.

علقت عيناها بالطريق من «سيربيتون» باتجاه «جيستين» على سلسلة الأشجار العالية ذات الأغصان المهيبة وعلى المنازل المترامية الأطراف حتى داخل الأشجار الخلفية كأنها غابة منازل مدفونة وسط الأشجار، راحت تقرأ أسماء المحطات التي تمر بها متذكرة أيامها الأولى وهي تقطع هذا الطريق قبل أن تهرب إلى لندن، أدركت بعد هذه الفترة، بوعيها لماذا يختفي مايك الباكستاني في أطراف «كينغستون»؟، ولماذا نقل أعماله إلى هذه المقاطعة، «لا أصدق بأني أعود إلى المكان نفسه، وأجازف مع الرجل المحتال بالقانون؟ وأين في بريطانيا أم

القوانين». دار ذلك في رأسها وهي تتأمل الطريق من نافذة الباص وسط الصمت المطبق على الركاب الذين خيم عليهم السكون وأغلبهم من العجزة. لم يكن الباص مكتظاً، فقبل الساعة العاشرة عادة ما يتوزع عدد من المتأخرين على الباصات فيما يبدأ البعض باستخدام سياراتهم الخاصة لانعدام زحمة الطريق، كانت هناك سيدة عجوز ذات وجه مثلث وأنف مستطيل ومنحنٍ في نهايته، وكشفت عن عينين زائغتين وشعر كث بنفسجي اللون تقبع إلى جانب النافذة على المقعد الذي أمامها، ومن شدة الهدوء راحت تسمع تنفسها، لمحت بعض الحشرات أو الفراشات الصغيرة المنفلتة من وراء الأشجار تصطدم بنوافذ السيارة وتترك آثار دمائها الصفراء على هيئة بقع متناثرة صغيرة الحجم، ظلت عينا يسرا تنتقلان داخل الباص بين الوجوه الخاملة والصامتة، وبين الخارج حيث السيارات الصغيرة تمر أمامها من الطرف المقابل للشارع، ظل قلبها يدق وتخفق ضرباته بشدة حتى تكاد تسقط في معدتها التي أخذت هي الأخرى تتلبد بأصوات غريبة ذكّرتها بأنها خالية من الطعام، فهي لم تتناول شيئاً منذ أن عادت من العمل إضافة إلى أنها تناولت بضع كؤوس من الفودكا في فترات متفاوتة.

عندما ترجلت أخيراً من السيارة في محطة «جينستين»، كانت الساعة العاشرة وسبع دقائق، بدا الطريق يكاد يخلو من المارة، وكانت هناك ثقوب سوداء في السماء مشكلة بضع كتل من الغيوم السوداء، الهواء كان بارداً ورائحة الأشجار تنبعث من حولها مذكرة إياها بقدوم

الربيع. لم تشعر بخوف من الطريق وهي تتذكر علاماته الأولى قبل بضع سنوات، ولكنها فوجئت بأن ذاكرتها قوية، إذ رغم الفترة التي انقضت منذ مجيئها في الأيام الأولى إلى هذا المكان لم تنس الطريق ولا العلامات ولم يتغير شيء سوى أن هناك بضع حفريات في الشارع وضعت حولها حواجز ليتم العبور من أمامها، هذه هي ورشة تصليح السيارات ظلت مكانها ولكنها طليت على ما تظن بلون مختلف، وها هو الشارع الفرعي المؤدي إلى سلسلة المتاجر والمطاعم الصغيرة التي يعلق بذاكرتها الآن واحد منها كان «مايك» يتناول فيه فطوره الصباحي ويلتقي أعداداً من العملاء المشتبه فيهم «أين مدخل المنزل السري الغامض؟».

وقفت تتلفت لتتأكد من منعطف الطريق، لقد جاءت متأخرة في الليل ومن دون موعد أو ترتيب وبعد كل هذه السنوات من الاختفاء، ماذا تنتظر أن يحدث؟ كان هناك رجل يقف بالقرب من صندوق حديدي للكهرباء، سمّر نظراته تجاهها، تجاهلته وسارت بضع خطوات، شعرت بأنها فتحة الممر الضيق الذي أوشكت أن تتعرف إليه، وقوف الرجل المريب بالقرب من المدخل حال بينها وبين العودة إلى الوراء، تجنبت التورط معه في حديث أو أسئلة في هذا الوقت من الليل، حاولت رصد منعطف آخر يؤدي إلى المكان نفسه ولكنها توجست من رؤية أحد الكلاب العملاقة يرقد على منعطف الطريق الآخر، دارت مرة أخرى إلى الأمام وقبل أن تصل إلى الممر الأول فتحت حقيبتها وتجرعت

رشفة صرفة من زجاجة فودكا صغيرة، مطت شفتيها وأطلقت تنهيدة حادة ثم أقحمت الزجاجة في الحقيبة وقطعت الممر من دون النظر إلى عيني الرجل المسمر بمحاذاة المكان، سارت بضع خطوات إلى الأمام ثم عبرت دهليزاً ضيقاً آخر على أطرافه، تسللت من خلال فتحة بين بناءين، ثم سارت عبر ممر مرصوف بالحجارة، فبلغت سور المنزل الذي لم تكن متأكدة أنه لم يتغير، لم يكن فيما سبق هناك سور يعلو الدار ذات الطبقتين ولكنها عبرت بقية المسافة لتأكدها من المكان وسط بقعة حادة من الضوء جاءت من كشاف كهربائي أعلى البناية، كانت هناك أرجوحة للأطفال في باحة المنزل وخلفها عدد من إطارات السيارات طليت باللون الأحمر، وعلى امتداد المحيط مقابل الجدار الخلفي للدار ظهر حبل أزرق طويل ثبت طرفه بالجدار والطرف الآخر بعمود خشبي وعلقت عليه ملابس مختلفة لتجف رغم أن الوقت كان ليلاً، تباينت الملابس بين سراويل نسائية قصيرة وسراويل جينز رجالية وقمصان رجالية بعضها بأكمام وبعضها من دونها، ران سكون لوهلة ساعد ذاكرتها المثخنة بويلات التشرد والضياع على استيعاب ومضة سريعة عبرت داخلها وسبرت من خلالها غور المكان، عرفت من بعض الملابس كالقمصان ومن ألوانها أنها توافق ذوق «مايك» الهابط كعادته منذ عرفته من قبل، اقتربت من الباب الحديدي الأبيض وقد تردد صدى خطواتها، توقفت نبضات قلبها وكأنها خرجت من داخلها وأصبحت كائناً آخر لا يشعر بما حوله، ومن دون تلميح فوجئت

بالرجل نفسه الذي كان واقفاً عند طرف الشارع وهو من فتح لها الباب قبل أن تطرقه «من أين دخل المنزل؟». لا تعرف إن كان للدار باب آخر وسبق أن عبرت هذا الباب «السر يكبر مع الزمن»، قطع عليها الطريق بوجهه المكتنز باللحم ولحيته الخفيفة ، برزت عينان فحميتان تنمان عن مكر سحيق غائر في المجازفات، نظرت إليه وسارعت قبل أن يبادر بتصرف أحمق غير متوقع.

«مايك».

لم يتغير المنزل كثيراً من الداخل باستثناء شاشة التلفاز المسطحة الكبيرة، وبعض ملابس للأطفال ملقاة على كنبة وردية مطرزة بخطوط سوداء وإكسسوارات معتادة موزعة في أرجاء الصالة الخارجية التي تفصل بينها وبين بعض الغرف المغلقة. كان المنزل هادئاً واطمأنت بعض الشيء لدى سؤال الرجل عن اسمها ثم ابتعاده مسافة عنها من الصالة، راح يهمس في الجوال فيما راحت تتأمل المكان من حولها، شعرت بأن الصالة رطبة وخانقة رغم الضوء الحاد الساطع من أطرافها، وظهرت طاولة طعام غطيت بقطعة قماش قاتمة ملحقة بأسفل زاوية من المكان وتتسع لأربعة عشر شخصاً، أحصتهم بالكمال والتمام لتبعد شبح التفكير السلبي عن فكرها، كان هناك هاتف منزلي أسود قديم يعلوه هوائي طويل، يستخدم على ما يبدو غالباً في الاتصالات السلكية الداخلية مع العمال والموظفين، وعلى الجدار الأيمن من مكان وقوفها لمحت لوحتين إحداهما زهرة عباد الشمس مع إطار

فضي عريض لا يتناسب مع لونها الباهت، والأخرى صورة فوتوغرافية لبرج إيفل الفرنسي، لا تتطابق مع محتويات الصالة، عاد أدراجه نحوها ونظر إلى عينيها نظرة صارمة ولكنها غير عدوانية.

«هل جئت إلى هنا وحدك؟».

مكث يتأمل وجهها قبل أن تجيب ثم هز رأسه كمن يؤذن لها بالكلام.

«نعم بالباص».

قالت عبارتها من دون تردد وبثقة حسدت نفسها عليها بعد كل هذه الرحلة الليلة وحدها بالباص.

«هل توجد باصات بعد العاشرة؟».

«يعتقد أنه يختبرني الأحمق» قالت في داخلها وردت عليه.

«طبعاً».

ردت عليه بارتياح وهي تنظر إلى عينيه، ثم استرسلت غير مصدقة أنها تقوم بكل هذا العمل السري المحفوف بالمجازفات.

«أعرف مايك منذ أمد بعيد وهو يعرفني».

رد عليها وقد تعمد رفع نبرة صوته قليلاً:

«يسرا».

انسلت من أمامه بضع خطوات، دون أن تنبس بحرف واحد، انزلقت على الكنبة الوردية وانثنى رأسها فيما سقطت يدها اليمنى أسفل الكنبة وظلت الأخرى ملقاة على بطنها، سال خيط رقيق من

لعابها على خدها فيما بدت مغشياً عليها، كان الوقت الذي قطعته منذ الفجر عندما استيقظت عند الرابعة والنصف ثم مشوار العمل بكامله، وعودتها إلى المنزل ثم خروجها إلى الحانة وأخيراً ركوبها الباص وحدها بالليل، وقطعت المسافة من محطة «سيربيتون» إلى «جينستين» لمقابلة مايك المحتال، كل ذلك ضغط عليها دفعة واحدة في هذه الثانية من الزمن، اختزلت المعاناة الداخلية وضغط الدم لتنتهي عند الكنبة التي بدا على أطرافها بعض اللطخات من زيت، أو بقايا سوائل ملونة. وقف الرجل في البداية مذهولاً حائراً ثم سرعان ما اختفى وعاد مع شاب في حدود العشرين عاماً تقريباً من عمره، بدا شكله إنكليزياً قحاً من لونه الأبيض الناصع كالحليب، وشعره الحليق بمستوى ٢ مع شعيراته الشقراء، وحاجبيه العاليين، كانت له ملامح باردة توحي بالهدوء والثقة، وعينان واسعتان زرقاوان متسقتان، طبعت عليه مسحة من الوسامة الرجولية تفوق سنه، بادره الرجل الجاثم على الأرض إلى جانب الجسد المسجى قائلاً بنبرة مستغربة:

«هيا يا دكتور، إفعل شيئاً قبل أن نتورط؟».

أومأ الشاب إلى الرجل بحركة من رأسه من دون معنى، كان قد انكفأ على رجليه، ثم وضع أصابعه أسفل أذنها اليمنى في الوقت الذي فتحت عينيها وفوجئت بوضعها المقلوب، فزعت وحاولت النهوض إلا أن الشاب الجاثم حولها أمسك بيديها بهدوء وأجلسها على جانب من مؤخرتها فيما تنفس الآخر الصعداء.

بعد أن انتهت من الحمام واغتسلت وعدلت تسريحتها، ظل وجهها ممتقعاً يشوبه الإنهاك والخمول، بدا لون الوجه مائلاً إلى الأصفر، أجلسها الشاب على كنبة صغيرة مفردة إلى جانب من الباب الأوسط المؤدي إلى عتبة مستطيلة تفصل الصالة عن الجهة المقابلة التي لم تلاحظها منذ أن قدمت إلى المكان، في الوقت نفسه اقتحم المكان الرجل الضخم المستبد القسمات كما لو أنه في حالة استنفار مستمرة، حاملاً بيده كوب الشاي الذي تناوله منه الشاب ووضعه في يد المرأة.

«أدعى ستيف وأنا لست طبيباً، كما أوحى لك ريتشارد وهو دائماً يصر على مناداتي بدكتور، أنا طالب سنة رابعة طب ولم أتخصص بعد، هذه سيرتي».

«دكتور».

قالها المدعو «ريتشارد» وكأنه مصر على فرض اللقب على الشاب، أومأ ستيف برأسه وتبادل نظرة خاطفة مع يسرا التي كانت شبه مرتبكة مع سمات واضحة تنم عن الهدوء رغم نظراتها المتأرجحة في المكان. كانت تتأمل المحتويات من السجاد القديم المتهرئ وهي لا تعلم بأنه من النوع الأصلي الفارسي الذي ينسج يدوياً، إلى الثريات القديمة الكبيرة المعلقة في السقف وهي من الطراز المنقرض من أمد بعيد، لكنها لاحظت شيئاً في الجهة المقابلة للمدخل، ولم تتبين ما إذا كان الحمام أم المطبخ، شاشة تلفاز أخرى حديثة جداً، كبيرة الحجم

٥٥ بوصة، تمّ وصلها بعدد من أجهزة الاستقبال، وأرجعت ذلك في تحليلها إلى وجود أعمال تتطلب متابعة إخبارية. «أين أنا» قالت بشعور من الغموض يكتنف تفكيرها المجمد هذه اللحظة، نسيت كل ما جاءت من أجله، ولم يخرجها من دائرة التيه سوى وقوع عينيها على الساعة الدائرية المزخرفة بنقش تراثي معلقة على الحائط الجانبي، كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة وثلاث عشرة دقيقة «واو.. يا إلهي». راعها مرور الوقت، فكرت في العودة وفي النوم، والعمل في اليوم التالي، لم يتسن لها أن تستعيد فكرة لقاء «مايك»، جل ما ورد في خاطرها العودة إلى شقتها سالمة لتستجمع شتات نفسها الممزقة بين المكان الذي عادت إليه بعد سنوات الهروب منه، وبين فقدان الإقامة الموقتة، وبين خسارتها لنفسها، ولولا وجه هذا الشاب المريح للوهلة الأولى لتقيأت اللعاب الذي غصت به إثر الإغماء عليها، أمرّت يدها على بطنها تتحسس نوبة مغص دهمتها وحاولت إخفاء تعبير وجهها الذي لمحه «ستيف» فسارع يمسك يدها وسط نظرات الآخر الذي انشغل مع الهاتف يتحدث فيه هامساً كمن يقدم تقريراً عن حالة ما.

«يمكنكِ البقاء هنا، أو بإمكاني إيصالك إلى المكان الذي تقصدينه إذا لم يكن بعيداً».

قلبت الفكرة في رأسها ووجدت من الأفضل السؤال عن موعد وصول مايك الذي كابدت كل هذه المغامرة الليلية، وقطعت المسافة الزمنية بينهما منذ سنوات لتجازف بمواجهته، «هل أنتظره؟ أم أحسم

أمري ولتكتمل المجازفة؟ أعود أدراجي وأظل أكابد القلق والسهر والتفكير في مصيري؟»، التفتت حولها لتفاجأ بستيف ينظر إليها وينتظر جوابها الذي تأخر فيما هي منشغلة بالتفكير في مصيرها المرتبط بالجنسية.

«هل عودته مؤكدة؟».

رد عليها ريتشارد عبر المسافة الفاصلة بينهما.

«هو في الطريق».

****

(٢)

[لاذت عيناها بالفرار من مواجهة ضابط الجوازات، تركت الأوراق الممزقة مع الجواز المتهرئ من قبضة يدها اللزجة بالعرق، رغم برودة الجو في القاعة الواسعة، كانت كالمختطفة تحوم عيناها في أرجاء المكان المكتظ بالجنسيات المختلفة، لا أحد يراقب الآخر، الكل مشغول بتدبير أموره، شعرت بدوار وانتابتها نوبة ذعر فجأة خشية أن تتقيأ على كونتر الجوازات أمام الملأ، شغلت ذهنها بالأفكار البعيدة عن القاعة الهائلة المكتظة بالبشر، تذكرت البصرة وأحياء الزبير، عاودتها صور وجوه الجيران وصديقات المدرسة، ثم سرعان ما تحولت الصور إلى كابوس آخر زاد من شعور الغثيان والتقيؤ ، لاح لها سكان الزبير وحالهم اليوم بعد الهروب والتشرد، فكثير منهم توزعوا الكون واستقروا في بقاع الدنيا الواسعة، بعضهم لاذ إلى الموصل وبعضهم الآخر اتجه إلى كردستان، وأغلبهم نزح خارج العراق، ومنهم من غاب تحت الثرى.

لاح لها فجأة، وجه فيصل المر، أحد رواد فندق أرماني ببرج خليفة بدبي حين كان يستميلها عارضاً خدماته وهو يشرح لها كيفية

الوصول إلى مطار هيثرو، رأت في وجهه البراءة والمكر معاً، فمن جهة يريد اقتيادها تلك الليلة إلى غرفته، وفي الوقت نفسه كان لطيفاً معها وهو يعرض خبرته في الأسفار، سألته عن مطار هيثرو فتورطت، تذكرت وجهه المستطيل ذا الوسامة السمراء وثغره الباسم باستمرار وهي تقف الآن أمام الجوازات والرعب يتناولها قطعة قطعة «هل نفعتني نصائحه في شيء؟». كان صوته ناعماً وهو يتصنع الأدب معها.

«عندما تغادرين مطار دبي تذكري أن تسافري على طيران الإمارات أفضل لك، ومن هنا إلى لندن مباشرة على تيرمينل الإماراتية، ثم توجهي إلى الجوازات ومن بعدها إلى العفش، ولا تتطلعي إلى عيون موظفي الجوازات، اشغلي بالكِ بأي شيء».

من مطار هيثرو إلى طلب الإقامة، رحلة السندباد الزبيري، مع يسرا القرمزي أو يسرا البريطانية، هنا تنتهي الخطوة الأولى لتبدأ المعاناة الدامية مع الجنسية «لماذا لا يخطفني الموت كما فعل مع الكثيرين؟».

مرت بمراحل عديدة، حدثت لها أشياء ووقائع خلال هذه السنوات الأربع وهي تنتظر الموافقة على طلبها، ومازال ينظر فيه، لماذا هي بالذات يحدث لها ذلك؟. هل خضع الجميع لكل تلك التعقيدات؟ هل كل طلبات اللجوء تخضع للإجراءات نفسها؟

عندما سمعت لأول مرة وهي تطأ قدماها الجزر البريطانية، أنه يحق لها الحصول على المساعدة القانونية مجاناً في طلب اللجوء،

ظنت أنها بلغت أرض النعيم بعد أن اجتازت جحيم مطار هيثرو، ومن بعده الاحتجاز القسري في أحد المعسكرات المعدة لطالبي اللجوء. لقد تم احتجازها وفق صفقة لا دخل لها فيها، وهي ألا ترحل فوراً من بريطانيا لأنها مدانة في قضية دعارة بدبي «كيف توصلوا إلى هذه الحادثة المروعة التي لم يكن لي يد فيها». ظلت أياماً بلياليها تلوك هذا السؤال؟ وأخيراً تم التحفظ عليها كجزء من قوانين «الطلبات السريعة».

«تعتقد السلطات أنك ربما قد اقترفت جريمة، ولهذا تقوم بالتحقيق معك تحت إشراف شرطة الجوازات، يظنون أنك خطر على سلامة الدولة».

«أنا؟ أنا القادمة من محرقة الزبير بلا أهل ولا أصدقاء ولا مال ولا مستقبل، خطر على بريطانيا؟» رددت العبارة طوال الوقت والدموع محبوسة في مقلتيها لا تستطيع الخروج.

بعد عودتها من المقابلة الدامية الشرسة التي سُلخ جلدها فيها، تلكأت في البداية بسبب وجود مترجم عراقي الجنسية، استشعرت منه الذعر بسبب انتمائه إل طائفة أخرى، زاد من عقدتها النفسية، عندما لاذت مع الآلاف من اللاجئين من الزبير، ظنت أن اختباءها في لندن وقطع صلتها بالشرق الأوسط هما نهاية الألم، وعندما رأت المترجم الذي ذكرها بمن كان يطاردها وراء النهر وزرع فيها الخوف والفزع، شعرت بأن أرض بريطانيا تبلعها من جديد كما بلعتها حلب من قبل

لدى نشوب النزاع الدامي هناك «لماذا مترجم عراقي وأنا أجيد الإنكليزية؟». رأت في عينيه لغزاً محيراً عندما كان يترجم كلمات بينما كانت في طريقها لتنطقها بنفسها، عندما خرجت بعد أيام لم تفهم ما جرى لها وراء الكواليس، فحين راحت تتقصى في محرك البحث غوغل وجدت تفسيراً يتعارض مع ما حدث لها.

(فعادة تجري مقابلة الفرز حين تقديم طلب اللجوء، إذا كان هنالك أشخاص يمكن التواصل معهم في لندن، فعليك أن تطلب الاتصال بهم قبل المقابلة، لديك الحق في الاتصال بقريب أو صديق أو بخدمة نصح أو بمحام. كما يجب عليك التأكد من أنك تفهم مترجمك وتثق به).

بعد أن انتهت من أخذ البصمات أغمضت عينيها واسترخت على سرير المركز الذي تولى احتضانها أياماً خمسة كانت بمثابة عذاب القبر النفسي.

****

مايك، ما أشبه الليلة بالبارحة، شعيرات ذقنه الشقراء الخفيفة، وجهه العريض الذي زادت فيه بعض التضاريس العظمية الدالة على قسوة الأيام التي مر بها، جثته المكتنزة بمنكبيه العريضين، عيناه تشعان دهاء وأنفه الحاد البارز كمنقار طير ينعكس ظله في ضوء النور المسلط من زاوية الغرفة الخاصة بالدور الثاني من المنزل، جلس بإزاء يسرا التي وضعت في البداية قدماً فوق الأخرى ثم سرعان ما أعادتها إلى

وضعها الطبيعي، بشرته المفعمة بالبياض الدهني المائل إلى الرطوبة الشرقية، بدا وهو جالس على المقعد وكفه اليسرى على فخذه الأيسر فيما تصاعد الدخان من منفضة السجائر قبالته على المنضدة الجانبية للمقعد الجالس عليه، بدت أمامه أليفة وهي تشع بالهدوء المتحفز لأي كلمة أو إشارة تنفذ من الرجل القابع على الكرسي كأنه يتربع على عرش إدارة الجوازات البريطانية، كان عقرب الساعة يخدش السكون بصوت طرقاته المثيرة للأعصاب من حولها، شعرت بالتيه، ظل الدخان يتصاعد من السيجارة أمامها، كانت في تلك اللحظة ومنذ أن وطئت قدماها المكان تود التدخين لولا حرجها من الرجلين السابقين الموجودين بالأسفل، ولولا هيبة المكان الذي لم تعرف بعد ما خطوتها القادمة.

«نعم يسرا... لقد عدت أخيراً، لا شك أن الحياة صعبة في بريطانيا».

قالها واثقاً بأنها جاءت بإرادتها بعد أن انتهى بها المطاف محاصرة من كل الجهات، فهو خير من يدرك صعوبة العيش في الإمبراطورية البريطانية المنكسرة بفعل الأزمة المالية الخانقة التي شحذت همة الجميع وحولت البشر إلى دمى تتحرك من غير هدى، خبر الرجل الباكستاني الأصل ذلك كله واستغله في تمويل مشاريعه التي تراكمت عبر السنوات الطويلة الماضية من غير أن تظهر عليه علامات الثراء أو يبدو في رفاهية تتناسب مع تحصيله المالي، قال عبارته المقتضبة

وراح يمعن النظر في وجهها بعينيه الثاقبتين محاولاً انتزاع اعتراف منها بالهزيمة بعد أن تخلت عنه وهربت من غير وداع.

«تعبت مايك .. انهرت، واستسلمت أخيراً وافعل بي ما تشاء بما يمليه عليك ضميرك».

برزت ندبة صغيرة متناهية إلى جانب ذقنها من شدة التوتر الداخلي المكتوم، لاحت بشرتها البرونزية ممتقعة وتدفق صوتها مخنوقاً وهي تحاول البوح بكل معاناتها دفعة واحدة لتنهي الموقف بسرعة خشية أن تفقد موهبة التظاهر بالندم والضعف، شجعتها نبرة صوته الحانية كما بدت لها لتقول بإيقاع متحفز ومستسلمة للقدر المحتوم.

«سيتم ترحيلي قريباً، لن تجدد إقامتي، وليس لي محامٍ ولا وسيلة ولا ...».

فجأة انخرطت في البكاء، مالت برأسها إلى الأسفل كمن تخفي وجهها، طفق الصوت يخرج مخنوقاً متقطعاً، كان ينظر إليها وهي قابعة أمامه كأنها كتلة آدمية مدمرة، لاح ضوء الغرفة خافتاً وانبعثت من الخارج في تلك اللحظة رائحة بهارات محروقة، وحين رفعت رأسها وهي تجفف دموعها رأت السيجارة قد تحولت إلى رماد من دون أن يستعيدها ولا مرة منذ أن أشعلها وتركها في المطفأة.

«مايك .. أنا آسفة».

نهض من أمامها واتجه نحو نضد في ركن من الغرفة وأفرغ له كأس ويسكي ثم التفت نحوها وسألها.

«أعد لك كأساً؟».

«هل يعقل أن تغير الرجل؟». انتابها السؤال وهي تلتفت نحوه وترى الكأس في يده وبدا لها أنها بحاجة إلى الكأس من غير حاجة إلى مسايرته فقط، هزت رأسها موافقة، فقدم لها كأسه وأعد له كأساً أخرى وعاد إلى مقعده وقد تعمد أن يربت كتفها وهو يجلس.

«ستحصلين على الجنسية ولا أريد شيئاً في المقابل».

«أهذا هو مايك الباكستاني حقاً؟ هل تغير العالم بهذه السهولة، ليصبح إبليس ملاكاً؟».

الساعة المزخرفة على الجدار تشير إلى الثانية عشرة ودقيقتين وطريق العودة بالليل وحدها، محفوف بالخوف، شعر بذلك من نظرتها المقتضبة إلى الساعة، ابتسم وزعق بريتشارد الذي اقتحم المكان وكأنه كان ينتظر وراء الباب.

«أوصل يسرا إلى سكنها بسرعة وعد».

«لماذا لا يكون ستيفن أو الدكتور كما يلقب هو من يوصلني». رددت في داخلها من غير أن تشعر بالخوف من الرجل المكلف إيصالها ما دام قد أخذ الإذن من مايك.

«نامي جيداً وسيكون كل شيء بخير وتذكري أني كنت كريماً معك، عكس ما أنت عليه».

نهض بعد أن أطلق عبارته وربت كتفها مرة أخرى لتنهض بعده مباشرة، وقبل أن تغادر الغرفة خلف ريتشارد، التفتت نحو مايك

وطبعت قبلة سريعة على خده وغادرت الحجرة كأنها تسقط في حفرة أسفل الأرض.

****

فتحت الباب وولجت الغرفة ١٥٥، كانت أشبه بمكب نفايات، الملابس الداخلية الرجالية على الأرض، وحول السرير، أعقاب السجائر متناثرة عند شرفة الغرفة من الداخل، «كيف لم يشتغل جهاز الإنذار من الدخان؟» تساءلت وهي تلقي نظرة شاملة على المكان قبل أن تبدأ العمل حيث لا تعرف من أين تبدأ؟ سوائل لا تعرف ماهيتها على الأرض وأعواد القطن المستعملة مبعثرة هنا وهناك ولا معنى لوجودها بهذه الكثرة، حبست أنفاسها وتوجهت نحو الستارة، أزاحتها ورمت ببصرها نحو الجدار المقابل لبناية سدت في وجهها المنظر الذي عادة ما تطرق ببصرها نحوه حينما يصادف أن تطل الغرفة على الخارج، كل شيء في المكان يوحي بأن ثمة معركة بشرية جرت هنا، زال شعورها بالفضول لمعرفة من يعيش هنا بمثل هذه الفوضى، جلست على طرف السرير فأحست بأن ثمة شيئاً وخزها، نهضت وتفحصت مكان جلوسها لتجد حلق أذن صغيراً على شكل ريشة طاووس صغيرة حادة، «وضحت الصورة» هكذا شعرت، ابتسمت وهي تبحث عن مكان تبدأ فيه العمل وسط هذه الكتلة من النفايات، فاتجهت نحو السرير وانتزعت الأغطية ثم قذفت بالوسائد في زاوية، واجتاحتها في تلك اللحظة صورة التحقيق الذي أجري معها لدى وصولها إلى بريطانيا،

وانتابتها شكوك فيما لو أخلف مايك وعوده لها وحلت الكارثة المرتقبة عليها، تصورت أن يتم حبسها في البداية في «مركز الترحيل» وهي تعرف وضعه جيداً، عند كل من يتقدمون بطلب الحصول على حق الجنسية، إذا ما كانت وزارة الداخلية تجد شكاً في طالب اللجوء، أو الجنسية، حتى يتم البتّ فيها بسرعة، وإذا ما حدث هذا فيتم حبس المتقدم أياماً حتى يتم اتخاذ قرار بشأنه، وإذا ما تم رفض طلبه فسوف يبقى في مركز الترحيل مدة أسبوع أثناء سماع طلب الاستئناف، وإذا ما تخلى عنها مايك وكانت تلك لعبة انتقام منه، فحينها ستذهب إلى مركز الترحيل «أين سيقذف بي؟» تساءلت بوجوم وهي تسرح في أرجاء الغرفة المبعثرة بذهول، لا تستطيع العمل والتفكير في الوقت نفسه في شروع الرجل الباكستاني في تنفيذ وعوده، لقد كان صادقاً ولكن من يضمن أن يحدث شيء؟ لقد مضى يومان حتى الآن ولم يبق على انتهاء مهلة تسوية الإقامة سوى أسبوع وينتهي بها المطاف إلى حظيرة الترحيل، إلا إذا قام مستشارها القانوني بتحويل قضيتها إلى السلطات المختصة، وهذا رهن بتحرك مايك الذي يقبع الآن في «جيستين»؛ هو لديه مستشاره الخاص، وبإشارة من إصبعه تتغير الأمور، «فما الذي ينتظره؟»، انتبهت إلى أنها بدأت تكلم نفسها والدقائق تمضي والغرفة في حالة رثة، أسرعت بإزالة الأوساخ من الغرفة وراحت تعمل بسرعة غير مهتمة بتقصي فضولها المعتاد في البحث عن أسرار النزيل.

عندما انتهت من الغرفة ١٥٥ تطلعت إلى جدول الجناح

واختارت رقماً عشوائياً وفتحت الباب ودلفت الغرفة ١٤٦، وإذا بها أمام غرفة تم تنظيفها تماماً ولا وجود لما يمكن أن تقوم به، كما كان حال الغرفة السابقة، وقفت حائرة مرة أخرى لا تعرف ماذا تفعل، وهل يعقل أن يمضي نزيل عشرين ساعة بالغرفة من دون أن يتركها بحاجة إلى تنظيف؟ أدركت منذ الوهلة الأولى أن ثمة أمراً بهذه الغرفة يثير الغرابة، راحت تلقي نظرة على الحمام لتجد أنه لم يستعمل طوال الفترة الماضية، وبحسب الجدول المرفق بالخدمة اليومية للغرف فإن هذه الغرفة بحاجة إلى التنظيف، فتحت بعض أدراج الطاولات وراحت تبحث عما يمكن أن يسلط الضوء على الحالة الغريبة أمامها، داخل الدرج الأعلى قرب منضدة المرآة نسخة من بريد إلكتروني لتذكرة سفر مرجعة لندن ـ تونس، ثم عثرت أسفل ملف بلاستيك شفاف على حزمة أوراق بالعربية محتواها بين مسودات لمقالات صحفية وبعضها أسماء وعناوين لأماكن مختلفة بينها جمعيات خيرية من ضمنها جمعية للأيتام، أغلقت الدرج وقبل أن تتركه لمحت في جهة منه نسخة من الصفحة الأولى لجواز سفر قطري «يا للصدفة!». همست لنفسها وقد تذكرت فيصل القطري الذي سبق وتحدثت معه في فندق أرماني ببرج خليفة بدبي، غير أن هذه الشخصية هنا لرجل ستيني العمر، ملتحٍ بعض الشيء ويرتدي بذلة كحلية اللون وتنقصه الأناقة ولا يشبه الآخر في شيء سوى في الجنسية القطرية، تركت كل شيء مكانه وابتعدت نحو

الشرفة ولم تعثر على أي شيء آخر، انسحبت خارج الغرفة بعد أن مسحت بقطعة إسفنج بصماتها من فوق الأدراج وقررت أن تبلغ إدارة خدمات الغرف بأن الغرفة ١٤٦ لم تستخدم على الإطلاق، وضع الغرفة والنزيل تركا تساؤلات في رأسها «لماذا التذكرة، لندن – تونس مرجعة وجنسية المقيم قطرية؟» هل يعنيها الأمر؟

أنهت بعض الأعمال في غرف الجناح المخصص لها وهبطت إلى الردهة الخارجية للفندق وأشعلت سيجارتها وراح فكرها بعيداً نحو «جينستين» وما يحدث هناك، استعادت صور المكان ورائحته وما خلفه وراءها من شعور عارم بين التفاؤل والشكوك، وحين تستعيد نبرة صوته ونظرته الثاقبة وحزم قسمات وجهه يجتاحها إحساس بالسكينة، ولولا مرور الوقت واختلاط الساعات بالقلق وتلويح المسافة المتبقية عن انتهاء الإقامة الموقتة لشعرت برعب من وراء التأخير. لو جرت الأمور كما تحلم، لتفرغت لبدء حياة جديدة في بريطانيا حتى لو تحت لقب يسرا البريطانية، فمن شدة تعلقها بهذا اللقب رغم ما يحمله من سخرية إلا أنها شعرت بأنه الشيء الوحيد الذي يربطها بالواقع الذي بدأت تشعر بأنه المكان الذي تنتمي إليه بعيداً عن الأمكنة التي انتهت بها خارج الحدود بما فيها مسقط رأسها الزبير.

أنهت سيجارتها وتوجهت نحو قسم الإدارة وأبلغتهم عن غرفة ١٤٦ وسجلت تقريرها عنها، وفي طريق عودتها عبر الممر صادفت

السيدة ليبولد التي ابتسمت لها، وفسرت ذلك في داخلها على أنها علامة إشارة تفاؤل تدل على بدء سريان مفعول حظها الجديد المنتظر، عملت طوال الساعات الماضية على اجتذاب طالع الحظ الذي يصب في مصلحتهامتجاوزةً الشعور السوداوي الملازم لها منذ سنوات، وضعت صورة مايك أمامها وانتظرت أن يحدث شيء.

****

(٣)

حل الصباح الباكر بطيئاً كئيباً حاملاً معه بقايا ربيع لندن وقد باغته ندى الليل المشبع برطوبة بدايات فصل الصيف، وإن لم تغب البرودة عنه إذ شعرت بها تسري في بدنها وتتسلل إلى صدرها العاري. خرجت مسرعة، إذ لم يسعفها الوقت لارتداء الجاكت، تنتظر فلين الذي تأخر بضع دقائق عن موعده وظلت تنتظره على الرصيف، راحت تتابع من كثب حركة السيارات والدراجات العابرة من أمامها مبتدئةً يوماً جديداً أشرق على منطقة «كينغستون» التي بدت وقد أفرغت من الناس والضجيج كالذي ينتظرها بعد قليل في الداون تاون، كانت المنطقة تغرق في الهدوء والرتابة والوجوه القليلة العابرة يطبق عليها السكون هي الأخرى وكأنها تتنفس بصعوبة هذا الصباح، حرصت على الوصول إلى الرصيف المحاذي لفندق الهوليدي إن قبل الرجل إذ دأبت في الوجود قبله بدقائق؛ فمجرد وصوله قبلها يعني لها يوماً من الصمت المطبق من قبله، رغم ما يكنه لها من مشاعر لا تتبادلها وإياه، ولهذا ظلت تتجنب أي تصرف، ومن بينه التأخير حتى لا تدين له بشيء، ولو أسعفها الحظ وتوافرت لها وسيلة نقل إلى العمل أو

تمكنت من الانتقال إلى الهوليدي إن «بكينغستون» لبصقت عليه، لما يمثله من إذلال إنكليزي لا يصدر إلا عن قلب استعماري قديم، هكذا رسمت السيناريو في مخيلتها مع إطلالة هذا الصباح الذي أبت فيه أشعة الشمس أن تتحرر من بين كتل الغيوم المتكدسة في السماء.

بلغت الفندق في لندن على رأس آخر دقيقة قبل بدء الدوام وراحت تهرول إلى الداخل، وإذا بصوت يستوقفها عند مدخل العاملين لتلتفت وتواجه امرأة كبيرة في السن لم تتمكن من التمعن في وجهها، طلبت منها العودة معها إلى الخارج، حاولت الاستعلام عن هويتها فبادرتها الأخرى قائلة بنبرة حاسمة.

«مايك».

وبحركة سريعة تبعتها وهي تتنفس الصعداء «أخيراً وصلني شيء من الرجل»، سارت خلفها تعلوها دهشة من سرعة خطوات المرأة الستينية العمر، حتى لا تكاد تواكبها، رأتها تسير باتجاه سيارة رباعية الدفع سوداء من نوع مازدا تتدلى حقيبتها المرقطة من كتفها فيما بدت مؤخرتها الكبيرة المترهلة تتموج أشبه ما تكون بكتلة من الجلي ما أثار ابتسامة يسرا رغم تدفق مشاعرها بحرارة بعد هذا الاتصال من قبل مايك، كانت ترقد اليوم بطوله بانتظار هذا الاتصال وها هي المرأة المتعجرفة الشمطاء تقودها نحو سيارة غريبة بينما تترك هي وظيفتها مضحية بالتزامها الوقت، من حيث لا تعلم بما ينتظرها من توبيخ أو مخالفة التأخير لتكتشف ما يخبئه لها الرجل من وراء هذه المرأة ذات

الوجه الصارم والتضاريس الصلبة، مع غرابة الأنف المتعجرف. كانت تبدو مزهوة وهي تجرها خلفها باقتضاب، وكأنها تمحو خطواتها كلما تقدمت إلى الأمام حتى وصلت إلى السيارة المركونة في زاوية من الشارع من غير اكتراث لتوقيع مخالفة لها وهي تركن السيارة بلا مبالاة، توقفت والتفتت إليها وأشارت عليها بصعود السيارة بعد أن مهدت لها بفتح الباب، لم تتردد يسرا التي وضعت نصب عينيها الجنسية البريطانية حتى لو أدى ذلك إلى سفر الرؤيا، كما قرأت عنه غير مرة وهي تستعطف الدينين الإسلامي والمسيحي أن ينتشلاها من قعر الدنيا القاسية التي لا ترحم أمثالها، صعدت السيارة ونسيت ما قد ينتظرها في الفندق من إجراء لغيابها بلا استئذان، كان القلق بادياً على ملامحها بعد أن انطلقت السيارة في شوارع لندن، وفي إثر الصمت الذي أطبق على السيارة تنهدت المرأة الجامدة ونطقت أخيراً.

«أنت قلقة؟».

«لماذا تسألني وهي تعلم بقلقي؟» راودتها الأفكار المشوشة بين السلبية والتفاؤل، فمن حيث مايك ووعده لها بالمساعدة ها قد بدأت الخطوة الأولى، ومن حيث الغموض الذي يلم بالواقعة الآن فهي لا تعرف أين ذاهبة ولا ما ينتظرها فضلاً عن خروجها من العمل بلا مبرر، كانت تلتفت من حين إلى آخر وتتأمل وجه المرأة التي تقود السيارة بسرعة ولكن بثبات، وحين لاحت لها فرصة لترد على سؤال الأخيرة قالت بصوت خافت محاولاً الحفاظ على هدوئه.

«حياتي صعبة وهذا سبب قلقي، فأنا معلقة هنا لا أعرف مصيري».

استغرقت المرأة الكبيرة فترة قبل الرد عليها إلى أن التفتت إليها ورأت لأول مرة على وجهها ابتسامة صفراء كشفت عن أسنانها المتعرجة وهدرت بالكلام من خلال لهجة إنكليزية مجوفة.

«هذه البلاد معقدة، وهي صعبة حتى على أهلها فما بالك بمن يرغب في العيش فيها، لكن نصيحتي لكِ هي أن لا تلتفتي إلى مخاوفكِ ولكن لا تتجاهليها أيضاً».

جرفتها عبارات المرأة المتزمتة مظهرياً وداعبت فيها روح التعبير، أيقظت الصمت المتحجر بأعماقها الدفينة منذ أمد طويل، ما حرض مشاعرها على التحرر من الكبت الكلامي، فوجدت نفسها مندفعة تقول من غير أن تختار كلماتها.

«هذه البلاد تلتهمني، بل أشعر أنها تأكل كل من يقف في طريقها حتى لو كان عابر سبيل».

قالتها بلغة متقنة لتفاجأ بالمرأة متحمسة تقول.

«سارة.. اسمي سارة».

بدأت تدب فيها الحيوية للكلام، زال التوتر تدريجاً، لولا انحراف السيارة فجأة بعنف والانعطاف نحو مدخل المنحى الجنوبي للمدينة الكبيرة لتنزلق نحو الطريق المزدحمة باتجاه الضاحية التي لم يسبق لها أن عبرت نحوها لتستقر السيارة أخيراً أمام طريق مزدحم تقع عليه سلسلة من المحال والورش والمكاتب مختلطة بعضها ببعض،

ترجلت المرأتان ودلفتا نحو مكتب صغير وقد تركت السيارة بمحاذاة الرصيف من دون اكتراث كما لو كانت تعلم بأنها مؤمنة.

في زاوية من المكان الذي كان عبارة عن غرفة مكعبة تسودها إضاءة معتمة كما لو كانت داخل حانة، وقعت عيناها للوهلة الأولى على مكتبين صغيرين أحدهما خالٍ والآخر تشغله سيدة بدت من هيئتها أنها عربية، سرعان ما تعرفت إليها من لهجتها الليبية، وهي تتحدث العربية عبر هاتفها الجوال وقد بدت كمن تقنع الطرف الآخر بتأجيل المكوث في المدينة.. لم تتضح هوية المدينة ولكنها كانت تحذره من العودة إلى لندن الآن، وبينما أخرجت سارة كيساً بلاستيكياً صغيراً وراحت تلف سيجارة بانتظار إنهاء الأخرى المكالمة، راحت عينا يسرا تجولان في المكان كعادتها وهي تمسح ما حولها، وقعت عيناها في البداية على المكان المطلي باللون البيج الغامق، ثم تحولتا نحو السجادة الأرضية البنفسجية اللون مع تقاطعات باللون الأبيض على هيئة خطوط متعرجة، بدا المكان محشوراً بالكراسي والأدراج تعلوها ملفات عديدة، لفت انتباهها صور قديمة لرياضيين معلقة خلف المكتب الخالي المحاذي للمكتب الذي تجلس عليه ذات اللهجة الليبية التي ما كادت تفرغ من مكالمتها حتى استلمتها سارة، بينما كانت تعد لها كوب القهوة وبصوت أجش قالت

«أنت تكثرين من الكلام، لا تلوميني إذا لم أزرك».

ثم غيرت من لهجتها قائلة وهي تقدم لها يسرا.

«يسرا التي حدثتك عنها، آمل أن تكون أوراق الاستمارة جاهزة؟».

سرّتها عبارة سارة، للمرأة الليبية رغم عدم تقديمها لها بالمقابل، بتطرقها إلى أوراق الاستمارة مع عدم علمها بماهية هذه الأوراق ولكنها أقلّه وقفت على خيوط قد تنقذها من مصيرها المعلق.

«سوف تتابع معك نهى الزيني مسألة الإقامة، هي من أفضل المحامين في لندن المتخصصين في موضوع الجنسيات ولها باع طويل في ذلك، وأنا واثقة بتحصيلها جنسية لكِ خلال أسابيع».

قطعت كلامها ونفثت دخان سيجارتها التي كانت في نهايتها ثم استطردت قائلة:

«لن يطول الوقت حتى تحتفلي بجوازك البريطاني ما دمت بيد هذه الملعونة».

أخيراً عرفت اسم الملعونة التي بدا أنها لم تهتم بتلك الصفة واكتفت بهز رأسها مع ابتسامة مقتضبة ثم نهضت فجأة ودارت من حول المكتب وتقدمت من يسرا التي راحت تتابع خطواتها وتتأملها بحذر لتفاجأ بها تقول بثقة الواثقة بتخمينها.

«أنت فتاة عراقية من بغداد».

قالتها بالعربية ومدت لها يدها تصافحها ثم سحبتها ببرود ما يوحي بغرابة أطوارها كما استنتجت يسرا من كل هذه التصرفات.

«ماذا تعرف عني هذه المدعية؟ لكني بحاجة إلى خدماتها وكذلك

إلى دهائها، بل سأقبّل مؤخرتها»، ابتسمت لنفسها وهي تفكر بصوت داخلي لتجرؤ وتكذب نصف تخمينها بالقول:

«عراقية نعم ولكن من الزبير بمدينة البصرة».

ابتعدت عنها باتجاه لوحة معلقة على الجدار لقارب شراعي وأزالت عنها قطعة من رذاذ الغبار، لتلتفت نحوها مرة أخرى، وتصدمها بالسؤال الذي لم يسبق أن سمعته منذ أمد بعيد.

«أنت شيعية أم سنية؟».

«بحق هي ملعونة كما وصفتها سارة، لو تعرف الزبير لما سألت هذا السؤال المنحرف» قالت في صميم ذاتها، وقبل أن تجيب جاء صوت المرأة الليبية

«اعذريني على تطفلي، عادة أهتم بهذه الناحية لأنها تؤثر في طلبنا وهناك في الدوائر البريطانية من يضع اعتباراً لمثل هذه المسألة في حالة التقدم بطلب منح الجنسية البريطانية».

«لقد ظلمت المرأة» قالت لنفسها ثم استدركت في أعماقها «ورغم ذلك فهي شاذة».

كانت الساعة تشير إلى التاسعة وست عشرة دقيقة، وتنبهت للمرة الأولى إلى نوبة العمل التي تركتها وشعرت بأن ثمة سيناريو يجب عليها أن تختلقه لتتجنب إجراءً قد يفسد عليها حالة الارتياح التي اجتاحتها إثر تحرك موضوع إقامتها، وفيما تمعن النظر في ساعتها، ربتت سارة

كتفها موقنة بأن يسرا قلقة بشأن العمل، ابتسمت لها ورشفت آخر قطرة في كوب القهوة ثم نظرت إليها قائلة:

«لا تقلقي، لن تتأخري أكثر من ساعتين».

لفتتها المرأة الليبية وهي تقطر في عينيها من قارورة صغيرة ثم تعود إلى الكمبيوتر، زال التوتر لدى رؤية سارة تبتسم فشجعها ذلك على انتقاد إدارة الفندق بالقول:

«أنت لا تعرفينهم، يصطادون الدقيقة، الساعتان بالنسبة إليهم يومان بلا عذر، وقد يجر ذلك إلى تحقيق ثم فصل و...».

قاطعتها سارة وهي تحدق إلى الساعة على الجدار.

«يا إلهي .. هؤلاء إيرلنديون شماليون».

حملت حقيبتها التي كانت على الطاولة الفارغة وقبل أن تهم بالتحرك أردفت قائلة:

«ستتكفل بالأمر، لا تجزعي يسرا».

«أي حنان نزل على المرأة من السماء لتكون في أقل من ساعات بهذه الروح الودية؟». مر بخاطرها كم كانت ظلمتها، ثم لاحظت أن سارة طوال مدة وجودها في المكتب لم تأت على ذكر مايك في الموضوع من بعيد أو قريب، وحمدت الله أنها لم تخطئ وتأتي على ذكره صدفة؛ كان من شأن ذلك تعريض سر الرجل الباكستاني للخطر. بعد ثوانٍ خرجت إلى الشارع وهي تحمل معها رائحة المكان إذ شعرت بأن الرائحة علقت بها وهي خليط من دخان السجائر ونكهة

كربون الورق الصادر عن الطابعة القديمة الملحقة بكمبيوتر نهى الزيني، ولابد من حفظ هذا الاسم ابتداءً من اليوم لأنه سيكون لها معها صولات وجولات ما دامت ستترافع عن قضيتها مع سلطات الهجرة البريطانية، لم تزل الرائحة عالقة بها حتى بعد أن عبرت الشارع مع سارة نحو السيارة التي كان يستند إليها أحد الشبان، وبمجرد اقترابهما منها ابتعد من غير أن يلفت الانتباه.

كان طريق العودة أقصر من المجيء، وسبب ذلك تراجع شدة الزحام التي كانت في ذروتها عند الصباح الباكر، جلست في جوار سارة التي راحت تقود السيارة وتنفست الصعداء وإن ساد القلق بشأن الفندق وخروجها غير المبرر «لماذا انتزعتني من عملي بدلاً من تحديد موعد مسبق، ما دام الأمر ليس بتلك السرية ولا الخطورة ويسير بحسب المعتاد؟». عادت مع صوتها الداخلي تنسج المبررات وتوجد الأسباب لهذا التصرف «لعل مايك له أسبابه في تدبير الموعد بهذه الصورة المستعجلة الخاطفة».

****

(٤)

لفرط قلقها سارعت بالتوجه نحو قسم الخدمات مباشرة وتسلمت جدول الجناح المخصص لها وهو منذ أسبوع لم يطرأ أي تغيير عليه علماً بأن ثمة تغيراً في النزلاء الذين غادر بعضهم وحل آخرون، ولعل ذلك يفتح الباب أمام إزالة الروتين من عملها، لم يكن هناك ثمة نزلاء مميزون طوال هذا الوقت باستثناء أحدهم دأب في إلقاء سراويله الداخلية على الأرض وهو ما سبب لها القرف «لا ليس اليوم»، قالت في داخلها ذلك وهي تقرأ الجدول، ولاحظت ساعة إضافية بعد نوبة عملها، فمنذ يومين أضيفت الساعة وشعرت بأنهم في الإدارة لم ينتبهوا إلى غيابها طوال هذه المدة وإلا تم استدعاؤها، ولما وضعوا لها الجدول في المكان المخصص، أخفت نفسها في الممر بسرعة باتجاه الجناح وبسرعة دلفت الغرفة ١٣٩ وأغلقت الباب، وقبل أن تلقي نظرة على الغرفة، لفت انتباهها على جدول المناوبة، وجود الرقم ١٤٦، الغرفة التي أبلغت عنها بالأمس «لست بحاجة إلى الرعب اليوم»، ثم واصل صوتها الداخلي الغليان «هل يعقل أنهم لم يبحثوا الأمر ويحققوا في هذه الغرفة المشتبه فيها التي لم يقتحمها نزيلها منذ أيام؟»، «وهل

هم بهذا الاستخفاف الأمني؟» ذرعت الغرفة بخطواتها المتوترة مجيئاً وذهاباً لا تدري من أين تبدأ مع حجم التشويش الذي تغرق فيه، فمنذ الصباح الذي بدأ بانتزاعها من باب الفندق وحتى اللحظة تبدو الأمور جميعها مربكة، وعليها الآن أن تنهي نوبتها بلا أخطاء أو إرباكات قد تضاف إلى غيابها لو تم اكتشافه «ولابد من اكتشافه» سرحت برهة ثم واصلت «لا تستحضري السلبية، اعملي والباقي اتركيه للقدر».

دون أن تنزلق إلى صوتها الداخلي رددت بعض الآيات القرآنية لإبعاد التوتر، ثم انخرطت في العمل وبدأت بجمع الأوساخ من الغرفة، بدلت الملاءات ثم اتجهت إلى الحمام وقامت بتنظيفه، استبدلت مواد الاستحمام والفوط وراحت تلقي نظرة على المكان، كان الوقت يهرول ويقارب الظهيرة فأخذت تسرع الخطى لإنهاء العمل بالغرفة، يدفعها الفضول لتلحق بالغرفة ١٤٦ الغامضة لاستكشاف ماذا جرى بعد الإبلاغ عنها بالأمس، كانت بطبيعتها وفي ضوء ما مرت فيه من أحداث، كثيرة الشكوك، وضعت مصيرها على كف عفريت من كل خطوة تخطوها وعند كل منعطف مهما كانت تفاصيله صغيرة وتافهة، تلتزم الحيطة والحذر، موضوع الغرفة ١٤٦ سيثيرها وسيقلقها أكثر من إدارة الفندق نفسها لأنها تربط مصيرها بمصير التحقيق في الأمر حتى لو كانت المسألة لا تخصها، فبمجرد أن تكون في المكان نفسه، فهو يؤدي إلى التورّط فيه، هذا ما جنته من رحلتها الطويلة منذ هروبها من الزبير، تاركة من حولها جنة الله! والبيئة، وذكريات سنتها العاشرة،

وغرقها في رحلة التنقيب عن موطئ قدم بعد الزبير، من دون أن تنسى قصص البيوت القديمة التي بنيت من القصب والبردي وجذوع النخيل قبل آلاف السنين، علقت بذهنها صور الخوف من الملاحقة، وطبع ذلك بصماته هنا في لندن، ما دامت لم تقبض بعد الجواز البريطاني، لم يخفف من توجسها صلة القرابة «بالنيادة» الذين ينتمون إلى الجزيرة العربية، فهنا في لندن لا وجود للقبيلة والعشيرة، كل قوتها وثقتها بنفسها تجترها من ديمومة صورة والدها جبار الشريف محفورة في أعماقها، وتعلقها بأحاديثه المتقطعة خلال الفترات القصيرة لدى عودته من الجبهة، استرسلت في صور الماضي وسنحت لها المراجعة بمشاهد الأمس والعودة إلى الدار في الزبير، ظل الشريف يذكرها بمن تكون؟ ولمن تنتسب؟ حررها ذلك من الخوف الدائم الذي تركته بصمات والدتها بعض الشيء؛ فبينما كان جبار الشريف يؤكد ويصرّ على النسب الأصلي العربي المنتمي إلى السعودية ومنطقة نجد وعبارته الشهيرة «نحن ننتمي إلى النبي محمد» كانت والدتها تذكرها بالكويت والهروب الدائم والملاحقة المستمرة والتيه في أرض الله الواسعة نتيجة التهديد والغزو.

أخيراً ولجت الغرفة المشكوك فيها وصدمت لرؤيتها تغرق في الفوضى تحيط بها من كل مكان، الحمام والصالة والممر، بالإضافة إلى الاستعمال المفرط للأدوات والملاءات وانتشار مخلفات المكسرات، وقفت مشدوهة تسترجع الأيام المنصرمة عندما تعاود المكان كل يوم

من دون أثر للإقامة، «ماذا حدث لتنقلب الصورة رأساً على عقب؟». بمجرد أن أطلعت قسم خدمة الغرف على الحالة تبدل الوضع وعمت الفوضى الغرفة «هل أطلعهم من جديد على التغيير؟». دفعها الفضول المعتاد لتبدأ العبث بمحتويات المكان، يتلبسها التوتر بسبب الشكوك حول المكان والخشية من أن تكون هناك فخاخ منصوبة، بدأت بلملمة الملابس المتناثرة على السرير وأخذت تشم رائحتها لتكتشف بأنها نظيفة وبالكاد استعملت، كما لاحظت أن انتشار أعقاب المكسرات لم يصاحبه فتات ما يدل على أن من تناولها كان بحالة طبيعية ولم يفقد السيطرة بسبب الثمالة أو المخدرات، ثم نقبت في الحمام فوجدت بخبرتها أن ثمة شخصاً واحداً فقط استخدم الحمام من خلال الفوط وأدوات الاستحمام المستخدمة، واستنتجت بأن النزيل رجل وليس امرأة من كومة أظفار رجولية في قاعة المزبلة التي نظفتها، ظلت تنقب هنا وهناك حتى توقفت فجأة وراودتها خاطرة ساخرة من نفسها « لماذا أشقي نفسي بالتحري؟ لعنة على هذا الفضول الذي بلا معنى».

قبل أن تنتهي، وفيما هي توشك على المغادرة رن هاتف الغرفة، كان الفضول لايزال في ذروته وقوانين الخدمة تمنع الرد على المكالمات الداخلية للنزلاء، وهناك نظام للاتصالات داخل الفندق يراقب الرد على المكالمات في حالتي وجود المقيم أو عدمه، ولهذا لا تستطيع الرد، ولكن هناك طريقة لتكتشف من خلالها هوية المتصل وهي رفع السماعة، والاكتفاء بالاستماع من دون الرد ثم مسح

البصمات من على السماعة وهكذا يبدو الأمر تائهاً، وفيما هي تتأرجح في قرارها خرس الصوت فارتاحت لانتهاء التردد، أغلقت الباب وخرجت متجهة نحو الغرفة التالية.

«ماذا يجري في دمي؟ لماذا الهوس بالنزلاء؟».

صدق حدسها، عندما استدعيت في المساء وطرح عليها سؤال من قبل أحد المسؤولين عن أمن الفندق، لم يصادف أن شاهدته من قبل أو تعرفت إليه، عرفت اسمه فقط وقد نُقش على صفيحة معدنية رقيقة على صدر الجاكيت الرسمي «مايكل . ج . نلسون» جلست بإزائه في حجرة صغيرة ملحقة بقسم الموظفين الرئيسي، في البداية تأكد من اسمها، يسرا القرمزي، ثم قذفها بسؤال صاعق.

«هل لك صلة باختفاء ساعة يد تلفونية من الغرفة ١٤٦ قبل ثلاثة أيام؟».

فاجأها السؤال الذي يحمل اتهاماً، بلا تردد أجابت بثقة مقتضبة.

«لا سيدي».

خفضت نظرها نحو الأرض لومضة سريعة «وآخرها مع هذه الغرفة المنحوسة؟» تحولت إلى كابوس يومي منذ أن رفعت التقرير بشأن الغرفة واللعنات تطاردها، لم يكتشفوا غيابها في الصباح ولكنهم أوجدوا لها تهمة قد تفصلها من العمل، وإذا ما صادف وعرفوا عن غيابها فقد تزداد الشكوك حولها وتفسد خطة مايك في التحرك بشأن الإقامة الدائمة. «ماذا يجري حولي منذ أن ولدت؟» قالتها بقنوط

وخوف عارم تسلل في داخلها وصَعد من دقات قلبها بالرغم من أنها واثقة بأنها لم تقترب من الساعة المذكورة.

«أقسم سيدي لا أعرف شيئاً عن ساعة ولو ثبت علي أي شيء فأنا رهن تصرفكم، كل ما فعلته أنني رفعت تقريراً قبل أيام عن الغرفة وذكرت فيه أنها لم تسكن منذ فترة».

أطرق الرجل يفكر وهو يتأملها ثم سألها بعدم اكتراث.

«عن أي تقرير تتحدثين؟».

دخلت في تفاصيل الموضوع منذ البداية واختتمته بذكر الحالة التي رأت فيها الغرفة ١٤٦ منذ قليل ولم تستطع إخفاء ابتسامة مزعجة شعرت بأنها غير مناسبة في موقفها هذا.

أطرق «مايكل . ج . نلسون» للحظة وهو يمعن النظر في وجهها، لم تتمالك نفسها بعد رحلة اليوم الطويلة، فانزلقت دمعة من عينها ومسحتها بسرعة، فقالت وهي لاتزال محافظة على ثقتها بنفسها.

«هل تصدقني سيدي ؟».

«أميل إلى تصديقك».

ألقت بعبء من فوق كاهلها، وضعت يدها على رأسها وكبتت مشاعرها ورنت إلى صوتها الداخلي يردد «انتحري لتتخلصي من هذا العالم».

خفف من هذا الإحساس المتدفق عنفواناً، يد الرجل تربت كتفها وهو ينهض ويطوي الورقة التي كان يكتب فيها أقوالها.

«لا تجزعي ثمة نقطة غائبة في المسألة، دعي الأمر لي واذهبي إلى عملك».

****

مع حلول المساء الغائم والبارد نسبياً على لندن، قطعت مسافة العودة إلى «كينغستون» بالقطار، غارقة في السكون الذي أطبق على غالبية ركاب المقطورة، فقد اعتادت ضجرهم ونظرتهم الجامدة وهم يمسكون الجرائد كمن يقبضون على الهواء في أيديهم التي تكسوها التجاعيد، فغالبيتهم، عجزة وشيوخ وقلة نادرة تركب القطار من الشباب وتحديداً في المساء، كانت تتطلع إلى الخارج من النافذة وتتأمل أوراق الأشجار يداعبها الهواء، «سألقي برأسي على الوسادة وأنسى الدنيا وما فيها». استعادت ذاكرتها فيما لو كانت هناك بقايا من ويسكي أو نبيذ بدولاب المطبخ، تولاها استياء لو لم يكن هناك ما تتناوله الليلة للاسترخاء وإجراء جرد في سلسلة أحداث اليوم منذ الصباح الباكر حتى اللحظة، طاف بذهنها المشوش وجه مايكل . ج . نلسون رجل الأمن، ولوهلة سريعة استعادت ملامح وجهه الأسمر ببشرته الفاتحة ودهشت من عدم تركيزها في ملامحه ساعة كانت تجلس أمامه، فسرت الأمر بأنه الخوف الذي تملكها «منذ متى لم أشعر بالخوف؟»، لاحظت الآن فقط بأنه كان ستيني العمر وله عينان سوداوان عكس أقرانه الإنكليز، كما ظهر لها أنفه الصغير وشاربه الخفيف ذو اللمعة كما لو أنه دُهن بالزيت، شعرت تجاهه بالود وخصوصاً بعد أن ربت كتفها وقد منحها

ذلك شعوراً بالاسترخاء بعد موجة الفزع الذي لفها وهي تُستدعى من قبل الأمن الداخلي للفندق، صوت الصمت من حولها لا يقطعه سوى هدير القطار من الخارج ومنظر الأشجار يهزها الهواء وصورة المنازل العتيقة محاطة بالغابات المطلة حافتها على الشارع. طريق العودة، كان اليوم طويلاً وشاقاً ومليئاً بالنتوءات، تذكرت عبارة لم تسعفها الذاكرة أين قرأتها أو سمعتها تقول «إن البوصلة تدلك على الشمال ولكنها لا تكشف لك ما يعترضك في الطريق من مفاجآت». لعلها من فيلم أو صحيفة قديمة لكنها مرت بخاطرها وعبرت وسط زحام الأفكار المتواردة حتى لحظة وصول القطار إلى محطته الأخيرة، ركبت الباص مستخدمة كالمعتاد بطاقة oyster وأمضت عدة دقائق حتى محطة «سيربيتون» ثم واصلت العودة مشياً على الأقدام حتى شقتها التي ولجتها وصدمتها رائحة البيض الذي كان وجبتها الأخيرة بالأمس حين أعدته مقلياً مع الطماطم، وقعت عيناها أسفل الباب من الداخل على ورقة صغيرة، كُتبت بخط ركيك عبارة عن ملاحظة تذكرها بموعد استحقاق إيجار الشقة «لقد دفعته، لا، لم أدفعه». عصرت ذاكرتها واستعادت وقائع اليومين أو الثلاثة الماضية لكنها وقعت بتشويش يطغى على الذاكرة وفهمت بأنه من غير الممكن أن تطالب بالإيجار مرتين، «أين تبخر الراتب؟ لم أفعل شيئاً خارج المألوف؟».

علقت الرائحة بالمكان وقفزت نحو النافذة الوحيدة المطلة على

الخارج عبر الشرفة وفتحتها ليتسلل الهواء البارد إلى الداخل، ثم بدأت بخلع ملابسها وأخذت في الارتعاش بسبب تيار الهواء البارد، اتجهت نحو المرآة وراحت تتأمل جسدها، كانت المرة الأولى منذ سنوات تقف أمام المرآة شبه عارية إلا من حمالات الصدر والسروال الداخلي القصير ذي اللون البنفسجي، كان تأثير اليوم بارزاً في نفسيتها ورغم تعرضها للتحقيق الأمني إلا أنها أحست بارتياح من مقابلة المحامية الليبية نهى الزيني التي أوكلت إليها مصيرها في بريطانيا بل في الدنيا كلها، مر بخاطرها أن هذه المحطة اليوم هي الأخيرة في سلسلة محطات العذاب، ومن هنا بدأت تفكر في مظهرها استعداداً للمرحلة القادمة التي تتطلب اهتماماً بمظهرها، كانت رؤيتها لجسدها بعد مدة طويلة لم تقف فيها أمام المرآة عارية له وقع الصدمة، إذ رأت خصرها الذي كانت تتباهى به وقد اكتنز قليلاً أسفل الخاصرة وأعلى السروال، فيما بدا لها نهداها وقد فقدا بروزهما الصلب مع تورم في الكتفين بينما احتفظ فخذاها بتناسقهما وظلت مؤخرتها مشدودة وهذا ما أسعدها ولو أنها أحبطت حينما رأت الخطوط الصفراء على هيئة تضاريس ناتئة بجانبي الفخذين وأرجعت ذلك إلى زيادة الوزن «منذ الغد سأبتاع جهاز قياس الوزن». وفي خضم ذلك تذكرت للحظة أنها لم تدفع إيجار هذا الشهر «لابد من فعل شيء، أي شيء مجنون لأجني دخلاً إضافياً».

استعادت صورة الفتاة الصغيرة ذات السبع سنوات وهي تهرول من المدرسة تحت أشعة شمس الزبير الحارقة والمشبعة بالرطوبة،

وسمعت صوتاً من بعيد على إيقاع خطوات جبار الشريف بزيه العسكري ونجومه المرصعة أعلى القميص الخاكي المرقط بلون الصحراء، يلتقيها عند مدخل المنزل، يحملها بين كتفيه ويقرصها في خدها ثم يلج المنزل وهو يردد عبارته الدائمة «الشيطانة الماكرة». أوشكت على البكاء وهي تتأمل المرآة ولم تشعر بلسعة البرد الذي لفحها لحظة خلعها ملابسها للوهلة الأولى «كم كنت جميلة؟ ماذا جرى ليسرا جبار الشريف الفاتنة؟». قاومت البكاء واتجهت إلى النافذة وأغلقتها ثم أسدلت الستارة وهي لا تشعر برغبة في ارتداء ملابسها، سكبت لها كأساً من بقايا زجاجة فودكا رخيصة لا تعرف حتى مصدرها ثم أشعلت سيجارة كانت ملفوفة وجاهزة على المنضدة واستمرت في تأمل جسدها «لابد من تغييره».

في الصباح الباكر وهي تهبط من الشقة واجهت رذاذ المطر يغطي الشارع والسماء ملبدة بالغيوم السوداء الكثيفة والظلام يغمر الدنيا وكأن الليل لايزال مسيطراً؛ الساعة في معصمها كانت تشير إلى الخامسة وخمس وخمسين دقيقة، لم يكن الطقس بارداً ففي مثل هذه الفترة من شهر مايو عادة ما تستمر الأمطار ويقل البرد وتزداد الرطوبة وخصوصاً عند الفجر وفي غياب أشعة الشمس، سارت نحو فندق الهوليدي إن، واضعة حقيبتها على رأسها واحتمت بواجهة الفندق الخارجية بانتظار سيارة فلين محاولة بين الفينة والأخرى إخراج رأسها لرؤية الشارع الذي تأتي منه السيارة، فقد اعتادت الوقوف عند رصيف الشارع الخارجي المطل على نهر التايمز، وخشيت أن لا يراها ويمضي.

تذكرت عبارة الليلة الماضية حول ضرورة إجراء تجميل لجسدها بإعادة إحيائه، ابتسمت «لابد من تغييره» اجترت العبارة وكأنها تكرس تصميمها على إحيائه بالتركيز على العبارة مرة أخرى.

عندما بلغت الفندق توقف المطر وظلت الرطوبة، ساد الظلام وحمل لها ذلك إشارة إلى يوم معتم كبقية الأيام المنصرمة وهي تتوالى بالمفاجآت القاتمة التي لا تكاد تتوقف منذ أن حلت قدماها في أرض بريطانيا الحلم الذي انتكس وأصبح كابوساً جاثماً على أنفاسها، منذ الفجر حتى الليل، كان هذا إحساسها وهي تعبر الردهة محيّية كل من يصادفها بحركة من رأسها أو بعبارة صباح الخير لو وجدت تشجيعاً من بعض من يصادفها، كان الإنكليز وخصوصاً النساء نزقات في الصباح عكس الرجال، كانت ترى في نظراتهن الاحتقار لها برغم أن بعضهن عاملات مثلها، كن يرفضن حتى مجرد رد التحية، تجاوزت هذا الشعور اليائس وتوجهت نحو قسم الخدمات كعادتها لتسلّم جدول العمل، لتفاجأ بعدم وجود اسمها في قائمة اليوم، عادت مرة أخرى تمعن النظر في القائمة لتكتشف إدراج اسم عامل آخر بولندي تعرفه من بعيد، وقفت جامدة مكانها ولم تأبه لنظرات اثنين من العاملين هناك، أحست بأن قلبها يسقط من مكانه وحرقة تجتاح معدتها وجموداً في قدميها «أخيراً ألقي بي في الشارع». التفتت حولها لتجد الجميع انسحب وظلت وحدها في المكان، اتجهت مرة أخرى تقرأ القائمة، سحبت خطواتها ببطء ثم غيرت رأيها وأسرعت نحو شؤون الموظفين.

أول ما وقع نظرها وهي تجلس قبالة السيّدة ليبولد ابتسامتها الباردة التي وجدت فيها خبث الإنكليز في نظرتهم إليها «من حقها أن تبتسم وهي تراني مكسورة». قبل ليلة مضت كانت خارجة من الصيدلية فرأت رجلاً طاعناً في السن مقعداً وحوله كأس بلاستك صفراء قديمة فيها بضع قطع نقدية صغيرة، عندما بحثت في محفظتها الصغيرة لم تجد سوى ورقة من فئة خمسة جنيهات وبعض القطع الصغيرة، فكرت للحظة ثم وضعت الورقة ومضت في طريقها سعيدة لأول مرة منذ بداية اليوم كله، تذكرت ذلك الشعور وهي تتلقى ابتسامات السيّدة ليبولد التي بدا وجهها المعتاد وقد كسته تجاعيد النوم «لماذا تسخر من ألمي؟». لكن شعورها المتشائم ذاك لم يستمر طويلاً، إذ بادرتها المرأة بعبارة هادئة.

«يسرا.. مبروك، لقد كسبت اليوم، أولاً تحققت رغبتك وتم نقلك إلى «هوليدي إن كينغستون» مع ترقية وإن بدت صغيرة لكنها بداية جيدة».

انتفضت في مكانها، ودت لو تقفز من مقعدها وتلقي بنفسها على المرأة وتقبلها «هل هذه حقاً السيّدة ليبولد التي تصورتها طوال الوقت وحشاً نزقاً؟». لم تكد تنتهي المرأة من كلامها حتى استأنفت قائلة وقد بدت أسنانها ليسرا هذه المرة أجمل من كل المرات التي قابلتها فيها.

«لهذا لم نضعك اليوم على الجدول، خذي إجازة وسأسلمك رسالة مع توصية للإدارة الجديدة في «كينغستون»، وأتمنى لك نجاحاً

أكبر في عملك، متميزة ومخلصة وستنجحين بلا شك طالما ظللت جسورة».

لم تدرك مغزى العبارة الأخيرة «طالما ظللت جسورة»، لابد من أنها رسالة غير مباشرة لمعنى ما تريد إيصاله من غير أن تفصح «لكن السيّدة ليبولد أفصحت عن جزء من لغز الفترة المنصرمة في العمل معها وهي تصافحها في نهاية المقابلة وتسلمها الرسالة والتوصية».

«اهتمي بشؤونك وستكشف لك الأيام كثيراً من الخفايا».

في الخارج أطلقت لخطواتها العنان وأفردت زفرة حادة خرجت من أعماقها وكادت تشعل السيجارة قبل أن تخرج من الردهة الداخلية للفندق باتجاه موقف السيارات، كان أول شيء قامت به هو التدخين.

بحلول المساء نسيت عدد المرات التي قرأت فيها الرسالة والتوصية، ولولا خشيتها من تلف الورقتين لاستمرت في قراءتهما، فقد نصت الرسالة على منحها ترقية وعلاوة معقولة في الراتب إذ بلغت ١٢٠ جنيهاً «للشراب» علقت والفرحة تتسلل إلى قلبها لأول مرة منذ غادرت الزبير. كان الوقت صباحاً والحركة في الشارع هادئة على غير المعتاد وبدا الناس يتحركون بسرعة قصوى كأن فوق رؤوسهم الطير، «أخيراً يسرا خرجت بنقطة لمصلحتها» علقت هذه المرة بصوت مسموع، والتفتت خلفها خشية أن يسمعها أحد، كما خشيت أن تصاب بعاهة جدتها «دلال» وهي كويتية عرفت بتحدثها مع نفسها بصوت عالٍ، هذا أقلّه ما روته لها والدتها التي دأبت في رواية الوقائع

التي تتشدق بأصلها الكويتي كلما تشاجرت مع جبار الشريف، عادت بها الذاكرة إلى الوراء في هذا الصباح الغائم مع تفجر مشاعر الفرح المصحوب بالتوتر والخوف من أن يكون ذلك مجرد طفرة عابرة توحي بعاصفة قادمة «أعوذ من الشيطان، حتى فرحتي أفسدها بنفسي» استرجعت خلفيتها القديمة عن الأبراج، وفتحت نافذة على العراق ثم تسللت إلى البصرة ومنها حطت في الزبير، رأت في الأبراج السحر الرباني الذي رافقها منذ الطفولة والمراهقة، يتبلور من حلقات الماء والأرض والنار والهواء، انفلت خيالها في مشهد غائر من الأمس حين كانت تتدثر بشتاء ديسمبر وتخترع حلقة الثلج بحكم كونها من مواليد ديسمبر، كانت قد جعلت من برج القوس وهو البرج التاسع في دائرة الأبراج الذي ينتهي به فصل الخريف برجها العاجي! الذي لا يصله أحد بمن فيهم والدتها بالرغم من كل محاولات التطفل للوصول إلى خزانة أسرارها، كانت المرأة الكويتية كلما تشاجرت مع عقيد الزبير تلجأ للبحث في سلة المهملات الأسرية لتصنع من يسرا شبحاً لا ينتمي إلى نخيل الزبير وأوراق البردي، لم توفق إلا في الأمور الصغيرة، وظلت الطفلة الزبيرية تكبر وتنضج حتى ألقت بها رياح الشرق الأوسط الدامية على حافة نهر التايمز «بكينغستون» وقد استقرت فيها منذ اليوم عاملة بفندق الهوليدي إن.

«سأبدأ بحفلة أدلل فيها يسرا القرمزي على نجاحها والانتقال إلى كينغستون، ويا الله، الجنسية البريطانية».

فيما كانت تجمع أغراضها البسيطة من الخزنة المخصصة، وهي عبارة عن فوط للوجه وعلب سجائر منوعة كانت تجمعها بعد رحيل النزلاء من الغرف، وبعض أنواع كريمات الوجه ومرطب للفم، حتى أعواد تنظيف الأسنان كانت متناثرة في الخزانة، دهمها فلين مبتسماً وخلفه اثنتان من العاملات معها في الخدمة، توقفت عن جمع أغراضها وبادرها الرجل قائلاً بنبرة احتفالية:

« القسم قرر الاحتفاء بك بحفلة توديع نهاية هذا الأسبوع».

تركت مهمة جمع الأغراض وارتعش جفنها وهي تنتقل بنظراتها بين الثلاثة فيما استأنف فلين الكلام من جديد.

«لا تنسي ليلة نهاية الأسبوع، فقد حجزنا لك الإجازة والمواصلات ورقصة عربية ترقصينها».

سارعت إحدى المرأتين وهي الأكبر سناً وذات شعر منسدل اجتاحته خصلات بيضاء، فيما بدت بشرتها رمادية على غير المعتاد للنساء، فتدخلت في الحديث قائلة بنبرة ودية مصحوبة بابتسامة باردة.

«نعم مطالبة بالرقصة وأنا أضمن لك هدية تطيح رأسك تلك الليلة».

في داخلها أسئلة محشورة لا تجد الوقت للبوح بها لنفسها لكنها اختزلت واحداً بسرعة من شدة استغرابها «كيف انفجر كل هذا المخزون من الود الإنكليزي؟».

****

حل المساء وقد قضت طوال اليوم تجول في شوارع لندن «داون تاون» تحتفل بمغادرتها السياج الفوضوي لتستقر في كنف هدوء «كينغستون».. تعبت من المشي والتطلع إلى المجمعات وقطع الشوارع سيراً كأنها المرة الأولى لها في المدينة الصاخبة، تنظر إلى الوجوه من أنحاء العالم، هذه الوجوه لا تصادفها في «كينغستون»، فالملامح هناك إنكليزية بحتة، عبرت باتجاه بيغ بن ثم انحرفت باتجاه الهايد بارك بعدها مرت على مقهى وتناولت شطيرة لحم مع القهوة ثم عاودت المشي من جديد، راحت تراقب الحركة في الشارع، تأملت ساعتها وفجأة انتبهت إلى الوقت، فأسرعت بدخول أقرب محطة للبيع واشترت زجاجة نبيذ أحمر، توقفت عند صالة التزلج على الجدران، صورت عبر تلفونها بعض المواقف وكأنها سائحة عربية تسجل ذكرياتها قبل أن تغادر لندن، بعدها قطعت طريق العودة بالقطار عند الغروب بحلول الساعة السابعة وبضع دقائق، ومع تحسن الطقس في المساء إلا أنها شعرت بأنها ليست وحيدة في بريطانيا.

رن هاتفها فيما كانت تستعد لمغادرة المدينة، الساعة أشارت حينذاك إلى الثامنة ودقيقتين، من النادر أن يأتيها اتصال لأيام وقد أثارها صوت الهاتف في تلك الساعة، حملت الجهاز، وللوهلة الأولى لم تتعرف إلى المتصل إلى أن جاءها صوت ستيف الذي يعمل مع مايك الباكستاني يطلعها على موعدها مع لجنة الجنسية، ثم سألها، متى يأتي ليأخذها مقترحاً عليها الساعة السادسة صباح اليوم التالي، اختلطت فرحتها بالخبر مع انشراحها لصوت الشاب الذي سبق والتقته لدى

زيارتها منزل مايك في «جيسنتين». لم يخامرها شك هذه المرة في موضوع الجنسية لعلمها بأن الباكستاني المحتال وراء التخطيط، لكن فاجأها أنه لم تكن سارة المتصلة التي سبق ورافقتها لمقابلة المحامية نهى الزيني «هل تعمد ستيف الاتصال، لقد كان ينظر إليّ بشيء من الاهتمام؟». حملت في داخلها بعض المشاعر السطحية من اللقاء الأول، لمحت في سماته هدوءاً ينم عن ثقة بالنفس كما إنه في غاية الوسامة لكنها صرفت النظر عن التعمق في الشعور، تنهدت مع رعشة في وجنتها واكتفت بحبس أفكارها في مسألة الجنسية وما سيتم بشأنها غداً.

انتهى اليوم التالي بما لم تكن تتوقع، وبعد أقل من أسبوع رن هاتفها وأبلغتها سارة بأنه تمت إجراءات الإقامة الدائمة، كانت نبرتها عادية وخالية من أي حماسة كما لو أنها تبلغها عن نبأ تافه لا علاقة له بمصيرها، بدا صوتها كصوت أي امرأة إنكليزية من سلالة نساء يشبهن مارغريت ثاتشر، هكذا كانت تتخيلها يسرا في كل مرة تتعاطى معها ولكنها لم تتصور أن تنقل إليها الخبر المنتظر منذ الأزل بهذا البرود السقيم.

«انتهت ملحمة البحث عن جنسية».

قالتها المرأة الفولاذية كما تسميها يسرا في داخلها وتركتها وسط دموع طويلة وساخنة تنهمر لأول مرة فرحاً وليس حزناً كما دأبت خلال سنوات العمر المريرة، الاحتفال شمل الجميع، مايك ونهى الزيني

وستيف وسارة وبالطبع هي، إذ حجز ستيف بأمر من مايك مطعماً هندياً يقع بشارع برايتون في «كينغستون» ودعا له زمرة من أصدقائه ومريديه، لم تكن الحفلة ليسرا وحدها بالتأكيد، فقد اعتاد مايك أن يخلط المناسبات بعضها ببعض ويستغل المناسبة الواحدة ليجعلها فرصة لإمرار أعماله من خلال عشاء يشمل الأحاديث والصفقات والأسرار وحتى التواعد بين بعض الوجوه التي تحيط به، أو يستدرجها إلى المرح والعربدة، شعرت بأن هذا الأسبوع لابد أن يسجل في التاريخ، كان عبارة عن أوقات تفجر فيها بركان إعصار السنين كلها في شكل أمنيات بدأت تتحقق على غير المتوقع، تتالت الوقائع كأنها حلم لا تريد تصديقه، وفي الوقت نفسه، رغبت أن تغمض عينيها ولا تفتحهما إلى الأبد حتى لا تصحو وترى الأمر سراباً في سراب «لكنه لم يكن سراباً بل هو ثمن الرحلة الدامية من الزبير حتى كينغستون».. أنفاسها وهي تتلقى الخبر تلاحقت مع زفرات حادة أطلقتها من أعماقها واختلطت بدموعها التي لم تتوقف إلا عندما سمعت صوت جبار الشريف يأتي من وراء الحدود عابراً البحار والمحيطات والعوالم السفلى والعليا ويهمس بصوته الجهوري الدافئ «عفواً ابنتي كنت معك طوال الوقت».

هناك حفلتان منتظرتان، الأولى بفندق لندن والأخرى بالمطعم الهندي في «كينغستون» «ماذا أفعل الآن؟» كانت حائرة ومشوشة، سعيدة وحزينة، كل المشاعر لا علاقة، بعضها ببعض، كألوان قوس

قزح تلونت الأحاسيس، الخوف من المنظور القادم والفرح بما تحقق والخشية من خسارة هنا أو هناك غير متوقعة «تباً لي، أفسد كل جميل» من أين لها هذه الروح المتوجسة؟ كيف بدأت ونمت وترعرعت داخلها كل هذا الوقت؟ «علي أن انطلق فحسب»؛ الأصوات المختلفة تتحاور داخلها كأنها جمعت كل المضادات «لا تفسير لذلك» صوت جبار الشريف في مقابل صوت نجوى القطان المرأة الكويتية بلونها البصراوي، بأصوات الجيران بالأرض المغمورة بالمياه وقد نمت فيها سيقان القصب والبردي، بأصوات الحرب، أصوات طالبات مدرسة الزبير «آه أين صوتا فراس في جبهة الحرب وسام الأصغر الذي ترك المدرسة وغاب في دهاليز الأحياء والأزقة وجاب غابات النخيل والمزارع وقد تمرغ في أرذل المهن مغادراً طفولته البريئة بعد أن خرج عن السيطرة في غياب جبار الشريف وهروب نجوى القطان».
كل الأصوات طغت على وقائع اليوم وخلطت المشاعر، رسا الفرح إلى جانب الحزن على ضفة قلبها المتعب، صمت الفؤاد، لم تعد هناك جلبة الأشياء تجلجل في رأسها كالسابق، ثمة تغيير إلهي يحدث على الأرض ويعوض سنوات القحط والعذاب، تكاد تختفي صور الأسوار الشائكة على الحدود ويضمحل وجه الصبية الزبيرية ببشرتها الممزوجة بالملح الشرق الأوسطي لتبدأ طفرة الأصباغ الملونة على الوجه المحفور بالألم، كل شيء يتغير بسرعة، هناك سحر يجري وراء الستار «ترى ما الثمن الذي علي أن أدفعه؟».

حزمت الأمر نحو تقبل كل ما يأتي سواء من السماء أو من الأرض أو من مايك «كفى هروباً»، تقبلت الأشياء التي تحدث من دون سؤال، فقد قررت ألا تعيق الطبيعة عن فعل عناصرها، ولهذا ذهبت إلى المطعم الهندي مع شلة مايك في تلك الليلة المطعمة برذاذ المطر الصيفي الذي بدأ مع إطلالة شهر يونيو، كانت الشمس في الصباح ساخنة بعض الشيء وعند المساء وهي تستعد لمغادرة الفندق بعد تسلمها أوراق العمل الجديدة أثر النقل وشعور بالازدحام يملأ عالمها الجديد، ما عادت تشعر بالخوف كالسابق وإن ظل هناك بعض القلق من أن يحدث شيء في غير الحسبان ويعرقل الجنسية التي توشك أن تصدر لها «يسرني أن يقال لي يسرا البريطانية حينها». تركت كل شيء مكانه ولم تشغل بالها بالأفكار، اعتنت بهيئتها فقط كما لم تفعل من قبل وبدت مشرقة بعد حف حاجبيها الكثيفين، وأحدثت انحناءة صغيرة في طرفهما مع تحديد لوني يميل إلى البنيّ، دهنت بشرتها بكريم أساس مضاد للأكسدة دفعت فيه نصف ما تملك من مصروف شهري، أطالت أهدابها وطلتها بالأسود وجعلتها نافرة، سرحت شعرها وجعدت أطرافه ثم مسحته وتركت خصلتين تسقطان عند طرف العين، تعمدت ارتداء سروال جينز أزرق فاتح وضيق يكاد يكشف تضاريس المناطق البارزة من جسدها، واختارت قميصاً أزرق بلون السماء البريطانية، ضيقاً هو الآخر تعمدت ترك فتحة فوق الصدر «ماذا أفعل؟» تأملت شكلها أمام المرآة قبل أن تتوجه إلى المطعم « ينقصني الكثير قبل أن

أمحو صورة الذل عن مظهري» وضعت قدميها في كعب حذاء أسود عالٍ اشترته أخيراً بعد خبر نقلها إلى «كينغستون» جالت في الغرفة لثوانٍ ثم قفزت إلى الشارع بحلول الساعة الثامنة والنصف.

الطريق إلى المطعم لا يستغرق وقتاً، فبعد محطة البترول المقابلة لمعرض سيارات الـ BMW راحت تمشي بخطوات بطيئة هادئة مروراً بالفندق، ولدى تجاوزها إشارتي المرور الضوئيتين انحرفت يميناً مواصلة الطريق إلى المطعم الذي يقع ضمن سلسلة المطاعم بالشارع ومنها المطعم التركي الذي ما كادت تقترب منه حتى فاحت رائحة احتراق الشاورما، كانت وهي تعبر الطريق نفسه مرات عديدة تصدمها رائحة الدجاج التركي وطالما رغبت في التوقف في كل مرة وتناول شريحة أو اثنتين من الشاورما التركية ولكنها اكتفت مرة واحدة ولم تستسغ طعمها وبدت لها مشوهة ولا صلة لها بمطاعم الشاورما الحلبية، تعمدت السير بتمهل وهي تتنفس هواء الليل البارد المشبع ببعض الرطوبة الخفيفة وتراقب السيارات، إذ نادراً ما كان هناك مشاة الليلة، كان الطريق هادئاً في المطلق، وللحظة خيل إليها أنها ستسقط على صحن ظهرها لولا تماسكها واستعادة توازنها، لم تعتد قطع هذه المسافة برغم قصرها منتعلة حذاء الكعب العالي بالإضافة إلى وجود انبعاج بالطوب الأحمر في بنية الرصيف مع بعض الرطوبة، أضف إليه شرود نظرها على السيارات، حمدت الله أنها لم تسقط وإلا خسرت تبرجها وربما التوى كاحلها وانتهت ليلتها من دون الاحتفال المزمع

على شرفها رغم اقتناعها بأن احتفالات مايك لا تخرج عن كونها مناسبات في مناسبة، ولعله أخبر أكثر من شخص بأنها مناسبته لكنها أقلّه تمكنت من تحقيق تقدم في حياتها ولا أدل على ذلك اقترابها من الجنسية البريطانية وانتقالها للعمل بكينغستون «ألا يكفي ذلك للاحتفال؟».

دلفت المطعم من بوابته الزجاجية وكان ثمة نادل هندي هزيل البنية، أنيق يتلاءم مع المكان، ساعد على فتح الباب لها، تعلو شفتيه ابتسامة بدت مطبوعة طوال الوقت لتناسب جميع الرواد، بدا المطعم كبيراً ومستطيلاً وتوزع عدد من الأشخاص في أرجائه، راحت تتلفت بحثاً عن طاولة مايك، ظنت في البداية بأن المطعم كله محجوز له، لكنها أيقنت من حجمه بأن ثمة زاوية مخصصة لها، وقبل أن تصل إلى منتصف المكان تقدم منها أحد العاملين فيما بدا عليه مسؤول الطاقم ودلها على الزاوية بمجرد أن ذكرت اسم مايك؛ كانت الطاولة مستطيلة ومنسقة تماماً وبدا مظهر العناية المتميزة بها من خلال باقات الورد ونوعية الكؤوس مع وقوف اثنين من الطاقم خصوصاً لخدمة الطاولة وحدها «لقد كانت فكرتي المطعم الهندي» قالت في سرها وهي تمد يدها لمصافحة كل من ستيف وريتشارد وسارة وثلاثة رجال وامرأتين لم يسبق أن تعرفت إليهم، قادها ريتشارد نحو المقعد المحاذي للمقعد الرئيسي على رأس الطاولة، وأيقنت بأن مايك سيجلس على رأس الطاولة ولابد من أنه أوصى بأن تجلس إلى جانبه، وضعت حقيبة

يدها على يمين الطاولة وتابعت أحاديث الموجودين وكانت تدور في غالبيتها حول الضائقة المالية التي يمر بها المجتمع البريطاني، كانوا يشتكون من ضعف أداء حكومة ديفيد كاميرون ويربطون بين تدني الرواتب وتصاعد الضرائب، دار جدل بين الرجال الثلاثة والمرأتين بينما اكتفى ريتشارد بالاستماع فيما شارك ستيف ببضع عبارات قصيرة، راحت تتلفت حولها تتابع بنظراتها المكان، كانت هناك لوحات معلقة على الجدار لمناظر الطبيعة من الهند، وعلى جانبي المكان وضعت بعض الأباريق المزخرفة للزينة، وبينما كانت تتأمل حولها فجأة انبثقت ضجة لأعداد قادمة بين رجال ونساء يقودهم نادل نحو الطاولة، تصاعدت ضحكاتهم وثرثراتهم، وقبل أن يصلوا إلى الطاولة جرى ريتشارد لاستقبالهم، حارت بين النهوض والجلوس، إلى أن نهض الجميع ونهضت معهم تصافح القادمين، رأت أحدهم وقد خيل إليها أنها رأته في أحد المسلسلات أو الأفلام، لم تكن متأكدة، لم يكن بينهم مايك رغم بلوغ الساعة التاسعة وسبع عشرة دقيقة.

«ألا تتذكرينني؟».

رفعت رأسها، وفجأة أدركت أن من بينهم كانت نهى الزيني « كيف لم أميزها لدى الوصول؟». كانت متوترة يلفها الحرج إذ لم تتمكن من الاندماج مع الحضور ولا المشاركة في الجدل الصاخب الذي أخذ يتصاعد. في تلك اللحظة خطرت ببالها فكرة سريعة، فتحت حقيبة يدها التي وضعتها في حضنها وأخرجت مرآة صغيرة، راحت

تتأمل وجهها من دون أن يلاحظها أحد، أيقنت أنها في غاية الأناقة وشعرت بارتياح أزال عنها التوتر بعض الشيء، أعادت المرآة إلى الحقيبة ورفعت رأسها تتطلع إلى الوجوه وإذ بستيفين يبتسم لها «هل اصطادني؟».

قطع حبل أفكارها وصول مايك الباكستاني برفقة أحد نواب البرلمان البريطاني كما فهمت من الهمس الدائر بين الموجودين، بدا من مظهره أشبه ما يكون بممثل أميركي في دور من أفلام المافيا الإيطالية الأميركية، لولا ملامحه الآسيوية البارزة، لم يتغير منذ آخر مرة رأته فيها، وإن بدا لها وهو قادم أكثر بدانة، برزت شعيرات ذقنه الشقراء الخفيفة أكثر لمعاناً، ظل وجهه العريض بالتضاريس العظمية التي تكسوه صارماً دلالة على القسوة، اندفع بجثته المكتنزة ومنكبيه العريضين نحو المقعد المخصص وسط توجه الجميع لمصافحته، بدت عيناه تشعان دهاءً مع أنفه الحاد البارز كمنقار طير، جلس وإلى جانبه الأيسر النائب البريطاني، كان ضخم الجثة قصير القامة، إلا أن ملامح وجهه أبرزت وسامة أخفتها للوهلة الأولى كرشه الناتئة، ظل مبتسماً طوال الوقت إلى أن بدأ توزيع الشراب، التفت مايك نحو يسرا التي ما إن رأت وجهه نحوها حتى ابتسمت قائلة بصوت خافت خجول:

«شكراً مايك».

رد عليها بنظرة باردة لا تخلو من حنو وقال بنبرة آمرة:

«ماذا تشربين؟».

نظرت إلى ساعة معصمها بحركة تمثيلية محاولة التهرب من السؤال وقالت مصطنعة السذاجة:

«عصير أناناس».

في تلك اللحظة التفت مايك نحو امرأة تبعد مقعدين عن النائب البريطاني من الجهة المقابلة، وقد بادرته بسؤال قائلة بصوت جهوري لا يخلو من سخرية:

«هل هناك مطاعم باكستانية هنا مايك؟».

رد عليها بسريعة بديهية غير متوقعة.

«نعم.. نحن نجلس فيه الآن، لا تنسي أن الهند وباكستان كانتا دولة واحدة وستأكلين الليلة الطعام نفسه».

وسط ضحكات الحضور عاد والتفت نحو يسرا التي ظنت أنه نسيها وقال مستطرداً:

«عنيت شراباً كحولياً، هذه الليلة ليلتك لا تخذلينا».

قالت مبتسمة محاولة ألا تغضبه:

«لابد أن أصحو الرابعة فجراً، فغداً سأقدم أوراقي في أول يوم عمل «بكينغستون» هوليدي إن».

اعتدل في جلسته، وقال وهو يمسك معصم يدها بهدوء من غير تكلف:

«من هذه الناحية لا تفسدي ليلتك، فأنا سأتكفل بموضوع العمل».

قطع كلامه معها والتفت نحو ريتشارد وستيفين وسألهما بلهجة آمرة وبثقة من جوابهما.

«لدينا خيط في هذا المكان، أليس كذلك؟».

أجابا معاً.

«لدينا».

فتح يديه في الهواء إشارة تكفله بالمهمة فيما أسرعت بالقول وقد رسمت ابتسامة ناعمة توحي بالارتياح.

«ويسكي».

إذا كان من الصعب الاستمرار في الصبر على المعاناة وملاحقة الإقامة الدائمة وتقبل الفأس المسلطة على رأسها المتمثلة بالطرد من بريطانيا وتحمل تكاليف الشقة وإذلال المجتمع البريطاني برمته بمن فيهم العرب أنفسهم في نظرتهم إلى من لا يحمل الجنسية، فمن السهل تجرع كأس الويسكي مع ما ستقود إليه من تبعات، الضحكات المخنوقة الفالتة الآن منها لا تساوي مكابدة الخوف والفزع والقلق من التشرد واللجوء إلى الخيام «إلى متى سأقاوم الانحناء؟ فالانكسار أشد وطأة من الانحناء». طويلة هي الرحلة من الخيام المحاطة بالأسلاك الشائكة وزجاجات المياه الساخنة في الصيف، وصلاة الفجر الكاذبة التي لم تخرجها من خلف تلك الأسلاك، حتى المدعي الديني الذي تزوجها وحبسها في إحدى شقق البحرين لم يسعفها تحمل الجدران الأربعة والاغتصاب الشرعي الذين نالته على يديه كل ليلة وهو ينفذ

رائحته المشبعة بدهن العود السمجة، كانت تسكن الجحر الزوجي أشبه بالكلب الضال في حظيرة من الذهب «هل استحق الأمر هذا العناء؟». تجرعت الكأس تلو الكأس وأسلمت أمرها هذه الليلة للقدر ولن تخسر أكثر مما خسرته بالورقة المسمّاة بعقد النكاح الشرعي الذي وهبت فيه لشهور دامية جسدها الواهن، إثر اللجوء والتشرد والحبس في خيام اللاجئين «لا فرق بين الاثنين فأقلّه هنا ستكون لي حريتي ولو كان الثمن بيع آخر صك أملكه» كانت الضحكات والنقاشات تطغى على عقلها الذي توقف عن تسجيل الحسابات، كانت تراقب رأس مايك وهو يتحرك، يعقد الصفقات على ما يبدو مع رجل السياسة البريطاني من دون أن تزعجهما هذه الجلبة، بدا كما لو أنهما خططا لهذه الضجة كي تضيع أفكار الجميع وتتيه ليتسنى لهما إتمام الأمور على إيقاع هذه الفوضى، أصوات الشوك والصحون والكؤوس وحركة النادلين مع صوت الموسيقى الذي هدر في زاوية من المطعم جمد تفكيرها وبعث في نظراتها الحيوية، جعلتها تتابع المشهد يموج كأنه من فيلم سينمائي كثيراً ما تكرر في الأفلام القديمة التي تشاهدها من القناة المجانية.

نهضت فجأة وكادت تترنح لولا أنها أمسكت بطرف الطاولة، تناولت حقيبتها لتفاجأ بيد مايك تمسك بها.

«الحمام».

ترك يدها من دون تعليق وسحبت نفسها تمشي على إيقاع طبول

تقرع رأسها، كانت الساعة الحادية عشرة وبضع دقائق إذ لم تلاحظ عقرب الدقائق وهي تسير بخطى مستقيمة لا تخلو من تعثر بعض الشيء، وصلت إلى الحمام وكان ضيقاً وغير مريح تفوح منه رائحة صابون رخيص، تركت الحقيبة على الحافة ونظرت إلى وجهها في المرآة «يا لي من جميلة!». ابتسمت وبدأت بالتبول، وقد لاحظت لون البول المائل إلى الاصفرار، فأدركت بأن الليلة لن تمر بهدوء.

«سأوصلك بنفسي».

فاجأها مايك، ينتظرها عند واجهة الحمام من الخارج فيما انسحب بعض الحضور وبدا وكأن الحفلة أوشكت على الانتهاء، لم تر في عينيه أي لون للخداع ولكنها أيقنت من حركته تلك بأنه قرر اختطافها الليلة وسحب البساط من تحت عفتها التي بدا وكأنها توشك على نهايتها «لا فائدة من المقاومة، حان الوقت لفتح باب القلعة». همس صوتها الآخر بتلك الكلمات فيما هيأت نفسها للاستسلام، فلا فائدة من تخزين اللحم الطري وتركه يفسد قبل أن تضمن حياتها في بريطانيا، آخر معقل لها للبقاء إنساناً حياً كالبشر.

«تفضلي».

عند باب بنايتها بالتحديد توقفت سيارة الجاكوار الرصاصية، مال على الباب الآخر بجانبها وفتحه مودعاً إياها، هالها ما رأته منه، لم تتحرك من المقعد، بلعت أنفاسها ورفعت رأسها ونظرت إلى وجهه الذي بدا لها أجمل بكثير مما توقعته، كانت ملامحه باردة وبشرته

فاتحة ونظرته ساكنة، واكتشفت بأنه ليس بتلك الدرجة من الاحتيال التي تشاع عنه «لعل الويسكي القوي ماركة «جاك دناليز سيلفير» هي السبب في إطاحة رأسها وجعلها تغيب عن إدراك الأمور، لكنها عادت ورأت في عدم رغبته في مضاجعتها كما خيل إليها منذ البداية اكتشافاً جديداً محا صورته السلبية في ذهنها «هل أبدو غير مثيرة بالنسبة إليه؟». لكنها أزاحت هذا الإحساس من داخلها لدى استعادتها حجم الاهتمام الذي أبداه نحوها طوال الليلة، لم تهبط من السيارة بمجرد فتح الباب، إذا نظرت نحوه وهي مبتسمة وقد زال القلق من داخلها وتوقفت دقات قلبها عن التسارع وقالت بصوت ناعم هادئ ينم عن طمأنينة وثقة:

«لا أعرف كيف أشكرك سوى أن أستضيفك على كوب قهوة في شقتي المتواضعة إن أردت؟».

قالتها وهي تدرك مغزى هذه الدعوة رغم أنها ليست مستعدة للمضاجعة ولا تشعر بإثارة تدفعها للانزلاق في هذه الطريق وهي التي حافظت على عفتها طوال هذه السنين؛ إنه تأثير الارتياح الذي زرعه فيها اهتمامه ورغبته الحقيقية في مساعدتها وأثبت حتى الآن بأنه جاد في الوقوف معها.

«الآن؟».

قالها ضاحكاً وبصوت ينم عن المفاجأة بدعوتها؟

«الآن».

رد عليها بنبرة من الحنان رأتها واضحة في سمات وجهه الذي

انعكس عليه ضوء مصباح السيارة في الواجهة الداخلية، كانت ملامحه عفوية معلقة بابتسامة منفرجة وبرود أزال الانفعال الذي تركته دعوتها له للنزول ومرافقتها إلى الشقة.

«أنت مرهقة الآن، اتجهي مباشرة إلى الفراش ونامي ولا تشغلي بالك بدوام الغد في الفندق، أنا أعرف من سيعمل لترتيب غيابك».

طبعت قبلة سريعة على خده وهبطت منسحبة من السيارة «لم يرغب فيَّ» كان هذا انطباعها للوهلة الأولى وهي تصعد غرفتها غير راضية عن نتيجة الليلة، لم تتخيل نفسها يوماً أن تستسلم لرجل وبالتحديد مايك الذي طالما تقززت من شكله، فتأتي لحظة تعرض نفسها عليه ويصدها «لا لم يصدني، قال إني مرهقة» .

خلعت ملابسها كلها بسرعة وانفعال ووقفت أمام المرآة متوترة تتأمل جسدها البارز، شعرت بالعرق يتجمع عند إبطيها فحمدت الله أنه لم ينزل، رأت جسمها أنيقاً ومثيراً ولم تجد فيه عيباً سوى حبتي خال عند الخصر الأيسر وأثر جرح في أعلى الظهر عند الكتف لا تتذكر سببه، ربما يعود إلى أيام الطفولة وهي تتسلق أسوار الحديقة الصغيرة للجيران لقطف الورد المحمدي وهي تضعه في إناء من الماء لتشربه باعتباره ماء الورد «ما أحلاني، لم لم يرغب فيَّ؟» قفزت نحو الفراش وصممت أن تختبر جسدها في أكثر من مكان ومناسبة.

«وداعاً للعفة الشرقية، أنا اليوم يسرا البريطانية وكل شيء مباح».

****

(٥)

«كانت ولادتي وسط مناخ تشع منه رائحة النفط ودخان سعف النخيل المحروق، يتعمد الفلاحون في بساتين البصرة حرقها لينبعث منها الدخان الرصاصي، متعمدين ذلك لقتل الحشرات الضارة التي تفسد الشجر، ما زالت محفورة في ذكرياتي ولا أنساها، ولا أعرف ما ذكرني بها الليلة».

كانت مستلقية على الفراش لا ترتدي سوى قطعتي ملابس داخلية، حمالة الصدر والسروال الأزرق الفاتح الضيق، فيما كان مايك الباكستاني مستلقياً على ظهره وتفصل بينهما الوسادة الحريرية المزخرفة برسوم قطع الفستق بألوان فاقعة، كان يستمع إليها وهو يتأمل السقف وما إن انتهت من جملتها حتى التفت إليها قائلاً وهو لايزال مهتماً بالتفاصيل:

«ما مناسبة تذكرك هذه الصورة الليلة؟».

ضحك ثم استرسل بنبرة تسعى إلى التفصيل.

«ذهبتِ بعيداً في الزمن كأنك تهربين من الحاضر».

كانا في الغرفة المطلة على فناء المنزل، برزت بعض الأشجار

تتدلى من وراء النافذة الواسعة، يحتويهما السرير الخشبي المطلي بالوارنيش المصنوع كما يبدو من خشب الورد، وظهر لون الغرفة مائلاً إلى الأزرق السماوي والسجاد من القطع الفارسي المنسوج يدوياً، علقت لوحتان على الجدارين المتقابلين، إحداهما لفتاة ريفية من الريف الأوروبي وبدت أصلية وباهظة الثمن ودلت على ذوق راقٍ صعقت منه وهي تتأمل اللوحة وتستعيد فكرتها عن شخصية الرجل الذي ظنت أنه غجري ومنعدم المشاعر والذوق، اللوحة الثانية كانت لجرة تقليدية تضمنتها نقوش برتقالية اللون على الجانبين فيما توسطها شرخ عند الأعلى انبثقت منه زهرة اللوتس باللون الأحمر القاني القريب من لون الورد المحمدي السلطاني، وأسفل الجرة برزت بضع بتلات ورود حمراء صغيرة، سرحت في اللوحة وتنقلت عيناها بين كأس النبيذ الأحمر المركونة على طرف الطاولة المحاذية لطرف السرير من جهتها، وبين زهرة اللوتس على رسم الجرة في اللوحة المعلقة على الجدار، تنفست ببطء ونظرت نحو مايك قائلة:

«من أين اقتنيت هذه اللوحة، أشعر بأنها تشبهني، مشروخة وجميلة، أعني الجرة».

«أنت كذلك جميلة، لكن لا فكرة لدي عن الشرخ».

قالها وامتدت يده وأمسكت بيدها وضغط عليها برفق، كان هادئاً وبارداً ولا توحي ملامحه عن رغبة في مطارحتها من جديد، أحست أنه يبدي بعض التودد لمجرد أنه انتهى منها توّاً ولا يريد أن يلوذ بالفرار،

حفرت السنوات المنصرمة أخاديد من الشكوك والهواجس، كل شيء حولها وكل حركة وكل علاقة، خاضعة للتحليل الصارم الذي ينتهي بالشكوك « لن أعرف الحقيقة أبداً».

فوجئت به ينهض من السرير ملتفاً في الملاءة المصنوعة من قماش الوسادة المزخف نفسه اتجه نحو الحائط ونزع لوحة الجرة برفق من على الجدار ووضعها على الكنبة المحاذية للسرير، عاد إلى السرير واستلقى قائلاً من دون أن يشعرها بقيمة اللوحة مستخدماً نبرة ساكنة:

«تستحقينها ما دامت تشبهك».

كان رد فعلها الأولي الصمت المطبق، إلى أن استوعبت العبارة فاعتدلت في وضعها على السرير وردت بشيء من الاستحياء والرفض.

«لا يمكنني قبولها، فاللوحة ثمينة بالإضافة إلى أنك تقتنيها».

كانت الصدمة مباغتة لها ونسفت كل أفكارها عنه وعدم رغبته فيها « لو لم أسعده ما أهدى إلي لوحته الثمينة». أدركت لحظتها رغبتها فيه هذه المرة، فقد مارست المضاجعة معه من دون رغبة ولم تصل إلى نشوة أو حتى لذة عابرة رغم أنها أشعرته باستمتاعها، كان جسدها أشبه بكتلة لحم وضعت في البراد سنوات طويلة فتجمدت الخلايا فيها وجفت المشاعر والأحاسيس من أي تذوق للاحتكاك بأجساد أخرى، لم تمر في حياتها منذ غادرت الطفولة مروراً بالمراهقة برغبة

أو حتى مجرد شهوة لجسد رجل، وكادت تشك في غريزتها حتى تجاه جنسها، كانت الأحداث والوقائع الشنيعة التي تعرضت لها نزعت عنها الأحاسيس، وحدها اللحظة الحاضرة على ضوء الغرفة ولون النبيذ وشعاع اللوحة الزيتية حركت مشاعرها وشعرت بأن جسدها ينبثق من رماده «سأختبر هذه المرة وضعي» مدت يدها ولامست صدره المكسو بالشعر، نظرت إلى عينيه وهمست مبتسمة.

«لا أود أن أحرمك من اللوحة».

امتدت يده بدوره وانزلقت على بطنها بتلقائية، وتأمل عينيها فيما رأت هي بريقاً أزرق ينبعث من عينيه، بادلها الابتسامة قائلاً كعادته ببرود تلقائي:

«للعلم فقط حتى لا يخدعك أحد في المستقبل، اللوحة تساوي ثلاثين ألف جنيه، اعتبريها استثماراً، منذ الآن لا ترفضي شيئاً مادياً، لن تطول فترة العطاء، خذي كل ما يقدم إليك».

تصاعدت رغبتها فيه، اكتشف هو بغريزته الفطرية الثاقبة للنساء هذا التحول في نظراتها إليه، امتدت يده وسحبت كأس النبيذ من جهتها وكشف عنها القميص ثم انحنى وراح يسكب النبيذ بقطرات متلاحقة على صدرها وسرتها، ثم بدأ يلعق الشراب وسط تنفسها المتصاعد، أطبق الصمت على الغرفة قطعه مايك وهو يهمس لها.

«تدينين لي بمرة أخرى».

****

«مايك محق في كل ما يقوله، إنه فيلسوف هذا الكاريكاتير، كيف خدع الجميع بوحشيته؟».

منذ أن غادرت منزله قبل ظهيرة اليوم التالي، تحولت الأيام التالية إلى أميرة لا يكف رجاله عن السؤال عنها وتلبية طلباتها رغم تأنيها وعدم انزلاقها في المتطلبات، ظلت قانعة ومترددة وغير راغبة في شيء مكتفية بوظيفتها بالفندق الذي بدأت العمل فيه متجاهلة عرض مايك بترك وظيفة خدمة الغرف واعداً إياها بتوفير وظيفة لائقة مستغرباً نيلها شهادة الماجستير في البزنس. لم تره بعد تلك الليلة واكتفى باتصالين يطمئن إليها وأوعز إلى ريتشارد وستيفن بمتابعة أخبارها والسؤال عنها، وترك موضوع الجنسية بيد المحامية نهى الزيني التي أبلغتها بأن إجراءات القضية توشك على الانتهاء وحددت لها موعداً نهاية الأسبوع لمراجعة الوضع النهائي، ودت لو حملت مشاعرها بالارتياح لمايك لكنها تعرف مشاغله وارتباطاته الغامضة وسفراته السرية ولم تفكر لحظة باعتبار ما جرى تلك الليلة الصاخبة في منزله علاقة من نوع ما، وضعت ما جرى في خانة الليلة العابرة وقبضت ثمنها مع شعور بالامتعاض من التفكير في أن اللوحة كانت الثمن، اعتبرتها عربون صداقة ورمزاً للحظة حميمة مرت وقد لا تتكرر «أريد تكرارها» ردت بشغف في داخلها مع شعورها بتأنيب الضمير، مع الوقت تصاعدت رغبتها في لقائه وكان ذلك مثار دهشتها، شعرت بأن جسدها يتبلور من الداخل وتتفاعل فيه الشهوة للمرة الأولى، وكلما مر شريط الليلة الزرقاء

التي قضتها معه وطفت بعض التفاصيل إلى السطح زاد اشتعال الجسد، خشيت إن استسلمت لهذا الإحساس أن يطغى ويتحول إحساساً آسراً وهي التي بينها وبين القيود أياً كانت كراهية مزمنة، احتفظت بتلك المشاعر وأغلقت عليها المنافذ بالإغراق في العمل، إذ بدأت مشوارها الجديد في «كينغستون» الهوليدي إن بالعمل مشرفة مناوبة على خدمات الغرف، وبين مشوار الشقة والفندق قضت الوقت بين العمل والنوم وهواية جديدة انخرطت فيها أخيراً هي الرياضة، عن رغبة وعنفوان في استعادة حيويتها ومحاولة لاكتساب رشاقة لجسمها الذي بدأت تعتني به بعد الليلة الوحيدة الساخنة، بدأت الجري يومياً مدة ثلاثين دقيقة، تزيد وتنقص بحسب الوضع، ترتدي سروال الرياضة القطني الأدكن وجاكيتاً رصاصياً هو الوحيد الذي ابتاعته في البداية وراحت تهرول على رصيف الشارع الرئيسي المطل على النهر من بداية محطة الوقود القريبة من الفندق وحتى نهاية الشارع لتستدير وتعود، تضاءل اهتمامها بنظرات ستيف الذي دأب في انتظارها لدى نهاية دوامها في الرابعة مساءً عند ردهة الفندق الخارجية، أو عند نهاية خط العودة من الجري في السابعة وكانت حجته مراجعة بعض الأوراق معها بشأن الجنسية أو أنه مبعوث من قبل مايك للاطمئنان إليها، أحست بطيف من السعادة يطوقها تدريجاً وينزع من ذاكرتها بعض صور الماضي المحفورة في قاع الذات إبان الملاجئ والأسوار الشائكة والمجاعات والهروب عبر الحدود والتيه في قاعات الترانزيت بالمطارات «ساعدني مايك كثيراً

على نزع هذه الصور من رأسي» وحتى لا تستغرق كثيراً في التفكير في الرجل الغائب وراء الأسرار، انتزعته من رأسها وانخرطت في العمل دون التركيز على تلك الليلة الساخنة «سأعتبرها جائزة استحققتها بعد الصبر الطويل من العفة».

في فندق «كينغستون» اختلف الوضع عنه في لندن داون تاون، بدا المساء في «كينغستون» استثنائياً بعد سنوات لندن العجاف، طرأت حياة هادئة مختلفة يكتنفها الهدوء والانسياب في كل شيء بما فيه الطقس والوجوه، كانت الهوايات الجديدة قد انبثقت من الارتياح الذي سكبته المنطقة على مزاجها اليومي، الجري والعمل والسير بمحاذاة التايمز والمشي في الإجازات نحو محطة «سيربيتون» والتسوق من مارك سبنسر السوبرماركت، كل ذلك قد ضخ فيها ما يشبه الدماء الجديدة عكس ما كان عليه الوضع في لندن، كان الزحام والضجيج في منطقة مايفير بالقرب من شارع ريجنت يفزعها رغم كونها بعيدة عن الاختلاط في المستنقع البشري الهائج هناك، الخوف من الزحام قد تحول مع الوقت والقلق بشأن الإقامة إلى رهاب دائم، فقد كانت الحياة بقرب محطة مترو جرين بارك مفزعة وخصوصاً في الليل، لا تعرف كم مرة تعرضت للذل من تلك الوجوه القاطنة تلك الضواحي، هالتها الكبرياء اللندنية المصطنعة حتى لدى الحثالة، فكانت تسرع بالهروب من الفندق إلى القطار، تجري بسرعة خارقة وما تكاد تصل إلى «كينغستون» حتى تلتقط أنفاسها بعد المعاناة مع زحام الداون تاون،

حاولت في الأيام الأولى التأقلم مع الحياة الصاخبة عن طريق الخروج وقت الإجازات إلى محطة مترو جرين بارك وهي قريبة من حديقة الهايد بارك خلال الإقامة بلندن،إلا أنها وجدت نفسها قد استهلكت طاقتها، وولّد فيها ذلك كآبة وشعوراً بالانزواء عن العالم ليتحول إلى انطواء طوال السنين الأربع المنصرمة، كان العبور إلى شارع إكسفورد ومنطقة عين لندن رغم سهولته إلا أنه تحول إلى كابوس، وتحول الآن إلى ذكرى ساخرة بعد الانتقال إلى «كينغستون».

«شكراً فلين رغم بشاعتك».

****

تلقت الاتصال ذلك الصباح في الحادية عشرة وسبع وثلاثين دقيقة بالتحديد من نهى الزيني فيما كانت تقوم بمسح مرآة الحمام بالغرفة ٢١٤، نيابة عن إحدى العاملات المتغيبات، فكان ذلك إيذاناً بتحول دراماتيكي في حياتها، جاء صوت المحامية الليبية هادراً كأنه النهر ساعة الفيضان يكتسح كل ما أمامه.

«مبروك يسرا القرمزي».

لم تسمع بقية العبارات،حتى أنها بعد انتهاء المكالمة لم تستوعب بقية الكلام ولا تذكر ما طلبته منها المرأة الليبية سوى أنها خرجت من صفائح النسيان إلى فضاء الكون، سقط الجدار السميك الذي يفصلها عن الدنيا وذاب جبل الجليد الهائل الذي كان يسد رؤيتها عن الحياة، خرجت من الحمام وجلست على السرير وراحت تتأمل أرجاء

الغرفة، لم تر ما يلفت النظر في سكن النزيل سوى أعواد قطنية منثورة أسفل السرير وملوثة ببقع بنية، خمنت أنها من بقايا تنظيف الآذان أو شيء آخر لم يسعفها الفضول بالتدقيق فيه، راحت نظراتها تجول في الغرفة، وساد الصمت حولها وكادت تسمع رفيف الحشرات وتلتقط صورة الذبذبات حولها، بدا كل شيء دقيقاً وواضحاً وكأنه تحت ميكروسكوب يفضح الأشياء، دهشت من رؤيتها للأشياء بهذا الوضوح كما لو أنها كانت طوال الوقت تعاني العمى، ساد الهدوء من حولها وركزت في ما حدث للحظة، ابتسمت وتذكرت أنها موعودة بحفلة بفندق لندن بعد تركه، من قبل العاملين هناك ولم يسمح الوقت لتحديد موعدها، قررت أن تخبرهم الآن «أريد ليلة أسكر وأرقص فيها حتى أسقط من طولي». طوقها شعور جارف تجاه مايك الذي لم يبتزها كما كانت تتوقع وخيل إليها في بداية الأمر، بل بدا لها أنها هي من استغلته. نهضت من السرير وأنهت العمل في الغرفة، وقبل أن تخرج عرجت على الحقيبة التي بدت غير مقفلة، سحبت الجرار بسرعة وفتحته، كان هناك بعض المجلات الخلاعية وكعوب أحذية نسائية جديدة، وبعض علب رقاقات البطاطس «مارك سبنسر» بالإضافة إلى قطع ملابس نسائية داخلية مستخدمة، سحبت إحداها وراحت تشمها ثم وضعتها مكانها، وبحثت وراء غطاء الحقيبة من الداخل فوجدت جواز سفر كحلي اللون وتصفحته وبرز لسيدة استرالية تدعى ج. البيرت من مواليد ١٧يونيو١٩٧٩، شقراء الشعر ذات بشرة وردية ظهرت

من الصورة، وضعته مكانه ولم يلفت نظرها سوى ورقة مطوية إلى جانب الجواز وجدتها وهي تعيده إلى مكانه، فتحتها ووجدتها عبارة عن تقرير طبي مختصر من أحد المستشفيات للسيدة المذكورة يتعلق بإصابتها بالسرطان، صدمت واجتاحتها نوبة حزن عميقة خدشت حالة الارتياح التي صاحبت مكالمة نهى الزيني، تمنت في داخلها لو لم تعبث بالحقيبة، أنهت كل شيء وخرجت تستنشق الهواء.

في ردهة الفندق الخلفية، خرجت مع المدعو الين في السادسة والستين من عمره وهو مقيم دائم بالفندق، وراحت تدخن سيجارتها الثالثة في هذا اليوم.

«تبدين سعيدة اليوم».

تذكرت رائحة خشب السيجار الكوبي وهي تستنشق سيجارة الين الملفوفة، انتابتها في تلك اللحظة رغبة في تناول قرص زناكس الذي انقطعت مدة عن تناوله، أرادت الاحتفال بالحدث وفي الوقت نفسه نسيان وجه المرأة في الجواز، ظلت الصورة تلاحقها «ج. البرت، لماذا فتحت الحقيبة؟».

«نعم الين، رغم لقائي امرأة جميلة أصيبت توّاً بالسرطان».

تكور الرجل الضئيل بسرعة وقال بنبرة منقبضة:

«آسف، هكذا الحياة.. الكـــــلام يشبه النحل فيه العسل والإبر».

«صدقت الين».

نظر إليها مبتسماً وقال بصوت من يريد تغيير نبرة الكآبة:

«تعجبني ملامحك الشرقية يسرا».

كان هناك خيط يتدلى من كتف قميص الرجل، أمسكت به وقطعته بوضع طرف السيجارة عليه وسط ابتسامة الآخر.

«شكراً يسرا .. كم أنت لطيفة».

أخذت نفساً أخيراً من السيجارة ثم ألقت بها على الأرض ولم يبق منها سوى العقب، داسته بحذائها ودلفت إلى الداخل.

بحلول المساء تناولت قرص الزناكس وتجرعت بعده كأس فودكا صغيرة واستلقت على السرير بعد أن أطفأت الأنوار وراحت تبحث في القنوات المجانية، توقفت عند قناة تعرض منتجات زراعية ثم تحولت إلى قناة البرلمان، وأخيراً خفضت الصوت وأجرت اتصالاً بستيفن الذي اندلق صوته ودوداً للغاية وكأنه ينتظر الاتصال، حينما سألته عن مايك رد بنبرة فاترة بأنه في ويلز وسيعود في الصباح، وسألها إن أرادت أي شيء فأجابت وهي تختبر رد فعله.

«صدرت الجنسية».

لم تبد عليه ردة الفعل المتوقعة منها وجاء صوته باهتاً بدا منه الإرهاق.

«علمت من نهى أنك أصبحت بريطانية».

ضحكت كردة فعل عفوية وقالت بنبرة مختصرة حتى لا تطيل الحديث:

«أخيراً».

«ماذا تنوين فعله الآن؟».

عادت تضحك.

«سأبحث عن زوج».

بدأ مفعول الزناكس يسري بتسلل الخمول إلى صوتها وشعور بالاسترخاء يطبق عليها، لا تود استمرار الحديث، كل ما أرادته أن تسمع صوت مايك بعد تلقيها الخبر «أهو شوق إليها أم رغبه جسدية بعد تلك الليلة التي بدا وكأنني لن أنساها؟».

أنهت الحديث مع ستيفن، نهضت بتثاقل يشوب خطواتها واتجهت نحو لوحة الجرة الفنية فوق طاولة المطبخ وبدأت تتلمسها بيدها في رقة متناهية وكأنها جسد بشري تتحسس تضاريسه، تبدت لها اللوحة كائناً حياً ينبض بالحيوية فيما تمرر يدها عليها «ثلاثون ألف جنيه، ستحل مشاكلي كلها وتساهم في عملية تجميل وجهي وكامل جسدي». دارت الأفكار في رأسها وكلما تأملت اللوحة زاد شغفها بالرجل الغائب منذ تلك الليلة «كأنه ترك اللوحة عمداً ليأسرني بها» كلما أوغلت في التأمل زادت دقات قلبها، دهشت من أنها لم تطلب رقم هاتفه النقال، كما أنه لم يبادر بإعطائها إياه «لماذا يخفيه؟» كانت الساعة تشير إلى التاسعة ودقيقتين، عادت إلى السرير وبسرعة حاسمة أدارت رقم ريتشارد الذي جاء صوته جهورياً كالمعتاد.

«مبروك يسرا، أصبحت من رعايا الملكة، وددت أن أتصل لأهنئك غير أني لا أعرف ظروفك».

ردت عليه بود وهي تضحك.

«أشكر شعورك ريتشارد، أريد خدمة منك لو لم يكن فيها إحراج لك، رقم هاتف الرئيس».

هذه المرة الأولى التي تستخدم كلمة الرئيس التي يرددها الجميع من حولها كناية عن مايك، قالتها بسرعة واختصار كي لا تطيل المكالمة، كان رأسها مثقلاً وشعور الخمول يطبق عليها أما لسانها فكان محبوساً بالكلمات وهي تخرج كأنها حجارة تلفظها بصعوبة.

خيل إليها إثر لحظة الصمت التي سادت أن الرجل متردد في الاستجابة للطلب فما كان منها إلا أن قالت معتذرة:

« آسفة ريتشارد».

فوجئت به مباشرة قبل أن تنهي عبارتها يسألها.

«معك واتساب».

ردت بارتياح لاستجابته.

«يؤسفني لا».

رد بدوره.

«سأرسله sms».

أنهت المكالمة واستغرقت في الفراش، مع رنين الهاتف، قفزت من مكانها وخفق قلبها وشعرت بدنو المغامرة المحفوفة بالرغبة

والشغف «مايك؟»رددت الاسم وكأنها مستنكرة حدوث هذه المشاعر للرجل الذي كانت تنظر نحوه طوال الفترة المنصرمة باعتباره محتالاً وقبيحاً ومخيفاً وغير موثوق به، اتجهت نحو المطبخ وأعدت كأس الفودكا فيما كادت تتعثر وسط عتمة المكان، رجعت إلى الفراش وتجرعت نصفه «سأتهور»، قالت الكلمة وأدارت الرقم وخيل إليها تزامن رنات الهاتف مع دقات قلبها التي ازدادت مع مجيء صوت الرجل أشبه بالقطار المسرع.

«أنا يسرا مايك».

انتهى الاتصال لتجد نفسها بعد ساعات عند طرف الفراش ينظر إلى عينيها الناعستين والمفضوحتين بالشهوة التي لم تجد وسيلة لإخفائها، وقد كشف سر تلك النظرة حين قال بنبرة مخادعة:

«انتظرت اتصالك منذ آخر مرة رأيتك فيها، وقد تأخرتِ كثيراً».

تجرأت قائلة بصوت رقيق وهي تخفي محاولة الفرار من نظراته الحادة المصوبة تجاه صدرها، حيث بدا نهداها بارزين مثيرين لم يستطع أن يبعد النظر عنهما.

«كنت خائفة».

«مني؟».

هزت رأسها موافقة، نهض وغادر السرير فيما لاحقته نظراتها وهو يتناول سترته ويخرج علبة صغيرة ثم يدنو منها ويفتح العلبة ويطوق عنقها بسلسلة تحمل قطعة صغيرة برزت منها حبة ألماس ميزتها من

لمعانها البراق، انزلقت عليه من دون سابق إنذار دمعة صغيرة تسللت بهدوء وسقطت على خدها.

«لم يسبق لي أن مررت بلحظة كهذه»

مسح دمعتها وقال وهو يطوقها بذراعيه المكتنزتين اللتين يغطيهما الشعر الأسود الكثيف.

«منذ الغد أريدك مغادرة الفندق، لا يعقل أن أسمح لكِ بعد الآن بتنظيف ما يتركه الآخرون وراءهم».

ردت بسرعة.

«لا أرجوك .. اعتدت هذا العمل، أحببته لأنه رافقني خلال سنوات الجمر كلها، ولولاه لما حافظت على نفسي».

«أنت الآن مواطنة بريطانية ولك كامل الحقوق ومن حقك بوظيفة تليق بمكانتك، ألستِ خريجة أعمال؟».

«نعم».

قال بنبرة حاسمة في الوقت نفسه الذي تسللت يده تحت قميصها، فيما كانت تبتسم وهي تنظر إلى عينيه وكأنها تنتظر إلى أين تقوده أصابعه.

«إذن غيري الوظيفة من دون أن تغادري الفندق».

انتهى الحوار بينهما حين لوت بجسدها عليه وبادرته بقبلة أنهت الحديث وحل الصمت الذي قطعته أنفاس الاثنين.

****

يسرا القرمزي

(١)

ولادته انبثقت من صيف قيض له أن يكون أشبه بيوم القيامة، امتلأت السماء بالغيوم السوداء وغطت الأرض رطوبة نزقة اختلطت فيها الروائح الكريهة للأجساد المحشورة في رقعة ضيقة من الأرض بمحاذاة الحدود الباكستانية الهندية، كانت ولادته تحت اسم «سميع الله الرحمن»، لُف في أوراق بلاستيك لمنع لسعات الحشرات من تلويث جسده الطري حتى تتم مغادرة المنطقة الحدودية المشبعة بالدخان ورذاذ الغازات المنبعثة من المخازن والمصانع الرثة الموجودة في منازل بعض الأسر التي تعمل في المواد الأولية البدائية، كدبغ الجلود والصباغة وتجفيف روث الحيوانات لإنتاج السماد الزراعي.

«ماذا حدث لسميع حتى ينقلب إلى مايك؟».

عندما سألته يسرا ذلك في إحدى المرات التي صادف وفضفض لها عن طفولته، أجابها باقتضاب كعادته حين لا يريد التوغل في حديث ما لا يرغب فيه.

«الخوف من البقاء في المكان نفسه، ورغبة في الإفلات من المجهول».

شعرت حينها أنه يتكلم عنها، ردت عليه وقد انبثق الماضي، الموغل في الرمادية المزحوم بالصور والمشاهد التي تذكرها بأن العالم ينهار من حولها.

«كأنك عشت في الزبير أيام القصف الأميركي المجنون».

ذكرته عبارتها بليالٍ طويلة متكررة، حالكة السواد والعتمة، كانت تشتعل فيها الحرائق في أماكن مختلفة قريبة منهم ولايزال طعم الطفولة يتذوقه من خلالها، تعج الأجواء بطلقات الرصاص، وضجيج المطاردات التي لا تُعرف لها أسباب، صراخ الأطفال من حوله لا يفزعه كما هي حال الأطفال الآخرين، يكتفي بالتكور في الفراش العتيق الذي تعيث به البراغيث والحشرات، فيصحو في النهار ليجد جسده ملطخاً ببقع الدماء.

«كنت طريداً في الليل ومطارداً في النهار، أطارد الكلاب الصغيرة الضالة».

«ولماذا تطارد الكلاب؟».

تسبر غوره بالأسئلة لتصل إلى مضمون الرجل الذي كانت في البداية تكن له الكراهية وحتى الاشمئزاز، تبحث عن خلفيته بالتنقيب في ماضيه وكانت الأسئلة التي تطرحها عليه من وقت إلى آخر المغزى منها الوصول إلى أعماقه الدفينة، كانت مولعة بالتنقيب في دهاليز حياته

الغامضة وكلما أتيحت لها الفرصة للسؤال والتقصي تجري وراءه من دون أن يشعر أو يتململ، فقد كانت من الذكاء بأن تختار اللحظات الحميمة التي ينساب فيها الحديث بينهما بدون تكلف.

«كنت أحب الكلاب، وأشعر بأني أسيطر على الكون من خلالها».

تعلم حمل السلاح وهو في سن الثانية عشرة عندما جمع أحد شيوخ القرية مجموعة من الأطفال كعادة شيوخ المناطق الحدودية حينما يحشدون المسلحين على هيئة ميلشيات يدافعون بها عن مصالحهم الصغيرة، وحالما تنمو تلك المجموعات المسلحة، ينضم بعضها إلى التنظيمات السياسية الدينية المسلحة كالقاعدة والأحزاب الباكستانية والأفغانية، وبعضها ينضوي إلى مظلة تجار المخدرات والتهريب، كانت طفولته متوحشة تميل إلى الانتقام من الغرباء.. غادر مرحلة الشعور بالرغبة في مطاردة الكلاب لمطاردة البشر في سن الثالثة عشرة، شعر بأنه رجل مكتمل الرجولة يتفوق على بقية الأطفال من خلال البندقية الآلية التي كان يحملها على كتفه ويجني من خلالها بضع روبيات سرعان ما يصرفها على الحشيشة والسجائر، لم يتعرف إلى المشروبات الكحولية إلا وهو في سنّ التاسعة عشرة بالرغم من قيامه مرات عديدة بإمرار وتهريب صناديق الويسكي التي كانت تأتي عبر الحدود الهندية والأفغانية، لايزال يذكر الأيام التي احتجز فيها لدى «الملا محبس الله عفير» الذي اعتبره رهينة لديه حتى يتسلم شخصاً آخر كانت تحتجزه مجموعة أفغانية متاجرة بالحشيش، واستغرب هذا

الاحتجاز لأنه لم يكن ينتمي إلى تلك المجموعة التي كان يطالب بها الملا عفير، وحين طالت المدة من دون رد فعل من أحد أو سؤال من طرف ما، عرض عليه الآخر الانخراط في مليشيا الملا التي تدعم طلبة المدارس الدينية التي تشكل بدورها وقوداً بشرياً للقاعدة في المنطقة الحدودية المتاخمة لأفغانستان.

«كانت المرة الأولى التي أسمع فيها بالقاعدة».

صرخت وهي تقول بصوت متشنج مع ابتسامة عالقة على وجهها من دون أن تخفي صدمتها.

«اقتربت من القاعدة؟».

عندما انتبه إلى المدى الذي جرته إليه بحديثها عن الماضي نزع عن وجهه قناع الانسجام معها وطفق يحول الحديث تجاهها مرتدياً قناع الغموض والبرود في المشاعر الذي يلفه منذ معرفتها به، قفز بالكلام من خلال السؤال الذي فاجأها به.

«متى تتركين الفندق؟».

****

اخترق شعاع الصباح ستارة غرفتها من دون أن يكون هناك ضوء، بدا شهر أغسطس ساخناً والشمس حارقة في النهار، وارتدى غالبية الناس في الشوارع السراويل القصيرة والقمصان المفتوحة، كانت تهم بالخروج للذهاب إلى الفندق حينما جاءها صوت طرقات الباب فأيقظها من النعاس الذي كان لايزال عالقاً، دهشت من الطرق في هذا

الوقت المبكر واتجهت قلقة نحو الباب. وقبل أن تصل، جاءها صوت ريتشارد معلناً حضوره، عدلت عن التوجه نحو الباب، تناولت حقيبة يدها وعادت مرة أخرى نحو الباب متسائلة بصوت ضاحك قبل أن تفتحه.

«ريتشارد؟».

بادرها بابتسامة خبيثة لم تفهم منها ما يخفيه رغم محاولته التملص من النظر إلى عينيها، كان يرتدي قميصاً وردياً مخططاً باللون نفسه، ولكن بدرجة أغمق، وسروالاً قصيراً ذا فتحات عديدة في الجوانب برزت مشحونة كما يبدو بالهواتف والسجائر والولاعات وغيرها من الأشياء التي اعتاد الرجل جمعها بالاثنين دائماً ربما من باب الاحتياط لو طلب منه أحد شيئاً وخصوصاً مايك الذي كثيراً ما صادف أن نسي شيئاً من لوازمه في مكان ما، هبطت معه إلى الشارع وسألته وهي تهم بالسير نحو الفندق وسط ضوء الشمس الحاد الذي ميز هذا النهار، أوقفها وهو يمسك معصمها لأول مرة، فوجئت مستغربة أن تصدر مثل هذه الحركة منه وهو البارد المشاعر والمحافظ دائماً، بوضعه حدوداً للعلاقات مع من حوله.

«خذي».

سلمها مفتاحاً صغيراً، بالتزامن مع حركة من يده تشير إلى سيارة صغيرة حمراء من نوع «مازدا» متوقفة عند زاوية الرصيف المقابلة لباحة إحدى الحانات الصغيرة قرب محطة البترول، تبادل الاثنان

النظرات والابتسامات التي بدت للوهلة الأولى غامضة، قطعها صوته يقول ضاحكاً وباحثاً عن رد فعل من جانبها:

«كل الأوراق والوثائق بداخلها».

كانت ردة فعلها الأولى وسط علامات التعجب والدهشة، كلمة أطلقتها مع ضحكة مجلجلة لم تضحكها من قبل.

«مجنون».

تركت السيارة مكانها وهرعت مسرعة تجاه الفندق وهو يجري خلفها مستغرباً، يحاول فهم تصرفها الذي بدا له أخرق، كانت تجري وأنفاسها تتصاعد، التفتت نحوه قائلة والابتسامة لاتزال عالقة بشفتيها.

«لا أستطيع قيادتها».

ثم استطردت وهي تسير.

«ريتشارد.. بهرتني السيارة وبمجرد أن أتملص من الفندق سأعود إليها وأقطع شوارع «كينغستون» كلها، لو معي رخصة قيادة».

« ماذا تجنين من وظيفة وضيعة ومعك الرئيس؟ آسف، لكن هذه الحقيقة».

كادت تصل إلى موقف الفندق الأمامي، كانت هناك سيدة عجوز مستندة إلى الحائط الزجاجي من واجهة المدخل، تدخن سيجارتها، وفي اللحظة نفسها وصلت سيارة ميني باص توقفت وخرج منها عدد من الأفراد من نساء ورجال يبدو عليهم أنهم من السياح الأجانب ميزت لهجتهم الإيطالية، كانت الساعة قد اقتربت من السابعة والطقس مازال

رطباً واستغربت وصول سياح في هذا الوقت المبكر، توقفت والتفتت نحو ريتشارد الذي توقف بدوره وراح يلتقط أنفاسه وقد أدرك أنها على وشك الدخول، قال متسائلاً بنبرة ساخرة.

«متى ستقودين السيارة؟».

نظرت إلى عينيه مع ضحكة صغيرة مرافقة.

«لن أسامحك؟».

ولجت الفندق تاركةً الرجل وسط حيرة، دفعته ليخرج سيجارة لف جاهزة من جيبه أشعلها ثم أخرج هاتفاً نقالاً من جيب سرواله القصير وأدار الرقم، جاءه صوت ستيفن من الطرف الآخر.

«لا تعرف القيادة، هل تصدق؟ أبلغ الرئيس، ليس الآن، بعد الساعة العاشرة».

****

توجت صباحها الناعس والمثقل بالأفكار المتشعبة بالانخراط في العمل، الذي بدأته بجلسة مع بول المسؤول عن خدمات الغرف لتتعرف معه إلى المهمة الجديدة التي لا تختلف عن سابقتها في لندن داون تاون إلا في مستوى الغرف والإشراف من وقت إلى آخر على أداء بعض العاملين المبتدئين وهو ما يؤهلها للارتقاء بوظيفتها لمشرفة على القسم، أو بالنقل إلى إدارة أخرى. عندما استقبلها بول في زاويته بالفندق أول ما بادرها به السؤال عن وضعها في العمل، وإذا ما كان هناك فرق بين لندن و«كينغستون» لم تجب للوهلة الأولى، فقد ظنت

في ذلك فخاً نصبه لها كعادة الإنكليز في اختبار المرء، خصوصاً إذا ما كان من أصول شرقية، تدرك بخبرتها معهم طوال هذه السنوات مدى المكر الذي يتميزون به، لذلك تأنت في الإجابة واختارت كلماتها وهي تقول مبتسمة:

«الفرق في القرب من موقع سكني».

«هذا صحيح».

بعدها عرض عليها إن كانت تفضل العمل وحدها في تنظيف الغرف أو تكون معها عاملة أخرى مساعدة، فأخبرته بأنها تفضل العمل وحدها إذا لم يكن لديه مانع، فوجئت بأنها ستستمر في تنظيف الغرف رغم تغيير تسميتها إلى مساعدة، انتهت من جلستها، اتجهت إلى الغرفة ٢٥٤ في الجناح الثاني وبدأت يومها بنظرة سريعة مسحت من خلالها المكان، تأملت في البداية عدد كعوب الأحذية النسائية المركونة في زاوية قرب دولاب الملابس المحاذي لطرف الحمام، ثم لفتَ انتباهها صندوق رصاصي لأدوات الماكياج مفتوح وقد احتوى على الكثير من العلب الصغيرة والزجاجات والفراشي وغيرها، وبدا من هيئته باهظ الثمن، استغربت وجود الأدوات الثمينة فيما تسكن بغرفة مفردة، كانت الغرفة صغيرة وضيقة ولا تتسع لكل الحقائب والأدوات والملابس المنتشرة في أرجاء المكان «لا أظن أن فنانة ستقيم بهذه الغرفة الضيقة إلا إذا كانت مبتدئة أو تريد التخفي»، وجاء ردها على نفسها بهذه العبارة الساخرة «ربما تكون راقصة تعرٍ» أثارتها نوعية سراويلها الداخلية

الضيقة والشفافة للغاية، تأملتها بنظرة حائرة، بعضها في حقيبة مفتوحة داخل الدولاب وبعضها جمعته في كيس خاص بغسيل الملابس تركته فوق رف الدولاب قرب الملابس المعلقة، استلت سروالاً بنفسجياً من الكيس وراحت تشتمه، زفرت بتنهيدة كمن صدمت من الرائحة التي فاجأتها وألقت به في الكيس ثم خلعت القفاز البلاستيكي من يدها واستبدلته بقفاز آخر، نظرت إلى الساعة وبدأت بعدها العمل بإيقاع أسرع.

في اليوم التالي قصدت الغرفة ٢٥٤ نفسها يحدوها شعور مماثل للشعور الذي سبق ومرت به عندما صادفت سعاد البشراوي، التي لاتزال تذكر هيئتها، وبالتحديد اللحظة التي سحبتها داخل الغرفة وهي بالبيجامة الصفراء المخططة بالأسود وقد كشفت عن جسدها الناضج المتناسق الذي ينضح أنوثة، ومؤخرتها المكتنزة وقد أحست يومها بشعور غامض نحوها، الرائحة نفسها، وكذلك الأجواء وطريقة التخفي في الفنادق الصغيرة، رغم ما يبدو عليها من الثراء الفاحش والغموض «هي تطاردني ولا شك» قالت في سرها بعدما أغلقت عليها الغرفة من الداخل وراحت بسرعة تتقصى كل ما حولها، المرأة في هذه الغرفة اليوم لها الرائحة نفسها، وعطرها يبدو نفسه، إلا أن ثمة رائحة غريبة في ملابسها الداخلية تنم عن عدم اهتمام بنظافتها الداخلية مما يعني أنها غير معنية بمضاجعة أحد، وغير مبالية بعنايتها الداخلية رغم مظهرها

الخارجي وملابسها وأكسسواراتها وأحذيتها الباهظة الثمن «ماذا تفعل هذه السيدة هنا في كينغستون؟». بدأت بتفحص المكان وراعها شعور مدمر اخترق أعماقها ودق ما يشبه جرس الإنذار مما يجري حولها، لا يمكن أن تكون هي سعاد نفسها، وإن حدث وكانت هي فلابد من تفسير قوي، هي لا تؤمن بالصدف ولا بالمعجزات ولا بالخوارق، علمتها الحياة الدامية الشاقة أن وراء كل حركة وفعل وواقعة سبباً قوياً، تنازعها شعور مزودج، أحدهما يقول ابتعدي عن النار بعد أن فتحت لك الدنيا ذراعيها مع مايك الباكستاني، والثاني يدفعها للتوغل وراء المرأة إن كانت هي نفسها سعاد البشراوي، بدافع الفضول الذي تبحث من خلاله عن تفسير ملاحقة المرأة لها، إن كان صدفة أو عمداً «من تطارد من؟». سألت نفسها وهي تعبث بالمكان «لماذا لا أكون أنا من يطاردها ويتجسس عليها؟ أنا من تطفلت عليها وعبثت بمحتويات غرفتها». لم تكتشف جديداً في الغرفة، احتارت وقد حاصرها الوقت ولم تنته من ترتيب المكان، هل تتعمد التأخير ربما يحالفها الحظ بمجيء المرأة؟ من هي سعاد البشراوي؟ «هل اطلع مايك؟». واصلت العمل في الغرفة وتسللت يدها في الغطاء الداخلي الخلفي من الحقيبة واستخرجت كيساً بلاستيكياً وتطلعت إليه، لم تفهم محتواه وأعادته إلى مكانه، حتى الآن لم تجد شيئاً يوحي بأنها هي سوى رائحة المكان. أنهت العمل وخرجت تدفع عربة التنظيف، تنفست الهواء في ردهة

الجناح الداخلية قرب المصعد وتذكرت أن هناك سيارة جديدة ملكها تنتظرها في الخارج، أول ما خطر ببالها التدرب على القيادة، لا تعرف قوانين التدريب واستخراج الرخص «لن أعاني بوجود مايك»، كانت هذه عبارتها المتكررة كلما واجهت موقفاً صعباً أو تعرضت لتحدٍ من تحديات الحياة التي ظلت تواجهها وحدها فيما سبق.

****

حل شهر سبتمبر، فاحت رائحة الزهور، تناغمت الأشياء وساد الانسجام الكون، رأت الطقس مختلفاً ونسمات الهواء القارسة تلفح وجهها الجديد الخارج توّاً من فرن التجميل، قضت الشهرين الماضيين بين عيادات التجميل بأمر من مايك الذي وعد بإصلاح ما أفسدته السنون المنصرمة التي انتزعت من شكلها وبشرتها نضارتها قبل الأوان، تخلت عن ترددها بدافع كسب إعجابه ورأت أن الحياة ابتسمت لها أخيراً وأوقعت الرجل الباكستاني في حبالها رغم أن بحراً من النساء من مختلف الأجناس والألوان والأشكال تحيط به «لكنه اختارني من بينهن، ماذا أملك؟». لم تتردد في قضاء الساعات والأيام بالعيادات التجميلية محاولة سباق الزمن بتعويض ما فات، لم تجر عمليات جراحية، فقد كانت بشرتها مشدودة وبحاجة فقط إلى التنظيف، رفعت حاجبيها وأجرت بعض التغيير الطفيف أسفل شفتيها وأزالت البقع والبثور الصغيرة المنتشرة على صفحة وجهها بسبب

نقص التغذية والفيتامينات طوال سنوات الجمر والمجاعة والعمل المتواصل في خدمة الغرف، لمَّعت يديها وأزيل السواد عن أصابع يديها الذي خلفته أعمال تنظيف الحمامات وشطفها، رغم لبسها القفازات الجلدية، غير أن رطوبة القفاز من الداخل واحتكاك البشرة بالمواد الصناعية ترك تأثيره في بشرة الأصابع، لاحظ الجميع التغيير التدريجي الذي يطرأ عليها يوماً بعد يوم وزادت الشكوك من حولها بوجود سبب وراء ذلك وممول لهذه العلاجات المكلفة، كانت تظهر من وقت إلى آخر وقد تغير شيء فيها من غير مبالغة، إلى أن تبلورت صورتها النهائية لتبدو امرأة فاتنة لفتت انتباه كل من حولها، تبدلت معاملة الجميع لها، فأخذ بعضهم من الرجال في الفندق يلقي بشباكه حولها، وفي الوقت نفسه بدأ اهتمام مايك يتضاعف وظهرت على السطح بوادر وقائع غامضة راحت تتداعى من غير تفسير كظهور شبح سعاد البشراوي يحوم حولها في أكثر من مناسبة، كادت تفتح الموضوع مع مايك لكنها فضلت التكتم حتى لا تثير زوبعة من حولها، فهي تعرف الرجل وخيوطه المتشابكة واتصالاته، ومن شأن ذلك أن يفتح أبواباً مغلقة قد لا تغلق مرة أخرى، كانت تحرص على الركون للهدوء وعدم الخوض في مغامرات وتحرص على عدم الزج بنفسها في مواقف قد تكون لها ردات فعل عكسية وهي بالكاد استقرت في «كينغستون».

عرض عليها مايك ترك الشقة الصغيرة والسكن في «جيسنتين»

لكنها آثرت شقتها الصغيرة المتواضعة بالقرب من الفندق لشعورها بالانتماء إلى الجدران الأربعة الضيقة، بعد اليأس منها في البداية وإثر الشعور بالكآبة التي رافقتها في أيامها الأولى، إلا أنها بدأت تعتادها وتنسجم مع ما تشكله لها من عالم آمن تهدأ فيه من توترها اليومي المزمن، انتهى بها المطاف بين شقة «كينغستون» التي تولى دفع إيجارها مايك رغم إلحاحه المستمر في الانتقال إلى «جيسنتين» سعياً لتكون بقربه، وسعت هي من غير أن تشعره بتجنب الاحتكاك اليومي معه. ظلت تعمل في الفندق إلى أن تحقق لها الانتقال إلى دائرة الحسابات تاركة تنظيف الغرف إلى أن جاء يوم كانت فيه تقف في ردهة الفندق الخارجية تدخن سيجارها وترشف كوب القهوة السوداء الذي كانت ممسكة به لتدفئ يدها من البرد إثر سقوط رذاذ المطر وهبوب رياح شمالية باردة، أحست بيد خفيفة تمتد من ورائها وتلامس كتفها برقة ناعمة، التفتت خلفها فيما دخان السيجارة يتصاعد من فمها فإذا بسعاد البشراوي تقف أمامها مبتسمة وقد فاح عطرها المميز الذي يذكرها برائحة الغرفة لأول مرة بفندق لندن داون تاون، كانت زخات المطر على الأرض، والسماء من فوق حبلى بالغيوم السوداء، وثمة رجل يعبر على دراجته من أمامها يقطع الشارع بملابسه الرياضية غير عابئ برذاذ المطر، وقفت المرأة الغامضة تبتسم وهي مرتدية جاكيت أسود باهظ الثمن وبدا وجهها كممثلة هوليوودية بما احتواه من كريم أساس وروج أحمر غامق وأهداب سوداء مع شعر بني منساب على

كتفيها، وعينين عسليتين وخدين أحمرين متوردين، خرجت الكلمات بطيئة ناعمة وهي تقول بنبرة حانية:

«وجدتك أيتها الهاربة».

نظرت يسرا إلى يديها اللتين تحملان كوب القهوة والسيجارة، ومدت يدها تصافح المرأة المختالة بطبيعتها، لم تسعفها الكلمات لتنطق في تلك اللحظة، فبادرتها البشراوي مسترسلة.

«هذه المرة لن تفلتي مني».

****

(٢)

رمقها بنظرة وهو يعد لها السيجارة باحثاً عن كلمات يرد بها على تساؤلها حول شخصية سعاد البشراوي، لمحت في عينيه بريقاً خافتاً يوحي بغموض مستور، استبق الإجابة بسيجارة حشيشة أشعلها لها وقدمها تعلو ثغره ابتسامه ماكرة على عادته عندما ينوي المناورة، كانت المرة الثالثة خلال هذا الأسبوع التي تتعاطى فيها الحشيشة، ترددت في المرة الأولى ولكنها انخرطت فيها في المرة الثانية وتقبلتها أخيراً.

«استفيدي من المرأة».

خُيل إليها بأنه يعرفها، تحسست من طرح الأسئلة، اطمأنت إلى أنها غير متورطة في شيء وتقبلت رده ببرود ما دفعه لاستئناف الحديث حولها قائلاً وهو يرمقها تنفث دخان الحشيشة.

«ربما كانت تراقبك منذ فترة».

«هذا ما بدا لي، بل أشعر أنها تلاحقني».

مالت عليه وعضت طرف أذنه اليمنى، سحب بقية الحشيشة من يدها ووضعها في المطفأة ومال عليها وهما فوق الكنبة، قبلها ونهض

متجهاً نحو الحمام بعد أن خفف إضاءة الغرفة وقال وهو يدخل الحمام من دون أن يغلق بابه:

«غيري من حياتك بسرعة».

كانت تشعر بدوار في رأسها يصاحبه شعور بالاسترخاء ورغبة تجتاح جسدها أشبه ما تكون بفورة شبق، لكنها تماسكت في الإفصاح عنها واكتفت بالتظاهر بالتثاؤب عند خروجه من الحمام.

«يثيرني جسدها».

سألها متجاهلاً ما عنته.

«ماذا؟».

«سعاد البشراوي».

انفجر ضاحكاً وقد وقف في مكانه بالقرب من الباب المؤدي إلى خارج الغرفة ثم توجه نحوها وأمسك بيدها وتطلع إلى وجهها.

«لا تذكري ذلك مرة أخرى وإلا شككت فيك».

خلال الأيام التالية، اختفت البشراوي من الفندق، ولكنها فاجأتها ذات مساء وهي تتسوق «بماركس سبنسر» سوبرماركت، تقف خلفها والابتسامة الماكرة تعلو ثغرها، نظرت إلى عينيها مباشرة، لم تكن تتسوق بل صدمتها قائلة:

«تبعتك هنا حتى نكون بعيدين عن العيون، ما رأيك الليلة نتناول العشاء معاً ونتعارف؟».

«ماذا عنت بعيدين عن العيون؟»، لم تعد قلقة حيالها كما في

السابق، لم تشعر بالخوف من سلوكها، بل شعرت بأن ثمة خيطاً يربط بينها وبين مايك الذي هو بدوره غريب الأطوار، يقينها بأن الرجل يحميها من أي زلة نفض عنها القلق، كانت تتوق للتعرف إلى خبايا المرأة السعودية ذات المظهر الأوروبي لتسبر غورها وتقتحم عالمها الذي يبدو مزيجاً من النفوذ والثراء والغموض، كانت قد قررت منذ سلمت أمرها للباكستاني بأنها غادرت جحر الخوف والعزلة وخاضت مغامرة التعرف إلى العالم الخلفي للثراء والنفوذ، اللذين من وجهة نظرها يمثلان صمامي الأمان في هذا الكون «سأنفذ إلى ما وراء المظهر وأغوص في قاع العالم السري الذي كنت أراه من الخارج مظلماً ولكنه من الداخل فردوس».

«لم لا، لكني أعمل طوال الوقت».

قالت ذلك دون توجس وبصورة من تبدو غير مكترثة للقاء، لا تريد أن تبدو صغيرة أمامها، فمنذ أن انزلقت في عالم مايك لم تر في نفسها أصغر من الآخرين «كفاني سنوات المرارة والذل».

«أي يوم إجازتك من العمل؟».

سألتها كما لو هناك خطة مفصلة للقائها، كانت تبدو في إيجازها الحديث أنها في عجلة من أمرها، حتى ابتساماتها المتكررة مع الكلام تبدو سريعة الإيقاع، أطلعتها يسرا بأنها ما بعد الغد وتصادف السبت، أعطتها ورقة تحمل رقم هاتفها النقال وقالت وهي تهم بالابتعاد عنها:

«انتظري الساعة العاشرة مساءً باللوبي في الفندق».

تساءلت في سرها «لماذا هذا الوقت المتأخر»، تنفست وهي تلتفت حولها، رأت الوجوه من حولها في السوبرماركت ورسمت لنفسها شكلاً تخيلته باعتبارها مواطنة بريطانية، لم تتسلم الجواز بعد ولكنها حصلت على وثيقة الإصدار التي تخولها تسلم الجواز «أستطيع الآن أن أكون مع سعاد أو غيرها من دون خوف»، وقفت أمام المحاسبة وهي فتاة أفريقية سوداء تدفع مشترياتها التي تضمنت شريحة سندوتش تركي وعلبتي نبيذ إحداهما بيضاء والأخرى حمراء مع علبتي حليب واحدة صويا والأخرى عادية، مع تفاحتين وثلاث برتقالات وعلبة علكة، أنهت حسابها وخرجت تحمل مشترياتها في كيسين، بدا الهواء المسائي منعشاً مصحوباً ببرودة تسري في الجسد، جرت في خطواتها وقد اختلطت بالمشاة تتطلع إلى وجوههم لترى مدى اختلافهم عنها، شعرت بالوحدة وهي تسير ولكنها استبدلت شعورها من التفكير في سعاد البشراوي إلى التفكير في استثمار علاقتها بمايك للخروج نهائياً من دائرة الفقر والضياع.. تذكرت أنها تملك لوحة فنية تقدر بثلاثين ألف جنيه وهي ضمانة مستقبلية، مع سيارة جديدة صغيرة حتى الآن لا تستطيع قيادتها «أريد أكثر من ذلك بكثير». كانت ترى نفسها وقد خسرت كل شيء عبر السنوات المنصرمة وخرجت إلى العالم من دون أسرة ولا رصيد، لا وطن ولا أصدقاء طفولة أو دراسة، لا منزل ولا جيران، لا علاقة عاطفية ولا أشخاص من الماضي، كل ما تملك وظيفة حقيرة تنظف من خلالها قذارة الآخرين التي يخلفونها في غرفهم،

ظلت الأفكار تسابقها وهي تسير يلفحها هواء المساء الذي ازداد برودة لدى مواجهتها الشارع الرئيسي المطل على حافة نهر التايمز، بلغت الفندق، التفتت نحوه وشعرت بالرتابة وتذكرت الوجوه التي خالطتها بداخله واكتفت بابتسامة تنفست من خلالها الشعور بالوحدة، رغبت في مجيء موعدها بسرعة مع البشراوي لتنتهي من حالة الغموض التي تلف العلاقة الغريبة بها.

****

(٣)

فُتح الباب، ولجت القاعة يتقدمها السائق المغربي مصطفى وقد عرفت اسمه من خلال تبادلها الحديث القصير معه خلال الطريق، تقدم منها عبر بهو البناية الواقعة شرقي الشارع الرئيسي من محطة «سيربتون» عند نهاية المنعطف المحاذي لسلسلة المحال التجارية، فتح المصعد وسمح لها بالدخول ثم فوجئت به يضغط الرقم ٤ ويتركها وحدها تصعد، كانت هذه إشارة إلى استمرار الغموض الملازم للمرأة السعودية. عند توقف المصعد فُتح الباب وإذ بسعاد البشراوي تقف أمامها مبتسمة وتبادرها.

«الحمد الله على السلامة».

كانت ترتدي قميصاً أزرق وفوقه سترة سوداء، مع تنورة في الأسفل على غير عادتها، لم تكن في بهرجتها المعتادة، لم تضع أي بودرة أساس واكتفت بحمرة خفيفة على شفتيها، وبدا كما لو كانت خارجة توّاً من الحمام، قادتها من يدها بخفة وحنان متعمدة منحها شعوراً بالطمأنينة إلى ثاني شقة في الممر الذي بدا واسعاً، كانت

الأرضية مكسوة بالبورسلين الناعم بلون البيج الفاتح، أحست من خلاله بالحذر في الخطى وهي تنتعل حذاء الكعب. حين دلفت الصالة الواسعة، ظهر المشهد غريباً، لا علاقة له بشخصية المرأة الفاتنة المتحررة، كان لون الجدران زيتياً مائلاً إلى الرمادي والكنبات والمقاعد كلاسيك باللون البني، لفتت انتباهها لوحات بعضها لآيات قرآنية كتبت بخطوط مزخرفة، وهناك لوحتان للكعبة وأخرى لجمل في الصحراء. لم يكن هناك تلفاز ولا أي من الأجهزة المعتادة باستثناء جهاز كمبيوتر على مكتب بالقرب من نافذة أسدلت عليها ستارة رمادية قاتمة اللون، نُقشت عليها رسوم لطيور حمام سوداء، تأملت تلك الستارة برهة وسرحت وراء البحار وحطت عند الشفق المسائي بمحيط الزبير إثر الحرب الأميركية على العراق. كانت طيور الحمام تندفع بسرعة قصوى لتصطدم بنوافذ المنازل والسيارات، لتسقط سكرى من شدة السموم والغازات التي خلفتها ليالي القصف العنيفة بالطائرات المحلقة طوال اليوم، محطمة كل ما تحلق فوقه. كانت تلك الغازات والأدخنة المنبعثة من حقول الغاز التي تغطي الأفق وتحجب الغيوم، قد خلفت وراءها آلاف الطيور النافقة، تذكرت تلك الحمامة كم كانت مرعوبة من دوي صدمتها بنافذة غرفتها، أفزعتها وهي تسقط خلف جدار المنزل، كانت بيضاء ولكنها تحولت إلى قطعة ملطخة بالزيت والدخان الأسود، وعندما نزلت تتفحصها وجدتها ترقص مختنقة لا

تكاد تتنفس، ودت لو تجهز عليها لتنهي عذابها ولكنها تجمدت في مكانها مكتفية بتأملها حتى لفظت أنفاسها، أفاقت من تأملها للستارة على صوت من الغرفة الداخلية لعبد الباسط عبد الصمد يتلو سورة الحشر، مع خطوات البشراوي قادمة تحمل صينية عليها كأسا عصير «بلو بيري» مع صحن صغير يحتوي قطع بسكويت مستطيلة، جاءها صوتها قبل أن تجلس مبتسمة.

«حيا الله يسرا البريطانية».

فاجأتها بلفظ يسرا البريطانية الذي كان محصوراً في دائرة ضيقة بفندق الهوليدي إن بلندن، أثار فيها ذلك الفضول من جديد حول المرأة التي جاءت بها إلى هذه البناية، التي لا تبدو على هيئة سكن ولا مكاتب أو مقر لمؤسسة، تجاوزت تلك الأسئلة الداخلية واكتفت بالقول من خلال نبرة مقتضبة:

«لماذا التكليف؟».

جلست قبالتها على كنبة مفردة وقد أخرجت علبة سجائرها وسحبت واحدة ومدت العلبة إلى يسرا التي استلت هي الأخرى واحدة قائلة:

«كنت ترصدينني، هل أنا محقة؟».

لفت انتباهها المكان برمته، لا علاقة لها بشخصية المرأة القابعة أمامها، فالصورة ما زالت مبهمة بل ازدادت غموضاً ببروز مسحة دينية

على المكان، قارنت بين آثار الغرف التي كانت تسكنها بالفندقين سواء بفندق لندن داون تاون أو بكينغستون، جميع الدلائل كانت تشير إلى تحررها، بل كانت هناك آثار قد تركتها وراءها تشير إلى تناولها الكحول فيما هنا صوت تسجيل لقرآن يتلوه جهاز التسجيل بالإضافة إلى طابع المكان الذي لا يدل على طبيعتها المتحررة، تقبلت الغموض بشكوك في محاولة لسبر غورها ولكن الأخرى قطعت عليها أفكارها وهي تبادرها بنبرة لا تخلو من الذكاء الممزوج بالمكر.

«أنت من الزبير وأنا من الزبير، أنت عراقية وأنا سعودية، أنت فقيرة معدمة وأنا كذلك حتى التقيت الأخوة الزبيريين، أنت عانيت التهميش وأنا كذلك وكان مقدراً لنا أن نلتقي بهذه الصورة».

«ما دخل الزبير في هذا كله؟» أول ما خطر على بالها وهي تنظر نحوها وتبحث عن جواب في ملامحها وعن سمات تدل على خيط يربط بين المرأة أمامها وبين الزبير وحلب ودبي والبحرين وكل المسافات والأمكنة التي قطعتها لتستقر في بريطانيا وتلتقي هذه المرأة التي أدركت توّاً أنها كانت تطاردها «ولكن منذ متى بدأت الملاحقة؟»، هذا ما جال في بالها وهي تحدق إليها إلى أن أيقظتها مرة أخرى عبارتها الباردة.

«أعرف أنك متشككة، وهذه طبيعتك ولكن لنبقى أقلّه صديقتين وأساعدك على الوصول إلى جذورك التي انقطعت عن الزبير، أنا زبيرية وهذه هي البداية».

عند نهاية عبارتها نهضت واستأذنتها بنظرة مع ابتسامة وهزت رأسها وهي تغادر الغرفة تاركةً يسرا وحدها وسط كومة من الأفكار المتشعبة والشكوك التي تضاعفت من حولها «ماذا تريد مني ولا تبوح به؟». عادت تتأمل المكان وتحدق إلى الأشياء من حولها لعلها تستكشف مزيداً من الدلائل حول ما يجري، رأت سجادة للصلاة على المنضدة قرب الباب، وقعت عيناها على بشت أبيض معلق في زاوية وتمثال لنخلة مع سبحة بنية اللون على طرف طاولة وعصا يد مسندة إلى الجدار، وظهرت سدرة رأس رجالية على طاولة صغيرة بزاوية أخرى من الغرفة، ولاحظت مبخراً قديماً يقبع فوق دولاب ملابس مغلق، بدا لها المكان يعج بالتناقضات، حاولت استشفاف ولو خيط دقيق يوحي بين المكان هنا وبين الزبير كما تدعي المرأة.. «لا توجد نكهة الزبير ولكن هناك بعض السمات الدالة على القبلية والعشائرية التي ورثتها من بيئتها السعودية «أين أنا؟».

فاجأتها البشراوي قادمة وهي ترتدي عباءة سوداء كشفت من أمامها عن فستان أزرق فاتح مطرزة أطرافه عند الأسفل وسرحت شعرها وبدت كامرأة من الزبير وبيدها حملت ألبوماً كبيراً. اقتربت من يسرا ودعتها للجلوس إلى جانبها على الكنبة الطويلة، فتحت ألبوم الصور وراحت تستعرض الصورة الأولى القديمة لرجل يرتدي الثوب الزبيري مع الغترة والعقال وعليه بشت رمادي وبيده سبحة،

وقف بالقرب من سوق شعبية قديمة ومن خلفه ظهر متجر للملابس الرجالية.

«تدعى سوق العقيل».

شعرت يسرا بارتعاش في أطراف جسدها ولاحظت شعيرات يدها الصغيرة ذات اللون الذهبي تقف مشدودة مع ضربات سريعة تصدر عن قلبها تلاه خفقان سريع لمعدتها، كانت واجمة وهي تشم عطراً قديماً يأتي من المرأة بجانبها التي استرسلت في الحديث قائلة بصوت خفيف امتزج بنبرة حزن عميقة:

«أنت من أهل الزبير، وأنا من نجد، أهلي وأهلك، بلادنا الزبير العريقة التي استباحها الغرباء، جئنا من أرضنا الأصيلة وتشردنا في الكرة الأرضية، هناك الفروع التي انحدرت من نجد والكويت والبصرة، قد لا تعرفين اليوم شيئاً عن والدتك ووالدك وإخوتك ولكن تذكري أن كل الشجرة الموجودة اليوم هي أهلك وأنت تعيشين هنا وحيدة».

التقطت أنفاسها وتطلعت إلى عينيها وبدتا كما لو أنهما تدمعان ثم استأنفت وقد شابت صوتها حشرجة وهي تضيف.

«البسام وآل عبدالرزاق وآل الحسن والسميط والمرزوق، هل تعرفين عن أهل نجد من سدير وحَرمَه؟ لقد نزحوا من هنا إلى هناك ومن أرض إلى أخرى ولكنهم لم يتوقعوا أن تضيع أرضهم ويتيه أحفادهم في بلاد الله الواسعة، لقد كنا جميعاً في الصحراء العربية، ونتيجة الخلافات فيما بيننا التحق من التحق، بالكويت والبعض

بالبصرة ومنها الزبير ومن بقي في الصحراء جئت أنا منهم».

أمسكت البشراوي بيد يسرا وراحت تضغط عليها واسترسلت في الكلام وقد بدا من صوتها وكأنها تلملم جروحاً عميقة محفورة في أعماقها.

«انظري أين وصلنا، نحن الذين كنا الحرائر في محيطنا وكنا نملك مفتاح الجنة، بلغنا الحضيض، هل تظنين أنني كما هو مظهري الخارجي؟ وأنتِ أين كنت؟ تزيلين قذارة حثالة البشر، تنظفين برازهم مقابل جنيهات حقيرة، هل أنت راضية عن هذا القاع السحيق الذي انزلقت فيه لأن هناك من سرق بيتك وأقام فيه وشرد أسرتك، من بقي الآن من أهلك؟».

تركت يدها واستلت سيجارة من علبتها الحمراء وسط ذهول يسرا التي ما انفكت الدموع محبوسة داخل عينيها فيما الأخرى تمسح حبيبات العرق عن جبينها رغم برودة الطقس.

«كنا شيوخاً وعائلات وقبائل وعشائر، كنا نملك البساتين والمياه والفضاء وأصبحنا اليوم مشردين في شوارع لندن، بذمتك ألا تودين العودة إلى منزلك بالزبير وتحتضنين النوافذ والأبواب والسماء وتتنسمين هواء الفضاء حتى لو كان ملوثاً برائحة الغاز والبترول؟».

«ماذا أفعل؟».

قالتها أخيراً بعد أن انزلقت الدموع من عينيها وانخرطت في البكاء وقد انفجر مخزن الماضي داخلها وانتثرت قصاصات الصور لسيقان

القصب غارقة في المستنقعات والبردي، والعقيد جبار الشريف الذي رحل إلى الجبهة ولم يعد، لنجوى القطان وصوتها الهادر باستمرار وأحاديثها عن عائلتها الكويتية، الشقيقين فراس الأكبر الذي انتزع من طفولته والتحق بالجبهة، وسام التائه وسط الأزقة والأحياء والمزارع مطارداً الكلاب، عن وجوه الطالبات وصديقاتها ومدرساتها وأقلامها وأحلامها وشهاداتها المكدسة في أدراج صناديقها الصغيرة المخبّأة بغرفتها العلوية، عن الأوراق الصفراء المتساقطة من شجرة اللوز خلف جدار المنزل، وعن عصافير الصباح على نافذتها.

غابت سعاد البشراوي لثوانٍ عديدة وعادت وبيدها ورقة قدمتها ليسرا التي طالعتها والذهول يحيط بها بعد أن جففت دموعها، أخذت الورقة من يد يسرا وقالت بنبرة حادة عكس النبرة الهادئة قبل قليل:

«قد لا تفهمين معنى اللغز الذي يحيط بنا أنا وأنت ومئات نساء العرب المشتّتات في أرجاء الكون ولكن سأقرأ لك المعنى المراد من هذه الورقة..

الحمد لله رب العالمين القائل في كتابه العزيز ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتًا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١﴾ والصلاة والسلام على أشرف المرسلين القائل إنما النساء شقائق الرجال».

نهضت يسرا وألقت بنفسها على سعاد البشراوي واحتضنتها

الأخيرة بحرارة.

«**سعاد**».

ردت الأخرى بنبرة خاطفة.

«**ليس هذا اسمي الحقيقي!!**».

****

(٤)

«أنا خائفة».

نظرتها الشاردة وشعورها الدائم بدوار، حتى السروال الجينز أحست بأنه ضاق عليها وتكاد لا تقوى على الجلوس أكثر، وجدت نفسها غريبة وسط حفلة التعارف لعدد مختلط من المواطنين البريطانيين حديثي الجنسية، لم يكن شعورها تلك اللحظة كما توقعته بالفرح والانتشاء كما خيل إليها قبل سنوات عندما كانت تطاردها كوابيس التهجير، فقد سلبت سعاد البشراوي ردود أفعالها المتوقعة من حصولها على الجنسية بإيقاظ شبح الماضي واستعادة مشاهد الحياة المريرة التي عاشتها متنقلة بين الدول والمطارات بعيداً عن مسقط رأسها الزبير وعن أسرتها التي تاهت ولم يعد لها عنوان أو وجود، نظرت حولها من خلال القاعة التي تضم سيدات من اليمن «ما أصعب أن تكون وحيداً في العالم!». ظلت تنظر إلى الوجوه بحثاً عن تضاريس تشبه تضاريس حياتها بلون التشرد والضياع وفقدان الأهل والأصدقاء، تفرست في الوجوه هناك، تعرفت إلى بعضهم من خلال الملامح والسمات الشرق أوسطية، كانت هناك السورية واليمني والهندي، وتحدثت مع البعض

منهم بشكل مقتضب، كانت تجمعهم رغم الابتسامات والضحكات بصمات الوجع والألم، كانوا يتحدثون ويسهبون في الجدل تجمعهم سمات الفرح على وجوههم بتحولهم إلى الجنسية البريطانية، شعرت بأحاسيسهم لأنها كانت تعيش الأجواء الكئيبة نفسها طوال مدة إقامتهم غير الشرعية المستقرة التي كانت بالنسبة إلى بعضهم تندرج تحت عنوان الإقامة غير الشرعية، صومالي ذو جثة ضخمة منتشٍ، قفز فجأة في وجهها وهو يردد.

«أنا بريطاني».

تذكرت عبارات زملائها بفندق لندن «يسرا البريطانية» ابتعدت عنه وقد علت وجهها ابتسامة.. كان الرجل مهتاجاً ومنفلتاً وتخيلت لو سحبت الجنسية منه صباح الغد، ذكرها بفيلم الثور الأهوج لروبرت دي نيرو، مع كل ما مرت به واعتقدت بأن لا أحد في الدنيا عاش معاناتها، مرت بخاطرها أوقات كئيبة وحيدة في شتاء لندن حينما كان الجميع يحتفلون بأعياد الميلاد والسنة الجديدة، يرقصون، يغنون ويتضاجعون ويتبادلون الهدايا بينما هي تمضي الليالي تلك وحدها، تسليتها النظر من نافذتها إلى الشارع بعد منتصف الليل لتتأمل المارة يهرجون ويحتضنون بعضهم بعضاً بجنون وهلوسة، كانت الوحدة خليلها والبرد يأكل منها والشراب شحيحاً والمتاجر مغلقة والسهر بالحانات والبارات والمقاهي بحاجة إلى ميزانية تفوق دخلها الذي بالكاد تسدد به الإيجار والطعام، تذكرت ذلك كله وانسحبت من الزاوية التي

حصرت نفسها فيها بالقاعة وانخرطت وسط الجمع تحاول الاختلاط بالبعض ممن كان يحرك رأسه لها ويتبادل معها الابتسامات.

تحركت بين الموجودين وحاولت قدر الإمكان الاختلاط مع الآخرين ولعبت لعبة الابتسامات وهز الرأس التي لا يجدر بكل من يحمل الجنسية البريطانية أن لا يجيدها. لم تنس بعد وحدتها في أعياد الميلاد وبدأت تنسج داخل مخزنها العقلي الباطني أدوات التعامل مع العادات البريطانية للمرحلة القادمة التي ستشهد فيها التحولات السريعة بين فكي سعاد البشراوي ومايك الباكستاني «ما الذي يدور حولي؟». انتبهت إلى صوت رقيق يطرق أذنيها، التفتت حولها وإذ بوجه ألفت ملامحه ولم يبعد كثيراً عن الوجوه التي ألفتها من قبل في محيطها الشرق أوسطي، بدت السمات قريبة من زوجها المغتصب الذي عبر حياتها لبضعة أشهر وترك بصماته الوقحة في أعماقها، ذكرها بشخص قطري تعرفت إليه في دبي لساعات وانتهى كالسراب، بدا الوجه صبيانياً تكسوه بشرة سمراء وعينان سوداوان لهما إطلالة ناعسة، وبرزت من خلالهما ومضة خجلة لا تكشف عن حقيقة صاحبها، كان ثلاثيني العمر وبدا من أناقته انتماؤه إلى بيئة مترفة، ورغم ذلك فهو هنا مع الذين جاءوا من الهوامش ومن أطراف الكرة الأرضية، يحتفل بالجنسية البريطانية.

«اسمي فهد الغريري»

في العادة لم تكن تعبأ بالمحيطين والمتحرشين، ولكنها في هذه

الساعة الصعبة، وهي تواجه العزلة وقلة المعرفة بالآخرين تصنعت ابتسامة مقتضبة وهزت رأسها مستفسرة عن عبارته وهي تتظاهر بعدم السمع «ماذا يريد هذا المتطفل الذي ترك أغنى بلد في العالم وجاء يجري وراء الجنسية البريطانية؟». تذكرت أنها على موعد مع الطبيب جراح التجميل جوليان وهو يبدي إعجابه بوجهها وحرصه على تغيير مؤخرتها التي رأى فيها كتلة مثيرة بحاجة إلى بعض التعديل. لم تفهم لماذا خطر ببالها الطبيب وهو من أصل نيوزلندي في هذه اللحظة ولكنها ربطت بين شكلها الجديد ورغبتها في الاستمرار في التواصل مع صانع الجمال حسب تعبيره لها وبين وقوف الغريري أمامها في هذه الساعة، فكرت في الولوج في مغامرة خاطفة معه ولو لليلة واحدة ثم عدلت عن ذلك خشية اكتشاف مايك مغامرتها العابرة وهو الذي لا شعرة تختفي في بريطانيا إلا وهو على علم بها، تبادلت وإياه بضع كلمات انتهت بأخذها رقم هاتفه الجوال لتتخلص منه بسرعة، وضعت الرقم في حقيبتها أمامه ليثق بأنها أخذته على أن ترمي به بعد ذلك في طريق خروجها من الحفلة.

****

نامت حتى منتصف النهار واستيقظت على صوت سمر يام وهو الاسم الحقيقي لسعاد البشراوي، كانت منطلقة وسعيدة وبدا من صوتها حيوية من فاز بمليون جنيه وهي تستنهضها بعبارات التوبيخ واللوم على إضاعة النهار من دون أن تفعل شيئاً ذا قيمة.

«أنت من ضيع في الأوهام عمره».

بدت منفتحة الأسارير ومرحة للغاية وقد لفت ذلك انتباه يسرا التي لم تتمالك نفسها من القول بعبارة مازحة:

«هل فزت برجل أحلامك؟».

ردت الأخرى مازحة بدورها.

«فزت بالجنة ولو سايرتني فسأحجز لك مكاناً فيها».

«موعدي هذا المساء مع الطبيب جوليان، ومن المحتمل أن أُحتجز الليلة بالمستشفى حتى الغد».

لم تستسلم سمر يام مرة في حياتها؛ وفي نهاية المطاف أخرجتها في اليوم التالي من العيادة فيما يشبه عملية الاختطاف بعد تضميد وجهها بغشاء جلدي رقيق شفاف للوقاية من المؤثرات الخارجية وصحبتها في رحلة ليلية بدت في ذروة الغموض وهي تعبر بها طريقاً زراعياً طويلاً خارج «كينغستون»، يعزيها الحديث المتقطع مع المرأة التي راحت تحدثها عن الإسلام واستهداف السنّة لتصفيتهم في جهات العالم المختلفة، هالها الخطاب الحماسي الذي خرج من لسانها وكأنها زعيم سلفي خرج توّاً من جلد امرأة فاتنة متحررة وثاقبة لا تتوقف عن التدخين واحتساء الكحول وارتداء الأزياء الضيقة الثمينة والمفضوحة في أغلب الأوقات، كانت تتطلع إلى وجهها الذي تكسوه طبقة الأساس مع طبقة الروج الدكناء «وراء هذه المرأة يكمن سر الشرق الأوسط». ابتسمت في داخلها وقد دارت في خاطرها هذه الفكرة الأوسطية،

راحت السيارة تنهب الطريق الزراعي باتجاه منعطف خارجي ظهرت من خلاله أضواء آتية من بعيد على شكل أعمدة متناثرة عبر سلسلة من البيوت الخشبية المغطّاة بالقرميد الأحمر، لمحت حانة صغيرة في طرف الطريق الذي انعطفت إليه السيارة وسط تعليق من سعاد أو سمر التي راحت يسرا تنظر إليها ولا تعلم ماذا تخفي سعاد وماذا تخفي سمر وأيهما الحقيقية.. شعرت بوهج بارد تحت طبقة الغطاء الشفاف على وجهها وأيقنت أنها بدأت تتوتر مع بزوغ هذه الأمكنة النائية التي توحي عادة بالنفي الذي عانت بسببه سنوات الغربة والتشرد، ومع توقف السيارة أمام فيلا كبيرة بعيدة بضع عشرات من الأمتار، هبطت المرأتان وقادتها سمر أو سعاد نحو البوابة الملاصقة لكراج عريض يتسع لثلاث أو أربع سيارات. كانت هناك سيارة ميني باص محشورة في زاوية فيما بدت مقدمة المبنى من الداخل عبارة عن حديقة متوسطة تنتصب بها بضع أشجار مختلفة ويحيط بها سياج خشبي أبيض فيما توزع داخل الحديقة عدد من الألعاب الخاصة بالأطفال، لا شيء يوحي بوجود أشخاص في الداخل لشدة الهدوء الذي خيم على المكان في الخارج، التفتت المرأة الغريبة نحوها مرسلة ابتسامة وردية قريبة من لون روجها لتطمئنها لدى رؤية ملامح طفيفة لقلق متسرب من نظراتها لدى اقترابهما من ولوج المنزل الكبير.

اقتربت من صالة موصدة بخطوات صامتة بعد إشارة من سمر، خلعت في إثرها حذاءها عند الدخول، ولدى بلوغ الصالة تناهت إليها

أصوات لأحاديث مختلفة من غرفة أخرى محاذية للصالة الكبيرة لم تعرها انتباهاً لدى تصاعد دقات قلبها «لماذا أساير هذه المرأة بدون أسئلة، تجرني في كل مرة إلى مواقف رغم إرادتي المعارضة في الداخل؟». كانت فرحة بأشياء كثيرة منها، منحها الجنسية البريطانية وإجراء العمليات التجميلية وحصولها على اهتمام مايك وإغداقه عليها المال والهدايا، ونيلها الترقية بعملها الفندقي، كل ذلك زال ولم يعد له طعم لأنها تركت المرأة الغامضة تنتزع كل تلك الجوائز منها بإقحامها في هذه المناورات السرية المبهمة «أي قدر وضع هذه السيدة التي ترتدي أكثر من قناع وجلد في طريقي؟». شعرت بأن ثمة سرّاً لا تعرفه ولا تجد له تفسيراً في مدى استسلامها لقيادة هذه السيدة من دون حتى الاعتراض «أي قوة تملكها المرأة وتسيطر بها علي؟».

الصالة الواسعة العريضة المليئة بأجواء إيمانية من حيث اللون والشكل والمضمون أضفت على نفسية يسرا توتراً غير مألوف، عدا مقعد جلدي أسود واسع وعريض في صدر الصالة يوحي بالخصوصية بين عدة مقاعد أخرى محيطة أقل حجماً، وبرزت أشكال عديدة للوحات ملأتها آيات قرآنية معلقة على الجدران منها أسماء الله الحسنى وغيرها من النقوش الغامضة فيما عدا ذلك كانت الصالة جامدة من أي لون يوحي بشيء طبيعي. لفت انتباهها، للوهلة الأولى، كتاب كثيراً ما سمعت به وقرأت عنه في يومياتها طوال السنوات الماضية ولم يتسن لها أن تراه قبل اللحظة الراهنة وهو الإمام محمد

ابن عبد الوهاب، لعلها الآن وصلت إلى حافة الهاوية المنتظرة من خلال مسايرة المرأة التي التقتها صدفة ذات مرة وهي تنظف غرفتها بالفندق لينتهي بها المطاف في هذه الصالة بمنزل كبير خارج ضواحي «كينغستون». بعد كل هذه الجولة بالسيارة التي قطعت مسافة لا تعرف القصد منها تجرأت وطرحت السؤال الذي لابد منه.

«ماذا نفعل هنا؟».

كان واضحاً لها أن في الأمر تدبيراً خطيراً ويوحي بالأمر الجلل الذي يحتاج إلى كل هذا الإيحاء والسرية والغموض، علمت من تدرج الخطوات التي تتبعها سعاد البشراوي، اسمها الحركي بأنها تتبع منظمة أو جمعية ولكن لا يخطر ببالها الطابع الإسلامي الذي وجدت نفسها محاطة به، وقبل أن تكمل تحسسها من هذا المناخ المحاطة به الآن، جاءها صوت المرأة الأخرى هامساً.

«قريباً سوف تستردين حقك كاملاً ممن سلب أرضك وانتهك عرضك وشرد أهلك، لقد وضعت قدميك على طريق الانتقام من أولئك.

«ماذا أسمع؟».

هذا أول سؤال دار برأسها وهي تسمع البشراوي تفسر لها ما يجري بلغة الغموض والإبهام نفسها التي اتبعتها معها منذ البداية «لا بد من إطلاع مايك على الأمر».. برز مايك في تلك اللحظة المخلّص لها من قعر الهاوية، خشيت إن انزلقت في المغامرة مع هذه المرأة أن تخسر

كل شيء، أصبح الكلام يدور حول الانتقام والاسترداد، كان الخوف يملؤها تلك اللحظة، ودت لو تقفز خارج الصالة ولكنها أدركت الآن أنها بعيدة عن الشارع، تحركت متلفتة حولها بحثاً عن مخرج فإذا بصوت خطوات تتقدم، نهضت سعاد وترقبت خطوات أخرى قادمة، وعندما بلغ رجلان ملتحيان وامرأة منقبة غارقة في السواد برفقتهما، ساد هدوء برهة قطعه صوت أحدهما يعلن.

«صاحب الفضيلة الشيخ وصل».

أطل رجل ضئيل الحجم ضعيف البنية، قصير القامة تبرز من وجهه لحية حمراء كثيفة وطويلة تكاد تلامس سرته، عيناه واسعتان برزتا تشعان قوة لا توازي بنيته الهزيلة، كان يرتدي دشداشة بنية اللون وفوقها سترة جلدية، غطى رأسه بكوفية بيضاء وأمسك بيده سبحة صفراء اللون طويلة تزيد خرزاتها عن المألوف، عند بلوغه منتصف الصالة متجهاً نحو المقعد الجلدي الرئيسي بصدر الصالة، هرولت سعاد البشراوي أو سمر يام نحوه وانحنت مقبلة يده اليمنى ثم تراجعت ليأخذ طريقه نحو مقعده، وقبل أن يجلس تطلع إلى الوجوه التي سادها الذهول وكأن فوقها الطير، أطلق البسملة وهو يجلس فيما ظل الجميع وقوفاً إلى أن أشار عليهم بالجلوس. جلس الرجلان المصاحبان له كل منهما على جنبي المقاعد فيما جلست يسرا بمحاذاة سعاد وجلست المرأة المنقبة على الطرف الآخر من المقاعد فيما أطل رجل آخر بدا من هيئته أنه بريطاني الملامح، كان يرتدي بذلة سوداء وتكسو وجهه

لحية خفيفة، قام بإغلاق باب الصالة وانسحب خارجاً، بدا المشهد ليسرا للوهلة الأولى أشبه بلقطات من فيلم سينمائي، اختلطت بداخلها الأفكار والمشاعر وتصاعدت ضربات قلبها تدريجاً كلما طال الصمت في المكان، ظهر لها عدم وجود رابط بين طبيعة سمر يام التي رأت فيها هذه اللحظة بأن الاسم الأخير ينطبق عليها أكثر من الأول واستغربت كيف أن الاسم الوهمي هو الذي اشتهرت به وهو مطبوع في جواز سفرها، كما استغربت كشفها لها عن اسمها الحركي بهذه السرعة وخمنت في داخلها باحتمال أن لا يكون هذا اسمها الحقيقي أيضاً وربما هناك أسماء أخرى تحتفظ بها لأشخاص آخرين ولمناسبات أخرى.

عندما رفعت وجهها ونظرت أمامها إلى وجه الشيخ صدمت وهي تراه يتأملها وقد علت شفتيه ابتسامة بدت لها بريئة لا تخلو من لمسة حانية تذكرها ببضعة وجوه كانت تساندها عندما كانت لاجئة على الحدود التركية ممن كانوا يجلبون المؤن والمساعدات ويتلون الآيات والأحاديث والمحاضرات. لم تكن هناك بقعة حمراء على جبهته عهدتها في غالبية من التقتهم على الحدود وفي الخيام، ورغم ارتياحها لهيئته الأولى وانسياب مشاعرها بهدوء إلا أنها ظلت متوترة من المناخ برمته الذي انزلقت فيه وجرتها نحوه المرأة القادمة من المجهول «لم أتغير، ما زال الآخرون يستدرجونني معهم، لم أتعلم بعد». كان ذلك اعترافاً داخلياً بعجزها عن تغيير جوهرها رغم كل ما

أجرته من تعديل على مظهرها الخارجي، ظنت أن مجرد إجراء عملية تجميل لوجهها واستبدال ملابسها الرخيصة بملابس ثمينة وذات ماركات عالمية سيجعلها ترضى عن ذاتها، لتكتشف الآن أنها الدمية نفسها التي تحركها يد الآخرين «لماذا أنا ضعيفة؟». بلغ لومها لذاتها هذه الساعة حداً جعلها تشعر بالخزي من نفسها «كيف وصلتُ إلى هذا المكان؟». كانت تطمع في البحث عن أصدقاء أثرياء ثملين ومهرّجين، يعربدون لتعوض ما فاتها من طعم الحياة الذي لم تنعم به منذ نعومة أظفارها، إذ فتحت عينيها على القصف والقنابل تتساقط والدمار من حولها مروراً باللجوء والتشرد لتنتهي حياتها في هذه الصالة المعتمة، بدت لها الأمور معتمة وبلغت دهشتها من نفسها درجة أن تنهض وتنقض على سمر يام وتخنقها «كيف خدعت بها؟»

زمجر صوت الرجل الهيكل العظمي دفعة واحدة بدون مقدمة وقد أحدث ذلك فيها دوياً داخلياً. لم تتوقع أن يخرج هذا الصوت من هذه الكتلة اللحمية الضئيلة وقد صعقتها نبرته الحادة وهو يقول.

« الظلم.. الاستبداد ..القهر هذا هو عالمنا، مشردون.. لاجئون.. في الخيام.. على الحدود.. هذه أراضينا.. نساؤنا سبايا، رجالنا أسرى، أمهاتنا مختطفات.. أطفالنا.. إخوتنا مذبوحون.. بساتين البرتقال والكروم صارت أكوام زبالة، أكرم السامعين، مدارسنا ثكنات لجنودهم المرتزقة».

أمرّ على لحيته بيده اليسرى فيما كانت يده اليمنى تقبض على

السبحة وبدا الوهج يتصاعد من عينيه وكان الرذاذ يتطاير من شدقيه كلما أوغل في الانفعال.

«مساجدنا دنسوها، إنهم ينعمون في ديارنا بينما نحن لاجئون في أرجاء المعمورة، أين أرض العراق؟ أين أرض الشام؟ أين ....».

كمن غابت عن الوعي، عيناها مفتوحتان على الرجل وعقلها حلق في الزبير ثم عبر الحدود وأيقظ المشاهد القديمة، تصاعدت أنفاسها وهي تقترب من الاختناق، بدت الأرض ترتج تحت قدميها واكتنفها جفاف في الحلق، صارت كمن حملها من المكان وألقى بها في مقبرة الزبير بين الأنقاض والجيف وبقايا الصواريخ والأسوار المهدمة والبيوت المكشوفة، رأت المشهد أمامها ولم تحتمل وقد شعرت بالضباب يلفها ويحملها بعيداً عن المكان، حاولت النهوض والسير نحو الرجل الضعيف الذي كان وجهه يشع كالبرق، خفق قلبها وسقطت على الأرض قبل أن تصل إليه.

****

أفاقت من نومها عند الساعة الخامسة وست دقائق صباحاً، تذكرت بأن يوم غدٍ أول رمضان، بدت حانقة على ما جرى لها بالأمس، شعرت بألم في عنقها وفي كتفها اليمنى وزاد حنقها عندما تذكرت بأن إجازة الأيام الخمسة التي اقتطعتها من إجازتها السنوية تنتهي اليوم ولا رغبة لها في التوجه إلى العمل، خطرت ببالها دعوة مايك لها بترك الفندق والالتحاق بعمل مكتبي يليق بها، وهو مستعد أن يوفره

لها فوراً، كما أن سمر وعدتها بعمل سينقلها من خانة الفقراء إلى خانة الأثرياء خلال مدة وجيزة إن نجحت في الامتحان حسب تعبيرها، من دون أن تخوض معها في التفاصيل، وقد بدا لها كالعادة دائماً أنّ هذه المرأة في كل صغيرة وكبيرة، يلفها الغموض. كانت ترى الأمور معها كالشرشف أو كحذاء الكعب لا تستطيع أن تستعملهما مدة طويلة، إذ سببا لها حكة في الجسم، وهكذا الأخبار التي تأتيها من سمر يام تنشر فيها الحكة وفي الوقت نفسه ترغب في مسايرتها طالما تلوح لها بالثراء والنفوذ علماً بأن عالم مايك بدوره يغريها بالانزلاق في هذا المحيط، ولكنها تخطو بحذر شديد وهي ترى الأمواج تتصاعد والبحر يزداد عمقاً كل يوم.

تركت مسألة حلول رمضان في الغد والتفكير في دعوة مايك وإغراء سمر، تناولت بسرعة علبة زبادي خالي الدسم وبضع حبات من الزيتون الأسود، ارتدت ملابسها بسرعة ولم تتكلف كثيراً في وضع الماكياج، إذ أسرعت نحو سيارتها المازدا الصغيرة المركونة بزاوية المكان منذ استلمتها، دلفت فيها وأدارت المحرك وظلت تتأمل الطريق الذي غرق في رذاذ خفيف رغم بزوغ خطوط رقيقة لأشعة الشمس تسللت قسراً عبر الغيوم الكثيفة المتحركة. كانت الرياح شمالية تهب باردة حركت معها بضع أوراق متناثرة أسفل الأشجار الصغيرة المحيطة بالمكان، كان هناك بعض المشاة يهرولون منذ الفجر لم يعبأوا بقطرات المطر المتساقطة، وظهرت دراجتان تعبران الشارع

العام راحت عيناها تتابعهما حتى اختفتا عند زاوية المنعطف، تخيلت لو تضغط على دواسة السرعة وترفع قدمها عن الفرامل وتتحرك بها قليلاً «ماذا سيحدث لقد أخذت بضعة دروس ولن يصادف وجود شرطي مرور في هذا الوقت؟». تذكرت أن الجنسية البريطانية لا تخولها القيادة بدون رخصة قيادة، أطفأت المحرك وخرجت من السيارة وانطلقت نحو الفندق بعد أن فتحت مظلة المطر.

في غضون ساعات من العمل بالقسم المالي طلبت بشكل مفاجئ من «كينيز» المسؤول عن خدمات تنظيف الغرف ساعتين تعود في خلالهما إلى عملها السابق في إعداد الغرف بدعوى شعورها بالحنين إلى هذه الوظيفة، وأمام صدمة الرجل واستغرابه هذا الطلب الذي لم يسبق أن سمع في حياته بمثله في أي وظيفة أدنى من وظيفة الموظف نفسه، نظرت إليه وهي تبتسم وبدت كالبلهاء وهي تستعطفه الموافقة، نهض من مقعده والتف حولها ثم عاد وهو يتأملها من أعلى إلى أسفل، مط شفتيه وقال بنبرة ممانعة لا تخلو من دهشة:

«هذا يعتبر مخالفاً لقوانين العمل البريطانية، كما أن ملابسك الأنيقة لا تليق بهذا العمل رغم احترامي لجميع الوظائف».

توقف برهة وهو يتأمل رد فعلها، وإزاء الصمت الذي لاذت به استأنف قائلاً:

«أنا معجب بذكائك ولكن للذكاء حدود».

حكت أنفها بإصبعها وابتسمت بخفة لم تعهدها، وبحثت في

قاموس الحجج عن حجة تواصل بها إصرارها على هذا الطلب. كانت هادئة على غير عادتها في الصباحات التي تلي مرورها بمواقف كتلك التي كانت فيها مع سمر يام الليلة الماضية، تذكرت بأن الزبير التي جاءت منها لم تعد قائمة وأن العالم تغير ولابد من تغيير يشمل مواقفها تجاه ما تشعر به «ماذا ينفع أن أكسب العالم وأخسر نفسي؟». حرمت من الاحتفالات، من أعياد الميلاد والسنة الجديدة ومن أعياد الفطر والأضحى وكل المناسبات «لم أتغير، سأواجه الموقف حتى نهايته». عضت على شفتيها وسلطت نظرة ناعسة نحوه، ركزت عينيها في عينيه كمن توجه إليه السهام، وأرخت طرف جسمها وقالت بعبارة رجاء رقيقة:

«مستر كينيز أرجوك لمرة واحدة، من فضلك».

استسلم قائلاً بسرعة، وهو يشير عليها بالخروج.

«أنت حرة لا علم لي بالأمر؟».

«هل يحدث ذلك في فندق الهوليدي إن؟» كانت ضحكتها ماكرة وهي تغادر المكان، دلفت الغرفة رقم ٣٣٤ وبدأت العبث بالمكان على طريقتها المعتادة، كانت البداية التأمل في المكان، وهن جسدي اجتاحها فجأة وشعرت في إثره بأنها فقدت الرغبة والجاذبية في العبث بأدوات النزلاء، وهي اللعبة التي أدمنتها طوال عملها في هذا المجال، دب فيها الكسل والخمول وفقدت اللعبة بريقها وكل ما فكرت فيه هو التوفيق بين مايك وسمر يام، كيف تأخذ من هذا وتلك؟ كيف تتعامل

مع الاثنين؟ تركت الأسئلة إلى وقت لاحق، وبدأت بترتيب الفراش بسرعة ولفت انتباهها فجأة كيس بلاستيكي صغير محشور في زاوية أسفل السرير، حملته وتأملته، إذ به قطعة حشيشة صغيرة، ابتسمت واجتاحتها رغبة في تدخينها وخطر ببالها أن تطلب من ريتشارد أن يجلب لها قطعة، لم تقو على إنهاء العمل بالغرفة، أسرعت بالمغادرة واعتذرت من كينيز الذي استغرب سلوكها ثم استأذنت الإدارة وخرجت بعد أن أجرت اتصالاً مع سمر يام التقت في إثره معها بشقتها الصغيرة في «كينغستون» التي ما كادت المرأة تدلف إليها حتى التفتت نحوها وهي تمسح المكان بنظرة خاطفة وفاحصة في الوقت نفسه، لتقول بعبارة مستنكرة؟

«لاتزالين تعيشين هنا؟».

****

(٥)

لم يمضِ أسبوع على زيارة سمر يام ليسرا حتى انتقلت الأخيرة إلى الطرف الآخر من «كينغستون». وبمرور شهر تركت العمل بفندق الهوليدي إن، وبقي فقط محطة استرخاء لترددها بين وقت وآخر لتناول كأس نبيذ في الليل أو كوب قهوة عند العصر، أو لمجرد إلقاء نظرة على المكان وقت الفراغ، وحلت ساكنة جديدة ببناية «السوفتي» التي يقطنها بعض كبار المقيمين من الأجانب والتي تحتوي على موقف للسيارات وبركة سباحة إضافة إلى حارس خارجي مع جهاز أمني خاص بالدخول والخروج. ظنت أنها فازت بوظيفة سكرتيرة بشركة مقاولات عملاقة في مجال الخرسانة المسلحة بتوصية من مايك، وأنها فازت بالشقة مع دفع الإيجار بتوصية من سمر يام، اختلطت الأوراق وجرت الأمور بسرعة وتوالت الأحداث من حولها، لم يعد لديها وقت للتفكير وتأمل ما يجري، ولم تتوقف لتنظر أبعد من قدميها. كان النهر يجري بإيقاع لم يترك لها خيار فحص الأمور من حولها، فتوقفت عن طرح الأسئلة على نفسها وراحت تنتظر المهمات التي ستكلف بها في مقابل كل هذا المحصول. كان راتبها من شركة الخرسانة المسلحة يفيض عن

حاجتها وكان مايك يغدق عليها الهدايا في مناسبات يخترعها بنفسه من دون أن يكون متطلباً جنسياً، فقد كان ينتظر إشارتها كي يبدأ مغازلتها التي قد تستمر يومين أو ثلاثة قبل أن يلمح إلى دعوتها إلى الفراش، وبين موجة مايك الباردة وموجة سمر الساخنة راحت تتنقل بين تلك الأمواج مخلفة وراءها غباراً لا تلتفت إليه ولا تعيره اهتماماً. ومع الوقت بدأت من دون حساب تغرق في الشراب واختارت النبيذ الأحمر رغم ما يسببه لها من حرقة في المعدة نتيجة كريات الدهون المتراكمة التي اكتشفتها صدفة وهي تراجع عيادات النساء بسبب نزف الدورة الشهرية التي تراودها مرتين في الشهر، مع الوقت والإرهاق الذي بدأ يدب في جسدها نتيجة تناولها أقراص الزناكس بين كل ليلتين أو ثلاث بعد أن تفرغ من الشراب، بالإضافة إلى تقطّع النوم وقلته ودأبها في المواظبة على العمل في الوقت المحدد، شعرت بأنها تدفع ثمن الحياة المترفة المترتبة على التغيير الذي جرى بإيقاع سريع لم تتوقعه بنفسها. كانت ترى مجرى الأحداث سريعاً فقدت في إثره بوصلة توخي الحذر الذي رافقها منذ خروجها من الزبير ومرورها بكل المحطات الشائكة، رأت في التغيير من حولها مذاقاً مختلفاً عن الذي تصورته وأقنعت نفسها بأنها تستحق الترف بعد السنين العجاف التي مرت بها وكادت تفقد نضارتها وتفقد معها ما تبقى في العمر من ربيع، تحولت إلى قارئة لكتب الذات ومارست الرياضة كلما سنح لها الوقت ونظمت غذاءها، فجأة وجدت نفسها تتطلع لاقتناء سيارة جديدة مختلفة عن المازدا

الحمراء التي بدأت تملّها بعد أن اعتادت ركوب سيارات سمر يام ومايك الباكستاني وغيرهما ممن تعرفت إليهم في خضم الصداقات في المحيط المخملي الطارئ. لم تفصح عن هذه الرغبة ولكنها كانت تبدو في نظرتها إلى السيارات التي تستقلّها وحتى التي تشاهدها في الطرقات وتلفت انتباهها؛ فقد منعها عن الإفصاح عن هذه الرغبة وكل الرغبات المتزاحمة في داخلها انتظارها للدور المتوقع أن تلعبه بعد كل هذا التعديل الذي أُجري لها، كانت من الذكاء كعادتها وهذه هي المزيّة الوحيدة التي لم تفقدها بعد التغيير، تعلم بحاسة سبر غور من حولها، بأن ما أخذته حتى الآن لا يعد مجرد منحة أو صدقة، فثمة مهمة غامضة في الأفق تنتظرها وستجلبها رياح عاتية لا تتخيل نتائجها ولكن مهما جرت الرياح فالأمر يستحق كل هذا العناء «أستحق ما أحصل عليه حتى لو كان الثمن أن أبيع نفسي للشيطان فلم أحصل من الملائكة على شيء طوال السنين المُرّة التي عشتها».

كان سعيد الصراف واحداً من وجوه عديدة تدير شبكة واسعة من الأعمال العقارية والإنشائية المرتبطة بشركة الخرسانة المسلحة، يزور مكاتب الشركة يومياً تقريباً لتسلم الشيكات وإنهاء المعاملات، اعتاد التوقف عند مكتبها وإطراءها بكلمات العسل وأحياناً الإشادة بها وبعملها والإسهاب في امتداحها، ورغم عدم تقبلها لأسلوبه المبالغ فيه إلا أنها وضعته على قائمة المستفيدة منهم، فبقدر حرصها على التزامها بالعلاقة مع مايك إلا أنها وسعت من دائرة الأسماء التي من

المحتمل الاستفادة منهم لاحقاً. كان سعيد الصراف شاباً في الثلاثين من عمره بدا من هيئته ولحيته الخفيفة التدين لكنه أفصح عن طبيعته من خلال إلقائه النكات غير المحتشمة وتأنقه المبالغ فيه والذي لا يتردد في ارتداء سراويل الجينز الضيقة والقمصان المحشورة بالإضافة إلى قصة شعره الشبابية ذات الطابع البريطاني، كان يتوقف عند حافة مكتبها بعد أن ينهي معاملاته ويدير الحوار معها متجاهلاً نظرات العاملين في محيطها، عرفت منذ البداية أصوله الأردنية ولكنها اكتشفت فيما بعد أنه فلسطيني ولد في بريطانيا وتعلم فيها واكتسب الجنسية بالولادة ولم تعرف أكثر من ذلك لأنه اعتاد التكتم على أفكاره واكتفى بالتعليقات الساخرة على العرب وعلى سلوكياتهم. أدهشها فيما بعد تعليق مايك عندما أطلعته على تصرفاته معها فجاء تعليقه لافتاً للنظر «جاملي الرجل، فتحت يديه إمبراطورية من الأعمال والخدمات». عرفت فيما بعد أنه وعدد من المتنفذين العرب في لندن يديرون مكاتب محاماة ووكالات سفر ومكتبات ومطاعم وبرادات صغيرة منتشرة في أنحاء المملكة يديرها الآسيويون، وعرفت بأنه يدير شخصياً فروعاً لمؤسساته في الأردن والسعودية، ولديه محلات صرافة في أيرلندا واكتفت بالتوقف عن البحث في خلفيته وعملت على توثيق علاقتها به.

ما أثار دهشتها وشد انتباهها إحساسها بعدم اكتراث مايك لعلاقاتها المتشعبة وخصوصاً مع الرجال، فلم يعبأ بالأخبار التي تنقلها إليه حول مشاكساتهم؛ كان يكتفي بالابتسام وبضعة تعليقات عابرة كأن

تستفيد منهم وتستغلهم قدر المستطاع، إلى أن بلغت ذات مرة ذروتها في الغضب واستدعته على وجه السرعة وأبلغته بأن ثمة أربعة شبان بينهم اثنان مغربيان وواحد مصري والرابع بولندي اعتادوا التحرش بها يومياً لدى خروجها من المنزل مساءً، وبلغ بهم الأمر أن يعترضوا سيارتها ومنعها من المرور عبر الشارع المتفرع من محطة «سيربتون». ولم يمضِ وقت حتى اختفوا ولم يعد لهم غبار، وعندما سألته رد عليها بعبارة تنم عن الحب والاهتمام.

«لن تسمعي عنهم بعد اليوم، لن أسمح بأن يؤذيك أي شخص ما حييت».

كل يوم تكتشف فيه عنصراً غريباً وغامضاً، فهمت من قبل بأنه بارد وهادئ وغير مكترث كما يوحي من هيئته للوهلة الأولى ولكنه يخفي وراء هذا المظهر وحشاً كاسراً غير متوقع رد فعله ولا كيف وأين؟ أثلج هذا الرد صدرها وضاعف من شعورها بالأمان معه، وإن ظلت متوجسة من علاقتها بسمر يام والشبكة الغامضة التي تحيط بها، وإن بدأت تفكر في أخذ ثأرها ممن تسبب لها بالتهجير والتشرد وانتزعها من جذورها في الزبير وألحق الضرر بعائلتها وساهم في اختفائهم من على وجه الأرض. كانت سمر يام هي الخيط الذي أمسكت يسرا بطرفه والذي يعيدها إلى الزبير، ولعل ذلك الخيط يقود إلى معرفة مصير بقية أفراد أسرتها التي انقطعت منذ أن خرجت من هناك، كان وقع لقاء فضيلة الشيخ الوهمي الذي هبط بهيكله العظمي عليها قبل بضعة أشهر رهيباً

ولاتزال رعشة فجة تسري في بدنها كلما استعادت عباراته المثقلة بالدعوة للعودة إلى الوطن وطرد الغزاة الذين استباحوا بيتها. لا يغيب عن بالها ساعة منظر الدار بأبوابها ونوافذها الخشبية ذات الدرابزين، ولا رائحة شجر الورد المحمدي وهي تفوح مع ندى الصباح ورطوبة المساء، لا تنسى وجوه الجيران وسيل الأمطار يغرق الطرق وتصنع العجين «لا أفكر في الانتقام ولكن أسعى للعودة ولو ليوم واحد أسأل الأرض أين ذهب السكان؟». كانت ترى في سمر يام نافذة أطلت منها على عالمها الأسطوري الذي عاشته وانتُزعت منه، لم تفكر طوال السنين التي مرت في العودة والانتقام، كان همها العيش بسلام داخلي يملأ فراغ الروح والجسد الذي تركته الهجرة القسرية، لكن بروز سمر أو سعاد البشراوي، قبل خلع القناع السابق أحيا في أعماقها الحنين إلى سماع تغريد طيور الزبير وعصافيرها المحلقة طوال اليوم أسراباً، والتي بدأت الهجرة الإجبارية نحو الدول المجاورة بسبب الحرب والملوثات من الغازات والأدخنة، هذا ما علق بذاكرتها من أحاديث جبار الشريف، وهو يعود مشبعاً بروائح البارود أشبه بمن يعمل في مصنع للبتروكيماويات كما كانت تعلق نجوى القطان عليه كلما كان هناك ود بينهما للحظات عند العودة من الجبهة.

لم تخفِ حياة الترف التي صاحبتها مع كل من سمر ومايك ومضات الماضي وهي تقفز بين فينة وأخرى، تنكأ الجروح وتنبش في دهاليز الزبير كل ما له علاقة بالناس والأمكنة والطبيعة رغم قسوتها

ولكنها تظل تحمل نكهة العراق والزبير وها هي البشراوي تخبرها بالوثاق، بأنها تنتمي إلى السعودية وإلى الجزيرة العربية ومنها تعود السلسلة البشرية لنقطة مركزية تنبع من المكان الذي ولد منه الأنبياء، عرفت ذلك وحفر في ذاكرتها وهي تتابع محاضرة لأحد رجال التاريخ ممن هجروا البصرة وانسابوا مع طوفان البشر في أرض الله الواسعة بحثاً عن ملاذ، الرصاص والمشانق يلاحقانهم والخوف يلاحق عائلاتهم والذعر يتملك أطفالهم، انزلقت دمعة من عينها وهي تسمع صوتها الداخلي يستيقظ فيها روح شقيقها الأصغر سام «متى ألقاك؟ وأين أنت يا عيني؟؟»

عندما صحت في إحدى الليالي فزعة بينما كانت بين أحضان مايك، قفز الآخر مذعوراً كما لو أن أحداً كسر الأبواب والنوافذ واقتحم المكان، راعه أن يرى المرأة النائمة في حضنه تفتقد الأمان وتقبع في دوائر الخوف، لم يكن وقتذاك يدرك أنها مقدرة أن تكون المرأة الأخيرة في قائمة نسائه المصونات.

****

(٦)

«أخيراً ستدخلين الزبير».

نزلت عليها العبارة وهي تستمع إلى صوت عبد الباسط عبدالصمد يتلو سورة الحشر عند الآية ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ كما لو أن السماء أطبقت على الأرض، رفعت رأسها إلى الأعلى لتصطدم نظراتها بالسقف فوقها وترتد نحو الأسفل لتتأكد أن الأرض تحتها لم تتصدع وتسقط. جاء تأثير العبارة ليزيح عن صدرها كتلة ثقيلة من الأفكار التي ظلت محبوسة منذ سنين، لم يكن معها في الغرفة المزركشة بالنقوش واللوحات البيانية سوى سمر يام تقف خلف النافذة وتنظر نحو الطريق من دون أن تتأمل وقع كلماتها على المرأة القابعة على المقعد، تنتظر التعليق وقد طال عن الوقت الذي ساده الصمت المطبق، إلا من صوت دقات لساعة معلقة على الجدار، فبدا في تلك اللحظة مقيتاً كأنه قطرات زئبق تحفر قاع رأسها ما دفعها للابتعاد عن النافذة والتوجه نحوها وإعادة رسم العبارة من جديد.

«لا تقلقي من العودة إلى بيتك، كم أنت محظوظة أن اختارك القدير من بين الآخرين لتكوني من العائدين، ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾. ما إن انتهت من تلاوة الآية وبلحن مجود حزين حتى مسحت على وجهها وكمن انتهت من الصلاة، رفعت رأسها وتطلعت إلى وجه يسرا التي كانت مأخوذة بكل ما يجري حولها، لم تر في حياتها منظراً فيه من السريالية والواقعية والخيالية كهذا المشهد النوراني وقد سحرها شعاع خيل إليها أنه يتسرب من وجه المرأة المتبرجة، بشعرها البني الغليظ وبشرتها البرونزية المشعة فتنة وساقيها العاريتين وقد تحولت إلى شيء لا تعرف اسماً له، يفيض سحراً ربانياً، ولم تشهد ذلك من قبل في أي من رجال الدين الذين التقتهم في محطات الغربة واللجوء حينما كانوا يتلون القرآن ويتحدثون بالدين ولكن وجوههم لا تشع إلا بالمكر الذي سرعان ما كشفته من سلوكهم، ويكفيها أن تزوجت لبضعة أشهر من أحدهم وكان ذلك الزواج العرفي بمثابة اغتصاب لها.

«ما رأيته منك الآن بهرني».

اقتربت منها المرأة وأخذتها من يدها ودلفت بها غرفة صغيرة أخرى في نهاية الممر المؤدي إلى قسم آخر من المكان. كانت الحجرة

صغيرة وذات نسق يدل على سريتها، وهناك جلستا معاً على كنبة تتسع لاثنين وفتحت لها صندوقاً صغيراً أخرجت منه بضع صور وراحت تطلعها عليها واحدة تلو الأخرى حتى انتهت، ثم أعادت الصور إلى الصندوق وأغلقته بمفتاح صغير ووضعته بقربها على الأرض وتوجهت إليها بسؤال حمل نبرة التشفي من شيء مبهم يدل على غموض الصورة.

«ما رأيك؟».

تطلعت يسرا نحوها ولم تفهم ماذا يحمل السؤال ولا على ماذا يدل، خشيت إن تسرعت في الرد أن يأتي جوابها دليلاً على حمقها رغم الإيحاء الأولي الذي أوحت به الصور؛ تريثت في الرد وجالت في عيني المرأة باحثة عن رد فعل لترددها. فما كان من الأخرى إلا أن هزت رأسها مبتسمة تحثها على الجواب، حشدت يسرا كل ما خطر ببالها واختزلته في عبارة سريعة كمن تتخلص من عبء ثقيل على كاهلها.

«هذه صور مجاهدات عربيات».

«هؤلاء مؤمنات».

بدأ يتسرب إليها الشك من وجود علاقة بين المرأة الرقيقة الشفافة وبين جهات مبهمة لا تريد التسرع في الحكم عليها، خليط من التوقعات والاحتمالات دفعها لتتأمل أبعاد الكتلة التي راحت تكبر وتتدحرج ككرة الثلج «لابد من سبر غورها». رغم التصعيد المشوش في الأفكار

من حولها كانت موقنة من صدق المرأة من تداعيات الزلزال الذي ضربها توّاً وهي تستدعي صور الأمس «لا أظنها ستغدر بي»، كانت ترى في عينيها صدقاً لم تخلفه الكلمات ولا العبارات المنمقة، رأت في وجهها وفي سماته الحادة التي انعكست على بشرتها وهي تتورد لحظة تلاوة القرآن، وميضاً حقيقياً ينم عن ألم ومعاناة كتلك التي مرت بها هي نفسها، وهذا ما دفعها لتتجرأ للمرة الأولى وتسألها بنبرة صارمة.

«من أنت؟».

ردت الأخرى غير مفاجأة بالسؤال.

«لم يفاجئني سؤالك، توقعته منذ مدة وقد كنت صادقة معك حين قلت لك سمر يام، أنا هي».

ردت يسرا بمزيد من الإصرار على غير المعتاد.

«لا يطفئ ظمئي هذا، أين تعملين وماذا تريدين مني بالذات؟».

هذه المرة فاجأتها النبرة الاستفهامية الحادة ورأتها تخرج من شرنقة الخجل والحذر وتقتحم المناطق المحرمة، أصابتها في المركز ما حدا بالأخرى أن تعتدل في جلستها، دفعت شعرها إلى الوراء وتطلعت حولها كأنها تستعير من الهواء ما تُنَفس به عن احتقانها الذي ظهر عليها، بدت باحثة عن خيط تبدأ به الرد من دون أن تنزلق إلى القاع، شعرت بها يسرا وهي تحوم حول المكان ثم تستقر بالقرب منها مشعلة سيجارتها وقدمت أخرى لها، نفثت الدخان وقالت بصوت اكتنفته المرارة:

«خسرت كل شيء كان ملكي بسبب التمييز، أملك المال ولكن لا أملك الاعتراف بوجودي وهويتي لأني خرجت عن سرب العائلة، كان يمكن أن أكون واحدة من أسرة تملك كل شيء بما فيه الوطن، كان بوسعي امتلاك الفضاء والبحر واليابسة لولا التمييز، فقط لأني من أم خارج المحيط».

توقفت برهة، نفثت الدخان واستدارت وهي تقترب من النافذة، أطلت منها ثانية وعادت مسترسلة وقد زادت نبرة المرارة في فمها.

«قصتي طويلة وخيالية ولكنها واقعية».

ضحكت بوجه ساخر واستأنفت.

«هل سمعتِ قصة الأميرة التي أعدمت ذات مرة بسبب خطأ في الاختيار؟ الحب أعماها، يا للسخرية، تصوري بسبب الحب لعنة الله عليه، خرجت من الدنيا، أنا أشبهها ولكن ليس بسبب غلطتي أنا بل هو خطأ غيري، ولكن لا أحاسب أحداً، الله سوف يحاسب الجميع ولكني دفعت ثمن غيري ظلماً بخروجي من الجنة بعد أن اكتشفت أن الوطن ليس لنا فيه نصيب بحكم القانون الأرضي، فلجأت إلى قانون الله تعالى ومنه سوف أسترد حقي وحق كل من ظُلم في الدنيا».

تبادلنا النظرات بصمت برهة، رفعت رأسها إلى الأعلى ليصطدم بالسقف ثم عادت إلى الأرض لتضيف.

«أنتِ انتزعت من بيتك بفعل قوة شيطانية طمعت في أرضك، وأنا انتزعت من بيتي بسبب قوة شيطانية من دون حق، وهناك آلاف، بل

ملايين من البشر رجالاً ونساء، خرجوا من ديارهم دون حق، وقد أجاز لهم الله الجهاد لاسترجاع حقهم سواء عاشوا ليشهدوا عودة الحق أو استشهدوا ليأخذوا حقهم بأثر رجعي في الآخرة ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

«لا حساب عليك أختي يسرا، لقد ظلمنا وشردنا وطردنا من ديارنا مع حقنا في حكم هذه الديار، نحن لا ننتقم منهم بل الله سبحانه وتعالى ينتقم بأيدينا، الشهادة خير لنا من الذل».

****

في المساء نفسه، مع هبوب رياح باردة إثر تساقط قطرات المطر، ساد الشوارع هدوء معتم بسبب كثافة الغيوم وبدت حركات البشر والسيارات والقطارات رتيبة انعكست بظلالها على الوجوه المندفعة بسرعة وتوتر لدى نهاية اليوم الذي بدا بطيئاً منذ الصباح. كان للطقس دوره في صنع إيقاع الحركة لدى البشر على اختلاف تنوعهم، وزادت الكآبة على وجوه البريطانيين الأصليين ذوي العيون الزرقاء، انتقلت هذه الحالة النفسية إليها وهي تعبر الشارع من شقتها إلى العنوان الذي حددته لها سمر يام بلندن داون تاون لتستلم الظرف المعين لها من قبل الجماعة كما أخبرتها، لم تطلعها على هوية الجماعة ولا على وظيفتها ولا على أي شيء يدل على ماهيتهم، اكتفت بالقول إن الجماعة هم من سيعيدون الحق إلى أهله ولو تطلب الأمر قيام الساعة «أي ساعة

عنت؟». مرت على شارع داخل حيٍّ صغير متفرع من شارع «أكسفورد» وقريب من زاوية البناية التاريخية القديمة التي كلما مرت بها طوال السنوات الماضية ذكرتها بالعمارة الحلبية التي كان يقيم فيها عمها هيثم الشريف لدى إقامتها بسوريا وقت الدراسة. نزلت من السيارة التي كان يقودها ريتشارد وعبرت المسافة بين الشارع والرصيف مسرعة تهرول خشية تبلل شعرها من قطرات المطر الخفيفة التي كانت تتساقط. وأثناء عبورها كادت تتعثر، التفتت خلفها لتقع عيناها على عيني ريتشارد الذي كان يبتسم ولوح لها بيده إشارة الحذر، كانت الساعة تشير إلى السادسة ودقيقتين، ولدى بلوغها البناية المقصودة تأملت الورقة بيدها ثم دستها في الحقيبة ودلفت المكان، وأول ما تناهى إلى سمعها لدى تقدمها من الباب الخشبي المطلي باللون البيج هو صوت قراءة قرآنية؛ في إثرها ابتسمت وهي تدرك بأنها وقعت في محيط ديني لا محالة وهو أمر واضح من كل هذه المواقف التي مرت بها في الآونة الأخيرة مع سمر يام، ساد هدوء على غير المتوقع من هيئة المكان الذي يبدو عليه من الخارج، فاحت رائحة زكية، هي خليط من العود والعطر، وانتشرت في الأرجاء قبل أن تصل إلى المكتب الذي فتحته امرأة، ظهرت متحجبة وارتدت عباءة سوداء ولم يظهر منها سوى معصميها الأبيضين، وقد أشارت إلى يسرا بالتوقف، واقتربت منها وسألتها إن كانت تحمل جهاز هاتف، وعندها طلبت منها تسليمها الجهاز ثم ولجت بها المكتب، ثم تركتها وخرجت.

«تفضلي أُخت يسرا».

بدا من هيئة القابع وراء المكتب، أنه رجل عسكري لا ينتمي من مظهره الأولي إلى رجال الدين الذين تعرفت جيداً إلى مظهرهم. ولشدة تعلقها بوالدها منذ طفولتها، ولدى تفحصها مظهر الرجل الجالس أمامها خمنت أنه أحد أولئك القادة العسكريين الذين يماثلون جبار الشريف في طلعته ومظهره وسماته وملامح وجهه المكسوة ببعض خيوط خفيفة من التجاعيد الصلبة بين حدود الوجه والأنف، كان يرتدي بذلة رمادية أنيقة، وغطت شاربه الغليظ شعيرات بيضاء، وفيما راحت بسرعة فائقة تمسح المكان بنظراتها، توقفت عند خريطة الوطن معلقة خلفه على الجدار ومعها لوحة مزينة بإطار ذهبي عريض في الجانب الآخر لرجل طاعن في السن بدا من هيئة الكوفية والعقال أنه من رجال البصرة الذين تميزهم عن معرفة تامة بالفطرة التي ولدت عليها، كانت ترى تلك الوجوه في طفولتها وتعرفت إلى بعضهم من خلال مرافقتها لجبار الشريف خلال زياراته للسوق ومروره بمتاجر بعضهم وأحاديثه الساخرة معهم وتدخينه للنارجيلة الزبيرية «من يكون هذا الكهل الشامخ في الصورة؟». أيقظها من تأملها صوت الرجل كأنه قادم من وراء الحدود وقد زرع فيها حنيناً للديار بنبرته الحادة الحنون في الوقت نفسه.

«هلا بك بنيتي يسرا، وأخيراً حطت قدماك في بقعة من بقع الوطن، هنا بنيتي في هذه الرقعة الصغيرة وراء الحدود تشمين الوطن

وأهله، هلا هلا بك يا بنت جبار الشريف يا سليلة شجرة القرمزي».

انتفضت فرائصها واستيقظت كل حواسها، فاض شجنها المكبوت منذ سنين ولاحت لها رائحة الياسمين من خلف سور الحديقة الواسعة التي كانت تعبر ممراتها وهي برفقة والدها أيام الجمع خلال الإجازة، مصطحباً إياها عندما يزور الثكنة المحلية للجيش ويسلم أشياء مبهمة، لا يعلق بذهنها منها حينذاك سوى رائحة التبغ، وعبق الرازجي الذي يفوح من حديقة الثكنة وحدها العالقة في ذاكرتها عن تلك الأيام، سرت في أوصالها رعشة باردة أحست كأنها شفرة ناعمة تنعش روحها الميتة منذ الأزل، اجتاحتها بهجة سحبت من تحتها الأرض ورفعتها عالياً شعرت معها لوهلة كأنها تلتقي جبار الشريف ولا تقوى على ملامسته، كأنه حلم السنين المنتظر، لا يشبه الرجل والدها ولكنه يحمل كل سماته وملامح الرجولة فيه «ليتني أقدر على ملامسة روحه الطاهرة».

«أعرف عن والدك الكثير وهو حي يرزق».

«لا إله إلا الله».

لأول مرة منذ سنوات تنطق تلك العبارة من داخلها وقد مسها ما يعلو على السحر، طفقت بلا حواس تنظر إلى الرجل وينظر إليها وسط صمت هائل يكاد يكسر الصمت نفسه، تصاعدت خفقات قلبها، وترنح خيالها بعيداً متجاوزاً الحدود البريطانية عابراً البحار والمحيطات والفضاء، تلبسها شك ويقين، شك أن تخدع وتستدرج من أعز ما

لديها في الوجود، جبار الشريف، ويقين توحي به ملامح وسمات الذي ينظر إليها هذه اللحظة ويوشك أن يبتلعها معه في خيال جامح لا محيط يحده «مستحيل أن يكون حياً يرزق» كل الصور والمواقف والأحداث الجسام التي مرت بها عبر السنين، وكل المؤشرات منذ كانت في التاسعة من عمرها لا توحي بيقين يؤشر لوجود حياة أخرى وراء هذا الكون، لا يمكن ولا يخطر ببال المرء أن جبار الشريف الذي كان أسطورة المحارب الكاسر وهي الصورة العالقة بذهنها منذ الزبير يكون قد تجاوز الموت وعبر الأخطار الجسام كلها وهو باقٍ على قيد الحياة «كم عمره الآن؟». تكفي كل العقود التي مضت لتقضي على الرجل المحارب، كل الحروب التي خاضها، ابتداء بالحروب الداخلية مع القوميات والمذاهب إلى الحرب مع إيران، إلى الحربين الكبيرتين مع التحالف الدولي، يحتمل أنه اخترق الموت وتجاوزه، وحتى لو فعل فإن سنوات العمر ووهن الحياة والكفاح قد أرهقاه وهداه «لن أصدق ذلك بسهولة حتى لو تمنيت أن أصدق».

نهض الرجل لأول مرة منذ ولجت المكتب، خطا نحوها من الخلف وجاء أمامها، جلس قبالتها، تنفس ونظر نحوها فخفق قلبها وهي تتأمل عينيه الجاحظتين، جاءتها كلماته تحمل رنين الصدى القادم من وراء النهر الذي يشق المدينة المالحة التي احتضنت طفولتها.

«الفريق الركن حازم عبد الرحيم لا شيء أخفيه عن كريمة العقيد عبد الجبار الشريف، من فرط تتبعنا إياك كدنا نصل إلى اليأس ولكن

قدر لنا أن نمسك بأول خيط دلنا على هويتك من مصدر لا يخطر ببالك، المهم أنت الآن بيدنا ومصيرك تحدد معنا بإرادتك، لن نجبرك على العمل معنا ولكن إن قدر لك الالتحاق بنا فأكون صريحاً معك، لن تكون مهمتك سهلة أبداً لأنه عليك التنازل عن أحلام كل امرأة تحلم بالزوج والبيت والأولاد والعمل».

أخرج سيجارة من علبة فضية بجيبه وأشعلها ثم استأنف الكلام بعد أن نهض من أمامها وعاد إلى مكتبه.

«لن نكلفك عملاً لا اليوم ولا غداً وقد لا يأتي اليوم هذا، ولكن عندما تأتي تلك اللحظة قد تكلفك حياتك، فهل أنت مستعدة لتلك المهمة؟».

وقبل أن تفتح فمها بالرد قطع عليها الكلام مسترسلاً.

«سنهتم بك ونرعاك وستكونين تحت نظرنا».

سارعت بطرح السؤال الملح الذي قض مضجعها.

«ماذا عن أبي؟».

مرت برهة من الصمت المطبق الذي كادت خلاله تسمع صوت الجدران من حولها، تنهد وقال مبتسماً:

«هذا ما عنيته، قد تكلفك حياتك رؤيته».

«سيدي.. أنا مستعدة دفع حياتي لرؤيته ولو ساعة».

بعد ثانية من صمت مطبق، انزلقت بجرأة، موجهة سلسلة أسئلة سريعة.

«هل حقاً جبار الشريف حي؟ أين كان مختفياً كل هذه الفترة؟ ألم يبحث عني؟».

«كان مع غيره في الأسر ولدى هروبه كانت الكلاب المسعورة وراءهم، كنا بانتظار الساعة وقد حان موعد الاستحقاق، الحديقة بدأت تزهر يا يسرا».

وهي تمد يدها للرجل وتتسلم المظروف المغلق بدا الدمع يترقرق في عينيها ولاح بريق يلمع لمحه الرجل فيما كانت ترتجف من شدة التأثر، اقترب منها ووضع راحت يده على كتفها قائلاً بنبرة حازمة:

«لا يناسبك البكاء، شدي عزمك وافتحي المظروف وتصرفي بما فيه على هواك وكيفما تشائين لأنك بعد مدة وجيزة ستحملين حياتك على كفك كما حملها والدك».

عندما انزوت في غرفتها وقبل أن تفتح الظرف أعدت لها كأس فودكا مع قطع من الثلج ورشفت منه بحرقة وانكفأت على السرير، فتحت المظروف واستخرجت منه ورقة شيك على أحد البنوك، يتضمن خمسين ألف جنيه مرفق به ورقة كتب فيها ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾.

تحول رأسها إلى جبل مثقل بالتشويش والألغاز، كان الشيك المالي طلسماً وكانت الورقة التي تحمل الآية طلسماً آخر، دارت بها الأرض وانسحقت مشاعرها مختلطة بالكون وما يحويه، لم يعد أمامها مايك ولم تعد ترى خيال سمر يام، صغرت الغرفة من حولها

حتى تحولت إلى ثقب متناه يضيق بها وتكاد تختنق «جبار الشريف حي يرزق» لا تقوى على الاستيعاب، تغيرت كل الخطط والبرامج، ما عادت الجنسية البريطانية من أولوياتها ولم يعد الرفاه حلمها «الدنيا تغيرت يا يسرا»؛ تنهدت ثم عادت تنظر إلى الصك المالي وتعيد قراءة الآية القرآنية «ماذا أفعل في هذه الثروة؟». نهضت من مكانها، أخذت الحقيبة وأخرجت هاتفها النقال وأجرت مكالمة لمايك.

«أريد رؤيتك الآن».

قذفت بالهاتف على السرير وتجرعت بقية الكأس، أخذت حقيبتها وخرجت مسرعة إلى الشارع، كانت الساعة العاشرة وتسع دقائق عندما صادفتها نوبة ذعر خاطفة حملتها موجة البرد في الخارج، سارت بضع خطوات وتوقفت تتلفت حولها «أين ذاهبة؟».

حين التقاها مايك بادرها من غير أن يسألها موضوعها وقد بدا متوتراً وهو يقول مباشرة من دون تمهيد وبنبرة حازمة.

«من الأفضل ألا نلتقي بضعة أيام، وسوف أتكفل بكل شيء يخصك، لا تخمني الأسباب، هناك من يتعقبني ولا أريد أن ألصق بك أية مشاكل...».

قاطع نظراتها حين رأى التوتر والتساؤل يعلوان ملامحها، فغير دفة الحديث قائلاً وهو يضحك محاولاً إزالة القلق من على وجهها.

«ليس الأمر بالخطورة، تعودت الملاحقات، ثمة من يتربص بي وسوف أجتاز الحالة كالعادة ولكن من باب الاحتياط سوف أترك لك

بعض الضمانات ومنذ اليوم لن نلتقي حتى أخبرك متى؟ لماذا أردت رؤيتي؟».

أمسكت بيده مكتفية بالصمت فيما راح يبحث في دولاب المكتب عن شيء يبدو قد أخفاه منذ فترة، أخرج حقيبة سمسونايت وجلس على المقعد قرب المكتب وأشار لها أن تقترب.

«ماذا يجري من حولنا؟».

قالت تلك الجملة وهي تهز رأسها مستنكرة ما يحدث من زلزال جبار الشريف وصورة الفريق الركن الذي عادت تواً من لقائه «يا له من يوم طويل لا يكاد ينتهي»، قالت ذلك في سرها وتطلعت نحو الرجل الذي ظل مستغرقاً في البحث داخل الحقيبة، أخرج كتيباً صغيراً وسلمه مع مفتاح وهو يقبض على يدها قائلاً:

«هذا حساب خاص بك احرصي أن تحمي نفسك به إلى حين أعود أو لا أعود».

«لماذا هذه الثقة العمياء بي؟» تساءلت وقبضتها لاتزال على الكتيب والمفتاح، راعها في الوقت نفسه أن ترى الرجل في مأزق وهي التي أوشكت بعد سنوات الكراهية على التعلق به، شعرت برغبة في احتضانه وتقبيله، وهالها أن تسمع في يوم واحد حدثين مروعين، كان فكرها في بلدها ووالدها الذي لايزال الشك يحاصرها تجاه بقائه حياً حتى اليوم، وها هو مايك الراعي لها يوشك أن يختفي، أصبح الغموض كجبل، يلفها وهي لاتزال في صدمة مما سمعته رغم عدم إفصاحه عما

يجري حوله، انصب اهتمامها تلك اللحظة في شكل خوف وقلق بشأن الرجل فلم تجد مناصاً من سؤاله.

«هل أنت في ورطة مالية؟».

ضحك، وأخذها من يدها وراح يحدثها وهو يسير معها خطوات في المكان وقد بدا غير مكترثٍ لما يحدث له.

«لست مفلساً إلى هذا الحد، وعندما تفتحين حسابك ستغيرين رأيك، المهم أن تحافظي على نصيب لي إذا قدر لي العودة».

التفتت نحوه وشدته من ياقته وقد استسلم لها كلياً وقالت بحدة ورغبة في فهم ما يجري:

«ماذا تقول؟ ماذا يجري؟ من أنا بالنسبة إليك؟ أنت تقتلني بطريقتك هذه؟».

تركته وابتعدت وهي منفعلة، بعد لحظات هدأت أنفاسها فاقترب منها وقال ضاحكاً:

«دعك من العواطف، هناك ترتيبات ربما تتطلب منا نحن الاثنين السفر إلى سويسرا أو أذربيجان، ولكن قبل ذلك لدي رغبة شديدة للغاية في مضاجعتك الآن».

تبادل الاثنان النظرات، ساد صمت، لا تشعر برغبة في مسايرته، إذ كانت ضربات قلبها تحتدم بسرعة، كانت تسمع أنفاسه ولا تعرف مستوى قلقه، تعرف مدى قدرته على إخفاء انفعالاته والهروب من حقيقة مشاعره «إنه مايك الباكستاني» عرفته منذ الوهلة الأولى التي

كان فيها كما رأته، ذئباً مفترساً تهرب من أمامه الذئاب، ها هو الآن يتنازل لها عن حياته وماله بل يسلم لها رقبته ويختفي، بدا الأمر أكبر مما تتصور وتحتمل، لم تكن لها رغبة في مضاجعته الآن، كانت منهارة من الداخل، تتقاذفها قصة جبار الشريف والفريق الركن والآن مايك، كان الحمل يوازي جبلاً تحمله فوق كاهلها وتسير به «جاء التغيير زلزالاً مرة واحدة»، قالت ذلك وهي تتطلع إليه وقالت مبتسمة:

«ليست لي رغبة بعد كل ما سمعت».

«لا تهمني رغبتك، يكفي أنا أرغب فيك، بشدة».

لم يترك لها خياراً، اقترب منها وبدأ بنزع ثيابها، كانت ترتدي قميصاً أزرق من الشيفون الخشن وفوقة سترة جينز، مع سروال أسود ضيق، بدأ بخلع السترة فيما هي تبتسم وقد تركته يتصرف كما يريد، سحبها من يدها وألقى بها على الكنبة القريبة من النافذة وأزاح الستارة ليتطلع نحو الخارج.

«بودي لو أحد يشاهدنا من هنا نتضاجع».

«أنت شاذ اليوم بالذات».

بدأ بخلع سروالها ثم أزاح وسادة إلى جانب الكنبة كانت تعيقه وراح يلثم ساقيها حتى وصل إلى خصرها، فبدأ بنزع قميصها وشعر بحرارة جسمها تنبعث منه رائحة الصابون.

«أنا متعرقة».

«هذا ما يثيرني».

انغمس بشراهة في لثم كل أطرافها حتى وصل إلى سرتها فبدأت أنفاسه تتصاعد، كان كمن يعريها للمرة الأولى وقد بدا نهماً وهو يمر على أعضاء جسدها السائح على الكنبة.

«بدأت تثيرني».

«ستتذكرين هذه اللحظة لسنوات قادمة».

«أنت تخيفني الآن».

غرق فيها بشراهة متناهية حتى كاد يفقد وعيه، كان إحساسها تلك اللحظة أشبه بكرة من الثلج مشتعلة! كانت حواسها الجسدية معه وأفكارها في الزبير والأموال والفريق الركن ووالدها الذي إن كان لايزال حياً، فهي معجزة.

«مايك».

رد بحسم وأنفاسه تتلاحق.

«اخرسي».

****

(٧)

تراصت قطع الغيوم فجأة في السماء وبدت دكناء قاتمة تنذر بقدوم موجة صاخبة من الأمطار التي ما انبثقت تتلاحق مع تسلل فصل الخريف وتساقط الأوراق الصفراء التي تملأ الأرصفة والميادين، تسربت أنباء صحفية، عن وجود خلايا إرهابية نائمة في مناطق نائية من بريطانيا لم تتسلل إلى لندن بعد، أصابتها تلك الأخبار بالتوتر أثناء عودتها توّاً من سفرة خاطفة إلى سويسرا وبلجيكا، تعلمت من خلالها درساً، ألا تسافر مرة أخرى برفقة محام رجل، كانت التعقيدات قد ثارت أمامها بسبب محام شاب رشحته لها سمر يام، ظل طوال الوقت يثير الشغب والمشاكسات لأسباب هامشية لمجرد أن يثير إعجابها، خلصت من تلك السفرة السريعة بتجربة مفادها، ألا تعتمد على الشبان الجدد ذوي العواطف الانفعالية السريعة، كانت الخريطة التي أعدها لها مايك تعتمد على الهدوء والكياسة، وكانت من زاوية ثانية حائرة في حرية التصرف التي تركها لها الفريق الركن حازم عبدالرحيم، كان في قبضتها كنزان من الأموال، وفي جعبتها حسابات مصرفية هبطت عليها بمعجزة لم تكن سوى تقدير إلهي، اختارها لهذه المهمة التي بدأت

تتكشف لها تفاصيلها وإن ظلت خيوطها التفصيلية غائرة في تمويه مقصود، ظهرت لها من خلال الوسائل المتسلسلة التي تتوالى وضوحاً كلما أوغلت في القاع، كان هناك من يراقبها ويرسم لها الحدود من دون أن يظهر في الصورة، ظلت تفكر في تفاصيل سفرتها وتدقق الوقائع التي مرت بها طوال الليلة، إلى أن استفاقت عند الفجر على دوي الرعد وقد اخترق حيطان الشقة وأحدث رعشة فيها لم تتبين ما إذا كانت نتيجة البرودة المنبثقة من الغرفة أم نتيجة وميض البرق الحاد المصاحب لدوي الرعد الصاخب، حال شعورها بالوحدة مع إحساسها بحيازتها للأرقام المالية الفلكية من السيطرة على نفسها، لم يكن خوفاً بقدر ما كان قلقاً مصاحباً للعتمة الكامنة في أعماقها، تمنت لو يحدث كل ذلك، وبقي مايك، تمنت لو لم تسمع عن جبار الشريف بأنه على قيد الحياة واكتفت من الدنيا بالجنسية البريطانية والعمل خادمة بالغرف الفندقية، تتلصص على محتويات النزلاء، تتعقب عذاباتهم وتتفحص نفاياتهم وتجري وراء فضائحهم، وفي الوقت نفسه تتخلص من كل متاعبها من خلال اللهو العبثي رغم الخوف والقلق، تكتفي بوجبتها الفقيرة وتندس في الفراش بعد كأسين من الفودكا، لا تملك من الدنيا سوى الجنسية التي كانت محطة حلمها الأخير، ليست في وارد العودة إلى الوراء فخلف هذا العالم السميك تكمن الآن مغامرتها الأسطورية التي لا تعرف ولا تتكهن أين ستقودها «المهم أرى جبار الشريف». ظلت أسطورته مهيمنة عليها حتى بعد الأسابيع الصعبة المقفرة التي

احتُجزت خلالها في بناية بضواحي لندن وتقطعت أنفاسها وكادت تخر مغشياً عليها نتيجة الساعات الطويلة التي استلمتها فيها بعض الوجوه الغريبة والمتزمتة في التلقين والتثقيف والتدريب، كادت تنسى وجوههم وأصواتهم في المساء بعد أن حفظتها في الصباح الباكر، انقطعت عن الشراب وإن ظلت تسرق الوقت للتدخين، وتتملص من الأرقام والحسابات والأساليب الملتوية، التي اكتوت في إثرها نفسيتها، كان الشيء الذي صبرها على المضي قدماً هو العودة إلى الزبير ولو لساعة ورؤية جبار الشريف وإن خامرها الشك في ذلك لحظات اليأس والوهن.

جرت العملية كلها بسرعة فائقة وبدون حذر كما لاحظت، إذ كان كل من المدربين وأجهزة الإنترنت قد أنهت الإجراءات كما لو جرى الأمر معها في فيلم سينمائي. لم تلاحظ أيّاً مما درسته في الجامعة أيام حلب قد سار في هذه العملية بحسب المعلومات التي تملكها، بقدر ما كانت الأصابع السحرية في مختلف المكاتب التي مرت بها ومن خلال الإنترنت أصبحت هي المالكة لثروة لا تعلم كيف انتقلت إليها.

«هل هي مكونة من سبعة أرقام أم ثمانية».

****

(٨)

علمت بأنه كان العشاء الأخير مع مايك، ودت لو غادرت قبله، حرصت على إخلاء روحها الداخلية من النسيج الذي يحيط بها من تلك الشبكة المحكمة من الأفكار والمشاعر التي انزلقت فيها، نزعت في النهاية الصور من رأسها ومضت تقطع الطريق وحدها بلا بوصلة سوى حدسها ومجازفتها التي بدأت توّاً.

خلال أيام خاطفة حملت معها الحماسة والتوتر، أزاحت عنها كابوس الخوف وحل مكانه شوق حميم إلى رائحة الزبير ومنظر بساتينها وعبق شوارعها ورافقتها صورة وجه أبيها، شدها الوله لتحمل الساعات القاسية التي خاضت خلالها تدريباً شاقاً على أيدي خبراء لم تعرف من لكنتهم سوى اللهجات المحلية للجزيرة العربية، كانت متوجسة في البداية، لكنها ومع الوقت بدأت تقتحم عالماً معقداً وخيوطاً متشابكة من الشركات الواجهة لغسل الأموال، وأساليب ملتوية لشراء بضائع غير مدرجة في السوق، وعلاقات عامة للتعامل مع شركات أجنبية باستخدام أسلوب المزايدة والمقايضة، تعلمت طرائق شراء السلع بسعر منخفض وإخفاء السعر الحقيقي في حسابات سرية

ثم عطفت على قائمة البنوك الأقل تزمتاً في التعاطي مع الحسابات السرية، وأخيراً تدربت على كيفية بناء سياج محكم للسرية على الحسابات. حتى طرائق غسل الأموال من خلال أساليب توظيفها غير النظيفة في شركات التبديل عبر شراء سلع لمصلحة شخص زائف أو باسم شركة غير مدرجة انغمست فيها، واطلعت على قواعد مكاتب خدمات الجمارك وفرض الضرائب وأساليب تتبع البضائع والأموال.

«لن تعملي في هذه المجالات أبداً، هذا لمعلوماتك فحسب».

كان الخروج من الزبير بمثابة الخروج من الجنة وأصبحت العودة إليها تتطلب رحلة دامية مثقلة بالأهوال، هكذا تخيلت الصورة وهي تستجمع شتاتها ومن حولها بضعة أفراد خرجوا جميعهم من أتون باحة القاع السفلي للعالم ليرافقوها في رحلة الضباب السديمي «كيف هي الزبير اليوم؟». أطرقت تفكر في أسئلة الإجابة عنها صعبة وشائكة، «سأترك مصيري بيدي وأمضي». أغلقت حقيبتها وخرجت نحو مطار هيثرو تحمل تذكرة سفر درجة أولى مفتوحة وجواز سفر بريطانياً، ضحكت وهي تعيد شريط دخولها بريطانيا من دون جنسية سوى أوراق متهرئة، قبعت وراء الأسوار لأيام، احتجزت في ملاجئ حقيرة، انهالت عليها الأسئلة، كانت مشردة ضائعة سلبها الجوع روحها قبل أن يطيح كرامتها الإنسانية، خرجت إلى العالم صفر اليدين ودخلتها اليوم بمعجزة من تقدير الغيب.

بدا الطريق من «كينغستون» إلى مطار «هيثرو» مختلفاً عنه قبل

أربع سنوات، شعرت بذلك في إحساسها الداخلي، وفي نظافة السيارة التي تحملها، الساعة تشير إلى الثانية عشرة ظهراً، تذكرت بأنه الوقت نفسه تقريباً الذي جاءت فيه للمرة الأولى، ربما بفرق خمس عشرة دقيقة، سرحت عينيها وهي تقترب من سور المطار، بدت شمس بريطانيا على وشك أن تغيب رغم أن الوقت كان ظهراً «وداعاً بريطانيا العظمى» قالتها في سرها وهي لا تعلم إن كانت ستراها مرة أخرى، لكنها ابتسمت وهي تعلم بأنها تعود إلى الزبير أو إلى أيّ مكان من أرض الوطن ومعها الجنسية البريطانية «أنا يسرا البريطانية».

****

يسرا الإرهابية

(١)

في مطار دبي الخاص بطيران الإمارات شيئان رددا الصدى بداخلها، أغنية نجاة الصغيرة ما أحلى الرجوع إليه التي طالما كانت تستمع إليها إبان فترة الجامعة بحلب، والشيء الآخر هو مدينة دبي نفسها، التي خرجت منها لاجئة منكسة الرأس كادت تكون حافية القدمين، بعد احتجازها في السجن، لتعود إليها بجنسية بريطانية مرفوعة الرأس وبحوزتها مضخة مالية وشبكة تجنيد سرية، عبرت بوابة الجوازات ولم يخفق قلبها أو تتلبد مشاعرها، تذكرت عبارة الفريق الركن حازم عبد الرحيم «واجهي مصيرك بشجاعة، فالله وحده يعلم مصيرك». وضعت تلك العبارة على صدرها واستوعبت التدريب الذاتي والنفسي وحفظت قائمة الأسماء من دون أن تدونها في ورقة وحفرت رسم خريطة طريق حياتها القادمة كما تم التخطيط لها من دون أرقام هواتف ولا أسماء أشخاص ولا عناوين مكتوبة، كل شيء في القلب « قلبك هو خزانة أسرارك» عبارة سمر يام وهي تودعها آخر مرة وقد زرعت في رأسها كنز الأسرار وخريطة الطريق «إلعبي كيفما

شئت ولكن لا تدعي أحداً يقترب منك ويزيل الحواجز حتى تصلي إلى هدفك، تعلمين وحدك أين؟».

تدربت على ألا يكون أحد في الكون يتوقع منها الحركة التالية «اجعلي حركتك القادمة سراً عن أقرب من لديك، لا تثقي حتى بجبار الشريف».

«يا الله» هكذا ردت للوهلة الأولى قبل أن تستوعب المعنى «ربما لا يكون جبار الشريف هو نفسه والدك».

العودة إلى دبي هذه المرة كانت مسرحية، استعانت بلعبة الأبراج التي أتقنتها خلال سن المراهقة بالزبير، أبعدتها لندن عن تلك الأسرار الفلكية وها هي تستعيد مع الدور الجديد سحر تلك الأيام «من أين أبدأ؟».

حركت سر الأبراج وجلبت سحرها الرباني المكون من حلقات الماء والأرض والنار والهواء، نشطت خيالها وبدأت باختراع حلقة، وهي حلقة الثلج بحكم كونها من مواليد ديسمبر، وجعلت من برج القوس وهو البرج التاسع في دائرة الأبراج الذي ينتهي به فصل الخريف برجها العاجي الذي لا يصله أحد ممن يحيطون بها، ولن تسمح لأي كائن أو فضولي بالتسلل إلى عالمها أو يقتحمه، ولهذا اختارت فندق «أتلنتس» للإقامة فيه بما كان يمثله من حلم في المرة الأولى حين وطئت قدماها دبي، أول ما نفذ إليها وهي تخطو في المطار رائحة المكان تذكرها بشريط صور الأمس، وهي صور ذات مرارة عالقة بذهنها،

صممت على محوها بصور أخرى تتشكل في بالها. لم تعد هاربة من كنف الوحوش البشرية، لقد حان موعد استرداد الوديعة والانتقام، لم تعد ذكرى الزوج المغتصب، محتها الأرقام الفلكية والمهمة السرية، هناك فقط رسم قديم للرجل الذي تزوج بها قبل النزوح إلى دبي أرض العسل، وجدته في مال معجون بالخطيئة والبذخ، مغموس بالوجع الناجم عن رضوخها في قاع بناية مكونة من ١٢٠ طبقة اسمها «برج خليفة». لم تنفع كل تلك السحب الرمادية وهي تعبر الطبقات العليا من البناية في محو ذكرياتها، حتى رائحة الصنوبر المنبعثة من حمامات الغرف العليا لم تستطع محو آثار ليلة واحدة اغتصبت من دبرها من قبل الزوج الطارئ، لتهرب بعد أن كرهت عادته الشاذة حين يقرأ القرآن ويصلي ركعتين ثم يغتصبها كل ليلة.

****

(٢)

لم يغب عن بالها مايك، وهي تقضي أغلب وقتها ليلاً لتناول العشاء بالمطعم اللبناني بفندق «أتلنتس» المقيمة فيه، كانت تستغرق في العادة، أكثر من أربعين دقيقة لتكمل زينتها، لقد كانت ترتدي خلال الليل قميصاً وردياً فاتحاً أو قميصاً أزرق فاتحاً في بعض الليالي، مع سترة خفيفة سوداء، وتنورة حمراء عند الأسفل، كان الوقت الذي تبدأ فيه سهرتها، عادة ما تكون الساعة الحادية عشرة، شعورها دائماً ما يكون خليطاً بين الامتعاض من الوحدة التي ظلت فيها بضعة أيام تنتظر شيئاً يحدث، ولكن لا شيء يحدث سوى الهدوء المتواصل من حولها رغم الضجيج والازدحام اللذين يغمران دبي المدينة ويحيلانها إلى دوامة من التوتر. منذ وصولها وهي تقضي الأيام والساعات تتحرك في الأرجاء بلا تحديد لهدف أو غاية، الشيء الوحيد الذي يحدث من حولها هو تحرش بعض الرجال بها كلما وجدوها وحيدة تتناول وجبة الغداء أو العشاء، أما الفطور فكانت تكتفي بوجبة خفيفة سريعة تصلها من خدمات الغرف، ثم تبدأ بعدها الخروج إلى البهو الخارجي تتجول فيه أو تذهب إلى بعض المجمعات التجارية تقضي ساعتين أو ثلاثاً

لتعود بعد أن يتم تنظيف مكان إقامتها لتبدأ بإلقاء نظرة على المكان لتتأكد من أن أحداً لم يعبث به كما كانت تفعل أيام الخدمة، كانت تبتسم في سرها وتتساءل عما إذا هناك من يمارس هذه اللعبة غيرها في هذا العالم الذي بدا لها واسعاً ومملاً.

بعد أن تعود إلى الغرفة، تبدأ بالقراءة التي اعتادتها منذ وصولها إلى المدينة وقد بدأتها بكتاب (من القلب مباشرة) لجاك ويلش الذي أخذت تلتهمه رغم حجمه الكبير ثم أتبعته برواية (الزهرة الزرقاء) لنورا روبرتس وهي رواية تتحدث عن نساء ثلاث يلتقين على منعطف طريق من حياتهن، تبحث كل واحدة منهن عن مستقبلها في النجاح، بعد أن أنهت الرواية خرجت إلى الفسحة الخارجية من الفندق تستنشق الهواء وقد صممت على فكرة «سأكتب سيرتي الذاتية، لربما تصبح رواية ذات قيمة تذكر». واصلت القراءة والاستمتاع بالوقت رغم الضجر وبدا وكأن حياتها ستجري على هذا المنوال، تذكرت عبارة حازم عبدالرحيم «شدي عزمك وافتحي المظروف وتصرفي بما فيه على هواك، وكيفما تشائين لأنك بعد مدة وجيزة ستحملين حياتك على كفك كما حملها والدك».

درجت كل مساء تقريباً على الخروج من الفندق لترتاد الصالات والفنادق الأخرى، أخذت تمنح الرجال ممن تستلطفهم بعض الاهتمام وبدأت بالتحدث إلى البعض والتعرف إلى النساء والرواد، ومشاركة البعض في جلساتهم بعد الاندماج العفوي الذي يفرضه

الإفراط في الشراب، في كل ذلك، لم تغب عن بالها أجواء لندن ولم تنس ساعة التفكير في جبار الشريف ومايك الباكستاني «ترى أين جرفه الضباب؟». غلفت جوهرها المضطرب والمتحفز بقناع من اللامبالاة وذرت عليه زينة مفرطة من الماكياج ووسعت أفقها نحو الرجال المتربصين بها، وأخذت تطارد الأشباح كلما وجدت فرصة التلاعب بهم، وقد ساعدها المال المتدفق على الانغماس بما نصحها به الفريق الركن، مدركة في أعماقها وجود حكمة مما أوصاها، وقد أيقنت من ذلك ذات ليلة وهي عائدة متأخرة وقد أسرفت في الشراب وتمكنت من الوصول إلى المصعد بصعوبة، وبلوغ غرفتها المزدوجة وقد خارت قواها، لتجد أسفل الباب من الداخل قصاصة ورقة صفراء كتب عليها «تسيرين في الطريق الصحيح، أكملي مشوارك»، هذه العبارة كادت تنتزعها من حالة الثمالة لأنها أول اتصال سري يتم معها، مكثت بضع دقائق تتأمل العبارة لتستخلص منها ما يوحي بعمل أو تحرك، لم تر في ما تقوم به أي شيء يوحي بالإنجاز، ومع ذلك جاءت الإشادة بما تفعله، وهو ليس سوى سهر وتسكع ولهو يستهلك المال الذي تشعر بأن ثمة من هو أحق به منها «ممن الورقة؟ مايك أم حازم أم سمر؟». هذا وحده كفيل بتشويشها وخلط الأوراق من حولها، مضت إلى الحمام، نظفت أسنانها ثم ألقت بجسدها على الفراش من غير أن تغير ملابسها، كانت منهكة وثملة ومشوشة.

يسرا جبار الشريف القرمزي، حينما جاءتها بطاقة الدعوة الرسمية

لحفلة الدعوة بمرور الذكرى الرابعة لافتتاح برج خليفة تساءلت «من هناك يحاول اللعب معي؟».

انبثقت تلك الدعوة من فضاء غير مألوف، كانت بطاقة الدعوة مفاجئة لها وهي مرفقة في الصباح مع غصن زيتون أخضر، تلقتها مع صينية الشاي والفطور المكون من بيضتين مسلوقتين وإبريق شاي أخضر وقطعتي خبز نخالة محمصتين مع زجاجتي عسل صغيرتين وعلبة عصير بلو بيري، راحت تتأمل الدعوة وتتذكر تلك الليالي التي قضتها قبل سنوات في هذا البرج، لقد مرت تلك السنوات وها هي السنة الرابعة على ذكرى الافتتاح، أما هي فقد حسبتها خمس سنوات من عمرها في بريطانيا، كيف حدث ذلك؟ كيف حسبتها وأين أخطأت في الحساب وهل تأخرت الجنسية لأنها كانت تحسب الأيام مضاعفة لتنتهي من الجحيم؟

كان برج خليفة بالنسبة إليها يعد إحدى أكثر الواجهات الخيالية في العالم، وقد ارتبط في ذاكرتها بمرارة اللجوء القسري الذي اضطرت إليه، انبثقت تلك الومضة من الألم ذات صباح وهي ثملة مترنحة، ضائعة تقف على قمة الهاوية حينما شاهدت شروق الشمس مذهلة تلفح مدينة الأحلام دبي، لينتهي بها المطاف في سجن النساء بدبي، كادت تسيل دمعة من عينيها لكنها تذكرت الأرقام المالية الفلكية والمهمة السرية فأشاحت بوجهها كأنما هناك من يراقبها، تجرعت كأس فودكا صرفاً بعد أن نهضت وتركت صينية الإفطار مكانها.

****

(٣)

كانت أجواء السنة الجديدة مخيمة على المكان وآثار الاحتفالات عالقة هنا وهناك من أسفل البرج حتى قمته، وسط الحشد الدولي للبشر والوجوه، وضمن الحلقة الصغيرة المدعوة التي لا تعرف هي نفسها الطرف المعتم الذي أرسل إليها الدعوة؛ رأت كل شخص تلك الليلة يشبه الآخر، الرجال يتشابهون رغم حجومهم وبشرتهم وبدت النساء كأنهن قطعة واحدة رغم كميات الأصباغ والألوان التي تلطخ وجوههن، بدت يسرا القرمزي تلك الأمسية مشعة كأنها نجمة سينمائية، إذ تضاءل كل الشحوب وغادرها الذبول الذي اكتسى بشرتها عبر السنوات المنصرمة، لمع وجهها ببريق خاطف يومض بالحيوية وبدت عيناها متقدتين تشعان حياة، قوامها برز نافراً كأنه خلق من جديد وساحت خصلاتها على جبينها ناعمة محت بقايا الغبار العالق جراء عملها بحمامات الفنادق «والله واحلويتي يا يسور»، قالتها في سرها وهي تخفي ابتسامة خشية أن تسقط ويلتقطها متطفل وسط الحشد، اعتادت منذ حلت بمدينة دبي وإدمانها السهر والتسكع بالفنادق

الاختلاط بالحشود والاندماج مع السكارى والمتطفلين، وأدركت مفتاح التخلص منهم ولكنها في حالات عندما يسوء المزاج تود لو تلقي بهم في الجحيم. الليلة بدت منفتحة الأسارير ومستعدة للانفلات من كل القيود، يدفعها تحريض سمر يام التي اختفت من الدنيا كالشبح «أين يذهب كل الذين أعرفهم؟». اندفعت تتلقى ملاطفة كهل بريطاني ميزته من لهجته المقعرة، وعندما عرف أنها بريطانية ما انفك يدور وراءها كالحارس وهو يتلفظ بعبارات الغزل ما دفع أحدهم وقد بدا من لهجته مصرياً لأن يعترض طريقه وقد أوشك الأمر على الانفجار لولا تدخلها ومطالبة البريطاني بالكف عن ملاحقتها فيما تهيأ الآخر لاستلام مكانه وفتح حوار معها لولا اقتحام صوت أحد العاملين في المكان يعلن بدء توزيع الهدايا بمناسبة ذكرى افتتاح البرج، ضج المكان بالأصوات وتعالت الصرخات من دون تمييز.

كان الجو خيالياً وبدا كما لو أنه من ألف ليلة وليلة، أدارت الخمرة الرؤوس وتدافعت الأبدان تتحين حيزاً تتنفس من خلاله، بدت ليلة مجنونة عندما فوجئت بشاب في مقتبل العمر، تكسو وجهه لحية خفيفة وتقدح عيناه شهوة وتبرز ملامح وجهه وهي تنم عن جسارة جامحة يقترب منها ويهمس في أذنها اليمنى وسط الضجيج بعبارة جريئة.

«أحبك منذ رأيتك».

كانت جرأة متناهية منه وهو يكاد يلتصق بها ويلامس جسدها في

خضم الزحام ويهمس لها بتلك العبارة المباشرة التي تنم عن جموح طائش، ودت لو تصرخ في وجهه وتدفعه بعيداً لتفضح جرأته لكنها تماسكت وقالت بعبارة جافة وهي تشيح بوجهها عنه:

«تجاوزت الخط الأحمر يا سيد».

ظنت أنها بهذه العبارة سوف تغلق الباب في وجهه ولكنها استغربت إصراره وحدود طيشه عندما لف المكان على هيئة دائرة ليعود إليها وقد علت وجهه ابتسامة مصطنعة.

«لن تفلتي مني، أنا واقع في هواك».

فاجأته بمحتوى الشراب، دلقته على وجهه من كأسها، واستغربت وسط دهشة الحضور في حيز الدائرة كيف أنه يبتسم لها بتلك الابتسامة التي لا تتغير ولا تدل على إحساس وكأنه يستدرجها لمزيد من الغضب، انسحبت من أمامه وقد شعرت بانتصار إرادتها وهي تملك زخماً هائلاً من جموح التصرف من دون أن يطرف لها جفن، دهشت من جرأتها تلك التي اكتشفت نفسها من خلالها وقد خرجت من قشرة الذعر الذي كان يحاصرها طوال السنين الماضية وها هي تقف اليوم على أرض صلبة تسكب الكؤوس في وجوه من لا يعجبها من غير توجس أو تردد، لم تعبأ بالحضور ولا بردات الفعل ولا بأي من مشاعر الخوف «لم يسبق لي أن كنت بهذه القوة والجسارة، أحسنتِ يا يسرا» قالتها كأنها تخاطب امرأة أخرى غيرها.

مع توالي الدقائق زاد الصخب وتصاعدت الصرخات التي

بدون معنى مع بدء توزيع الهدايا، كانت قمة برج خليفة تلك الليلة تشق الفضاء وتصل بالحضور إلى العالم الأعلى كما بدا من سماتهم المبهورة بالليلة الخيالية، وبمرور الوقت شعرت مع بعض الحضور بدوار أشبه بدوار البحر إذ بدا ما يشبه الغثيان يجثو فوق صدرها فقررت التدرج في الانسحاب، اتجهت نحو زاوية قريبة من باحة الخروج قرب المصعد، فتحت حقيبتها وأخرجت هاتفها وبحثت عن رقم السائق وقبل أن تضرب الرقم همس الشاب نفسه في أذنها مرة أخرى.

«لا يناسبك الغضب، بعد مدة وجيزة ستحملين حياتك على كفك كما حملها والدك».

تحول رأسها مرة أخرى إلى جبل، كما حدث بالمرة الأولى وهي قبالة حازم عبد الرحيم؛ إنه مثقل بالتشويش والألغاز، انفتح الطلسم وخرج منه العفريت، دارت بها الأرض وكأن هذا البرج الهائل يميل إلى السقوط، تزاحمت مشاعرها وبدا لها الكون ضيّقاً لا يتسع لأنفاسها، لم يعد أمامها سوى النظر إلى عينيه هذه المرة مباشرة لمعرفة الخريطة السرية «كيف وقع هنا؟» قالتها بسرعة خاطفة ومن دون تفكير داخلي، أسعفها الشاب من خدر قدميها وتصلب شرايينها عندما أضاف مسترسلاً.

«عبدالعزيز، تثقين بي لو عرضت أن أوصلك؟».

أجابت عيناها، وهي تردد بصوت واهن.

«عرفت مغزى العبارة».

وضع إصبعه على فمها إشارة الصمت.

****

لم تتخيل يسرا القرمزي نفسها ثملة في غرفة وحيدة مستلقية على الفراش مع شاب وسيم تنتهي بهما الليلة ولم يحدث بينهما شيء يذكر، مما يقع عادة في مثل هذه المواقف؛ الغرفة معتمة طقسها بارد نسبياً ورائحتها الزكية تعكس الجو الذي تعيش فيه المرأة الشاردة الذهن، كانت الساعة الخامسة وأربع عشرة دقيقة، شاشة التلفاز من دون صوت تعرض فيلماً وثائقياً عن صيد الكافيار، وظهر ضوء متقطع ينير زوايا الغرفة من حين إلى آخر نتيجة تغير مشاهدة الفيلم وينعكس على وجه الرجل المستلقي على الكنبة الطويلة بمحاذاة السرير الذي استلقت عليه المرأة الواهنة، ظهر أثر الكحول على الاثنين في ترهل الحديث بينهما الذي أوشك على الانقطاع.

«ألا تود انتزاع غفوة من النوم؟».

سألته كمن تريد هي التي تود ذلك، لكنها بادرته بالسؤال تحسباً من أن تتركه وتنام، لاحظ الشاب ذلك من صيغة سؤالها فبادرها قائلاً بشيء من الرجاء:

«نامي ولا تبالي بي، فقد تصحين ولا تجيدينني حولك، ولا تنسي شيئاً مما اتفقنا عليه».

مرت لحظة صمت ساد خلالها الهدوء الذي يكسره بين فينة

وأخرى ضوء التلفاز عندما يشع فجأة حاداً، لا يبدو أن أياً منهما لاحظ ذلك أو شعر به، كان الخدر يأخذ منهما ويبدو في صوتهما المتقطع الذي لا يكاد يطول عن عبارة أو عبارتين.

كانت متمددة على السرير وظهرها مسنداً إلى وسادتين أو ثلاث، وفيما ساق واحدة منكفئة والأخرى مستقيمة، وقبل أن تغمض عينيها أدخلت راحت يدها من أسفل صدريتها وحشرتها في إبطها ثم سحبتها ووضعتها على أنفها لتشمها، كانت تخشى أن تنبعث منها رائحة العرق أو الدخان، فمنذ أن خرجت إلى الحفلة عند المساء لم تتوقف عن التدخين، ولم تغتسل حتى عادت واكتفت بدخول الحمام عدة دقائق للتبول وعادت مكانها مثقلة بكمية الكحول والدخان وقد أكملت الساعات الثلاث المنصرمة في الحديث مع الرجل في تفاصيل، لشدة ما انتظرت الشهور الماضية لبلوغ هذه اللحظة التي تدرك من خلالها أحقيتها في المصاريف الباهظة التي صرفتها من دون أن تقوم بشيء، ظلت تشعر بوخز الضمير وهي ترى نفسها تعيش وسط هذا البذخ من أموال لا تعرف إن كانت من حقها، ولا تعود لمن هم أحوج منها إليها. كان حسابها من مايك منفصلاً، وخمنت أن يأتي يوم ولو بعد حين يعود من وراء الضباب ويطالبها أقلّه ببعض منه؛ لقد وضعه في حسابها لخشيته من المصادرة، هكذا خمنت ولكنها عادت وافترضت بأنه على علاقة بالطرف الآخر الذي يمثله الفريق الركن من غير أن يظهر أي منهما تلك العلاقة، أفكارها كلها عبارة عن تخمينات حتى

تلمست بعض الخيوط عندما كشف لها عبدالعزيز قبل قليل بعض الدهاليز التي يجب المرور بها، وتشمل السفر إلى باكستان وشراء سلع لمحال تجارية تملكها ومسجلة باسمها، ربطت بين مايك وهذه المهمة وضحكت في سرها قائلة بسخرية داخلية؟

«طريقك طويل يا جبار الشريف».

إثر الليلة التي تلت الحفلة الصاخبة، ورغم قيامها بمسح عشوائي في ذاكرتها حول الأسماء والأشخاص وكل من يحيط بها منذ جاءت إلى مدينة دبي بحثاً عن ملامح شبح يقف وراء كل ما يجري، إلا أنها ألغت ذلك من ذاكرتها واستجمعت خيوط الخريطة الجديدة التي رسمها الشاب، وغادر كالآخرين الذين تلتقيهم ويختفون بعدها من دون أثر. تلت تلك الليلة إشارات مبهمة اتبعتها وقادتها إلى شخصية خرافية أشبه ما تكون بإحدى شخصيات «هاري بوتر»، فسرت الأمر بأن هذا العالم السري الذي تعيش فيه قريب من عالم الأساطير، وظهر ذلك واضحاً في المرأة التي قادتها إلى قصر حديث تسكنه شخصيات أشبه بالأشباح يقع خارج مدينة دبي وعلى طرفها الصحراوي.

خرجت من صمتها واندفعت تتساءل؟

«متى سأرى الشريف؟».

ردت المرأة التي ترتدي النقاب بحدة وبصوت أثار في يسرا التوتر.

«لا علم لي بما تقولين».

كان الكلام بين المرأتين مقتضباً إلى أن دخل رجل أثار انتباهها وجلس على الكنبة وساد في إثره الصمت؛ الصالة المستطيلة بدت فارغة من الأثاث باستثناء دولاب كبير من الألمنيوم أخذ حيزاً واسعاً من المكان، تنهد الرجل القزم ذو الشنب الأبيض المجعد والتفت نحو يسرا التي كتمت ابتسامة لا توحي بشيء سوى شعور ينبئ بغرابة الموقف رجل قصير وامرأة منقبة «أين عبدالعزيز الشاب الوسيم مرتاد الصالات الليلة؟»، تساءلت في سرها وهي تتأمل الوجهين المقعرين وقد ساورها حدس عن الوجه النسائي الذي وراء النقاب، خمنت شكله وتوقعت ألا يكون وجهاً رقيقاً، تخيلت وراء الحجاب الأسود وجهاً قاسياً معتمدة على صوت المرأة الجامد والمقتضب «لماذا يُنَظمون نساء نزعت منهن الرحمة؟» أثارتها الخاطرة وهي تتصور الوجه من خلف النقاب، فيما بدأ يزول الشك حول الرجل الذي تحيط به هالة ضبابية سببها تغيير ملابسه «أين رأيته من قبل؟». إنها دنيا ضيقة ويكاد يحيط بها لغز كبير «كيف تدار الأمور في هذا الكون؟» كاد يفطر عقلها وقد رأت المستر مسعود الموظف بقسم الحسابات بشركة الخرسانة المسلحة التي يديرها سعيد الصراف في بريطانيا، هذا هو بلحمه وشحمه ولكن مع الشنب الأشعث والذقن الخفيفة «يا له من عالم صغير مخيف».

«ستأخذك السيدة إلى شخص يدعى ...».

قطع عبارته وتوجه إلى المرأة المنقبة قائلاً بلهجة آمرة:

«إلى ياسر».

«متى تصحبونني إلى جبار الشريف؟» ودت لو تصرخ بتلك العبارة وتنتهي من هذا الانتظار اللاهث الذي يستنزفها، خلطت بين المهام الموكلة إليها ولكنها ظلت منتظرة الفرصة التي تقف أمامه إن كان حياً يرزق لتسأله «لماذا هجرتنا؟».

تأملت المرأة المنقبة من الزوايا كافة، قلبت الصورة، تخيلتها بلا نقاب، نزعت عنها ملابسها الخارجية، وانتزعت منها الهالة الضبابية، جردتها من صوتها الجهوري وسرحت في النتيجة، رأت امرأة بلا قلب في جسد رجل تقودها في صحراء قاحلة مليئة بالوحوش من الرجال، لا أحد يقوى على مجابهتها ولا التجرؤ على الاقتراب منها وإلا لقي حتفه، أفاقت من هذه الخاطرة العابرة على صوت المرأة نفسها تجادل مسعود المحاسب اللندني الذي يبدو أنه عرفها وتجاهل أن يعلن ذلك أمام المرأة الفولاذية.

«لن نسافر على الطيران نفسه، على كل منا أن تركب طائرة مختلفة».

رضخ لها مسعود وقد أساءها أن تجد الرجل يستسلم لها، وزاد من استيائها أن الاثنين لم يأخذا رأيها في الرحلة، فحتى هذه اللحظة لا تعرف طبيعة الرحلة ولا إلى أين ومتى وكيف؟ دارت برأسها كل تلك الأسئلة عن تفاصيل الخطة من دون أن يكون لها رأي، خرجت عن صمتها وقبلت التحدي قائلة بصيغة سؤال استفزازي:

«أليس من حقي معرفة التفاصيل؟».

ردت المرأة المنقبة مستبقة الرجل بلهجة توحي بالخدمة العسكرية.

«عندما غادرتِ منزل اليازجي بالزبير هل عرفت حينذاك التفاصيل التي مرت بحياتك كلها؟».

أغمضت يسرا عينيها وتخيلت المرأة جارة كانت لهم، منزلها مجاور لمنزلهم، وقد تعرفها وصادفتها مراراً في الطرقات وتبادلت وإياها النظرات وربما هي واحدة من صديقات والدتها، ولعلها أيضاً دخلت منزلهم وأكلت معهم «كل ساعة يثبت لي العالم كم هو صغير».

****

(٤)

في مكتب فخم يطل على الشارع الرئيسي لمدينة دبي ومن برج ارتفاعه تسعون طبقة تضيئه أنوار فسفورية تبعث على السأم والتوتر، وقعت يسرا القرمزي على أوراق ومستندات صفقة سيارات فرنسية مع وكالة بلجيكية مقرها الفرعي في باكستان، بمبلغ مليونين وثلاث مئة ألف يورو، بعدها تناولت المشروبات مع ممثلين للشركة أحدهما مصري الجنسية والآخر هولندي من أصل عراقي، تعرفت من خلال لهجته أنه من سكان بغداد ورأت في ذلك إشارة أخرى إلى ترابط الخيوط، كان إلى جانبها عبد العزيز باعتباره مساعدها وكتبت الشيك ونهضت تصافح الرجلين وانتهى التوقيع وهي لا تعرف سوى أنها قامت بشراء مجموعة سيارات لتستخدم في خدمة توصيل المساعدات للاجئين. كانت العلاقة بين ثلاثة أطراف هي والمؤسسة الخيرية للاجئين والشركة البلجيكية الوكيلة للسيارات. بعد شهر من توقيع تلك الصفقة فاحت رائحة غريبة تحوم حولها من خلال الوجوه

الشاذة، تمر بها وتترك أثرها في نفسية متورطة في الشك. ساورتها الشكوك في البداية ثم سرعان ما انخرطت في دوامة النسيج العنكبوتي الذي احتواها، اقتنعت بأنه الطريق المؤدي إلى الزبير وتكفيها سنوات الحرمان والتشرد التي عانتها «هذا وقتي». راحت تلم من حولها الأشخاص المتميزين يساندها إحساسها الداخلي نحوهم بالتعاطف، ولكنها في الوقت نفسه عانت شعور الفقد؛ فسرعان ما يختفي هؤلاء الذين ما أن يظهروا على السطح بضعة أيام حتى ينتهي بهم المطاف أشباحاً، كانت لاتزال تقيم بالجناح الخاص بفندق «أتلنتس» من خلال عقد معهم، ولكنها فضلت قضاء ساعات النهار والليل خارج الفندق. كانت علاقتها بالفنادق مزدوجة، فخلال السنوات التي عملت خلالها بالفنادق ذاقت مرارة العمل وانحطاط كرامتها وهي تغسل الحمامات وتزيل قذارة النزلاء، راحت عندما تستلقي على الفراش الوثير «بأتلنتس» تتخيل نفسها وقد أعدت السرير ونظفته واستبدلت الأغطية لتأتي امرأة أخرى هي يسرا القرمزي بجلدتها الجديدة لتنام عليه، أثارت فيها هذه المفارقة إحساساً بالظلم لنفسها، فهي عندما تستلقي على مخدات الوبر الناعم لا تمحو هذه اللحظات شعورها، وهي يسرا القديمة العاملة بفندق «الهولدي إن» خادمة للغرف، وسرعان ما تعود إلى سطح الواقع وتتحسس ما حولها من الترفيه والمال والنفوذ والمغامرة، فتشعر بعدالة الكون، تعيد التوازن «من المحزن ألا ندرك

العدالة إلا ونحن نجلس على الرماح». ظلت تخاطب نفسها من وقت إلى آخر في محاولة منها لأن تحدث تغييراً في مسار الحياة. ما يؤلمها أن الوقت لا يسعفها ولا الرغبة الجامحة في الوصول إلى أهدافها، حتى أنها في خضم الدوامة الدامية التي تخوضها لم تعِ ما هي الأهداف التي من أجلها استسلمت للآخرين ولا ماذا يترتب على مسارها الجديد؟ تريد الوصول إلى الزبير ورؤية دارة «اليازجي» إن كانت لاتزال قائمة؟ ومن احتلها وسكن غرفتها؟ «أريد العرش الذي كنت عليه وأنا في عمر التاسعة، أريد الوقت الذي ضحكت فيه ولم يعد ثانية، أريد الشاب الذي حلمت به وأخذته الحروب ولم يعد، أريد وجوه أسرتي كلها الذين ضاعوا». ظلت تناجي نفسها ولكنها لا تملك حرية البكاء، فقد حُبست الدموع منذ سنين وعلمها بها منذ أن اغتصبت من زوج بحراني كان يعمل مع المنظمات الإنسانية، صحيح أنه تزوج بها ولكن الطريقة التي افترسها بها منذ الساعة الأولى لتوقيع العقد كانت اغتصاباً.

مرت الأيام سريعة، قفزت من موقع إلى آخر حتى بلغت حدود العراق وسوريا من خلال الأراضي الأردنية، وعندما علم «الأستاذ» وهو الاسم الذي تعرف أنه مسؤول عن الأعمال ولا يظهر في الواجهة زمجر وغضب متسائلاً.

«ماذا جاء بها إلى هنا؟».

في البداية كانت تتبع السيدة المنقبة كأنها الظل لها وساءها أن لا

ترى وجهها كل هذه المدة، وقد هددتها المرأة ذات مرة حينما حاولت إزاحة الغطاء عن وجهها وهي غافية بلهجة عسكرية قائلة:

«إياك أن تجرئي وتكسري القواعد، فستكون تلك آخر دقيقة من عمرك».

كان الخوف الذي زرعته سنوات الجمر قد زال من أعماقها، حلت الجسارة وخرق القواعد؛ إنها تحمل حياتها على كفها، رنين العبارة التي نطق بها حازم عبد الرحيم تذكرها بأنه لا يوجد ما تخسره، فالكون ملك الجسورين، هكذا مضت تعبر المنعطفات وتركب موجات الجسارة وتعلمت في كل دقيقة تمضي معها أنها باتجاه طريق وعر لا تملك معه إلا المغامرة والوعد الذي قطعته مع سمر يام بالوصول إلى الزبير «أنا من الجزيرة العربية ولا أخشى ركوب الموج العاتي، فقد ركبت ما يكفي من الذل».

مرت الأيام من دون شعور بالسعادة أو التعاسة، قضت الوقت في الخيام على الحدود، تتسلل عبر منافذ منظمات الإغاثة الإسلامية، لا تخلو خطواتها بين فينة وأخرى من المواقف الطائشة، ثم تعاود حياة الليل والفنادق وتعبر المطارات و تعقد الصفقات التي لا تفهم محتواها وإن بدأت في الآونة الأخيرة تعبث بالأوراق والمستندات وتتسلل إلى ممرّات ضيقة عبر الجهات المتداخلة، وقد توصلت بحدسها الفطري إلى تحول السيارات إلى عربات عسكرية والمواد الغذائية إلى بنادق وطلقات والأجهزة الإلكترونية المدنية إلى معدات اتصالات معقدة،

فهمت اللعبة من الأموال والبذخ وحياة الليل والفنادق مع حياة الخيام والحدود، كانت لعبة مزدوجة أتقنت التفاعل معها بحرفية استحقت عليها الإشادة من بعض المتنفذين في الشبكة، لكنها رغم كل ذلك ظلت تجهل القنوات والمنافذ التي تعبر من خلالها تلك المعدات، كانت مهمتها تقتصر فقط على تسهيل عقد الصفقات وتسهيل الحصول على المواد وعندها ينقطع الاتصال، كان عبورها الحدود ومغامرتها بالاقتراب من خطوط التماس السورية العراقية والسورية التركية والسورية الأردنية، هي فقط للتضليل من خلال الاختلاط بالمنظمات الإنسانية، فكانت تستغل ذلك الاقتراب من الخطوط الساخنة لشم الأخبار القادمة من الأراضي الملتهبة لعلها تتوصل إلى أنباء تتعلق بجبار الشريف، كان في ذلك مغامرة محفوفة بخطر تجاوز حدود الصلاحيات وكسر القواعد كما نبهها البعض مرات عديدة لكنها مع الوقت اكتسبت روح المجازفة كلما تمكنت من إتقان المهمات السرية، ظلت على الضفة الأخرى تعيش حياة الليل تغطي بها على حياة النهار، تخالط الرجال وتتواصل مع زمر المجتمع المالي وتتآلف مع الشبكات المالية العربية المنتشرة في ربوع المدينة الخالبة بسحرها الليلي الممزوج بالمال والتجارة والذهب والممنوعات المشروعة وهي تسمية عرفتها من بعض الجنسيات اللبنانية والمصرية المقيمة بالمدينة.

بزغ اسم يسرا القرمزي وعُرفت في أوساط رجال الأعمال

والخدمات بفتنتها وجسارتها وببروزها المفاجئ على ساحة المال والأعمال، وبدأ البعض من رموز المجتمع المالي بالتقرب منها مثل رشيد العمري رجل المال والبنوك والشركات والمجمعات التجارية، وشريك نصف رجال الأعمال في المدينة، ضعيف البنية طويل وأسمر البشرة وله نظرات حادة وثاقبة، هادئ المظهر ولكنه عصبي المزاج، راح يتسلل إلى عالمها من خلال الدعوات المتكررة لحضور المناسبات التي ينظمها حتى ضاقت تلك المناسبات، لتصبح في الفترة اللاحقة محدودة الحضور، إذ يكتفي بدعوتها هي وثلاث أو أربع شخصيات تعرفت إليهم وهم جوزفين خوري أرملة أربعينية ذات مظهر أنيق وقوام رشيق ووجه مطلي طوال الوقت بالأصباغ والماكياج، وهي سيدة أعمال، مجالها السياحة والسفر والرحلات بالإضافة إلى عدد من المطاعم العالمية التي تملك وكالتها وكثيراً ما تكون اللقاءات في أحد مطاعمها وهو مطعم «البيرة» المطل على بحيرة اصطناعية، يمثل ملتقى الشخصيات الاجتماعية في مدينة الليل والسهر.

كان هناك أيضاً جليل العشري، ومنذ البداية اعتقدت بأنه مصري الجنسية ولكنها اكتشفت صدفة وهي تستفزه بالحديث عن الأوضاع الثورية في مصر والفوضى الضاربة بسبب ما يسمى بالربيع العربي، يبادرها بلهجة مستفزة معلناً بافتخار، أنه مواطن إماراتي، فما كان منها إلا أن انقضت عليه بشراسة معلنة بلهجة مماثلة اعتذارها عن معرفته لكونها مواطنة بريطانية، كان حضورها على الساحة المالية متأرجحاً

بين الإعجاب بانطلاقتها المفاجئة وإثارة زوبعة من حولها، وبين شكوك أثارها البعض عمن يقف وراءها ويدعمها وأين كانت من قبل، غير أنّ مجرّد حملها الجنسية البريطانية، كان كافياً لمحو تلك الشكوك، بدت تلك النتيجة ظاهرة طبيعية لها لإدراكها بأن فطرة الأفراد العرب مهما بلغ مستواهم التعليمي يرضخون لمن ينتمي إلى المجتمعات الغربية، بل زادت ثقتها بتلك الجنسية عندما وجدت كل الأبواب تشرع أمامها بسبب تلك الجنسية وفهمت أن الذهنية السائدة في هذه الأوساط مرتهنة للأجنبي، فاستغلت ذلك الامتياز لإمرار خطواتها في عالم المال والبزنس والعلاقات العامة، لكنها لم تنتبه لردة فعل البعض ممن ربط بين وجودها المالي ومكانتها التجارية الوليدة وبين سلوكها الليلي وحضورها الدائم في الصالات والحانات الفندقية، إلى أن شعرت ذات مرة بعبد العزيز ينبهها لذلك، قائلاً بلهجة رقيقة لا تناسب موقعه الرقابي عليها ودليلاً على أنها خرجت عن سيطرته:

«خرجت عن الخط، بالذات في تحركاتك الليلية»

ابتسمت له وقرصت كتفه لتزيل الطابع الرسمي عن علاقته بها في الحديث وقالت بنبرة أُنثوية تعرف متى تستخدمها:

«من قال لك إنني أريد البقاء على الخط نفسه؟ يا سيدي من أطلقني قال لي حياتك تحملينها على كفك؟».

«كلنا نحملها على كفنا وهذا ما يجعلنا نمشي على الخط».

«اسمع يا عبدو....».

قالت ذلك وأردفت مبتسمة بثقة مفرطة ظهرت في نظرتها الحادة نحوه.

«أنا أحب لندن وأعشق «كينغستون» تحديداً، ولا تتصور كيف ضحيت بحبي لهذه المدينة التي أمقتها في الوقت نفسه لأنها أذلتني كثيراً بسبب الخطوط الحمراء التي وضعتها لنفسي طوال فترة إقامتي فيها. هنا في هذه المدينة دبي لا وجود للخطوط لأنك ببساطة ترى المدينة نفسها تدعوك لتجاوز الخطوط، هنا يقدرونك عندما تعبر الخطوط، بل نجاحك مرتبط بتجاوز الخطوط، صدقني، كم سنة عشت فيها؟».

رد وقد بدا عليه الاهتمام بكلماتها.

«ست سنوات متقطعة».

استأنفت كلامها وقد محت عن وجهها ملامح الأنوثة وبدت مصممة على التعبير عن وجهة نظرها بإضفاء نبرة تحمل رنين الكلمات التي تختارها.

«أنا لي بضعة شهور؟ عام؟ لقد أدركتُ من أول يوم إن لم أكسر القواعد فلن أنجح في هذه المدينة القاسية التي تبلع البشر وناطحات السحاب في الدقيقة نفسها، هنا لا تسأل عن الخطوط، أنت من يضع الخطوط».

بعد هذه المحادثة المفرطة في الحساسية، كسرا رتابة الكلام

بينهما واختارا مكاناً عاماً مفتوحاً بمطعم صيني بمجمع دبي مول، ولدى جلوسهما هناك وسط زحام المكان سألته فجأة:

«هل أنت متدين؟».

بعدها بأيام وقعت الواقعة التي كان لابد من أن تحدث في وقت ما، وصلت إلى الحدود العراقية في خضم جلبة وأحداث دامية انبثقت فجأة وانتشرت كالنار في الهشيم، امتدت من منطقة القائم على الحدود السورية العراقية ووصلت أطرافها إلى نينوى في العراق وتمت السيطرة على الموصل. وصلت الأخبار إلى دبي وتمنت لو كانت في لندن لتكون قريبة من الخيوط «هل هذا تنظيم الفريق الركن؟». لم يسعفها عبد العزيز ولا مسعود ولا المرأة المنقبة التي مازالت لغزاً رغم حدسها الغالب على مشاعرها تجاهها في ربط الخيوط، دارت في رأسها تلك الأسئلة وحرضتها على التوغل في التنقيب، الأمر الذي يتعارض مع القواعد «لعنة على القواعد» كان استمرارها في رؤية المرأة ومرافقتها عبر الطرق والممرات الوعرة قد خلق معها ألفة طبيعية لم تغير من جوهر المرأة الجامدة، الصخرة، حدث الزلزال عندما انكشف غطاء ملاءتها عند المعصم وحتى الكتف، تأملت معصمها الذي بان ناصع البياض كالحليب، وبرزت نعومتها، رأت في ذلك تناقضاً مع تخمينها من أن تكون تلك السيدة الجسورة من الزبير، فنساء الزبير تعرفهن جل المعرفة ويطغى على لون بشرتهن اللون البرونزي، المراوح بين السمرة الفاتحة المائلة إلى البياض المعتدل وبين اللون الخمري

المائل إلى الأبيض الصحراوي، أما هذه فهي تفيض بياضاً ونعومة، ما يوحي بلون الحلبيات اللاتي عاشرتهن سنوات الدراسة وكن غاية في الصرامة والنعومة معاً.

انفجرت الواقعة تلك، ليلة التحاقها بالمخيم التمهيدي قادمة من مخيم الإغاثة عندما تغيرت الخطة فجأة بعد ورود تعليمات من الزاجل وهو المراسل السري الرابط بين الخلايا المنتشرة في الأرجاء الحدودية مع دول الجوار، كانت تقضي بالوصول إلى كردستان العراق وهنا قفزت في داخلها وأحدث الخبر زلزالاً في أعماقها «لقد اقتربنا». هاجت شجونها وتداعت خيالاتها وأخذتها بعيداً إلى الوراء؛ رأت فناء الدار ووجه نجوى القطان تكتنفه الحيرة وهي تلف الغرف وتبحث في الأرجاء عن سبب للمشاجرة، انزاح عن كاهلها تعب الطرقات الوعرة وغبار الصحراء وحرارة الشمس وبرد الشتاء على الحدود لمجرد أن تخيلت ساعة واحدة تطأ قدماها فناء الدار بعد كل هذه السنوات. تعرف أن الحلم مستحيل حتى الآن ولا في القريب ولكن بالإمكان تقريبه.. لاحت في الأفق بوادر تغييرات لكن الشكوك تحيط بها، فقد اختلطت الأوراق وتداخلت الخلايا الثورية مع الخلايا الإرهابية «أين أقف أنا؟» عندما طرحت السؤال على مسعود لم يرد حتى بنظرة من عينيه الجاحظتين، وعندما حملت السؤال معها أينما وجدت الشخص المناسب، توارى هارباً، كأن السؤال يحمل معه لغماً موقوتاً على وشك الانفجار.

«قفي أينما وجدت سلاحاً تحاربين به الأوغاد الذين يحتلون منزلك»، هكذا يقال لها في كل مرة تثير زوبعة من الاستفسارات الملغمة.

في تلك الليلة المشؤومة، وجدت الفرصة الوحيدة الشافية مع المرأة المنقبة بينما كانتا في خيمة الإغاثة، إذ استسلمت المرأة لنوم عميق بدا واضحاً سببه وهو الوهن الذي خلفه الإرهاق إثر عدة ليالٍ من السفر وعبور الطرق والممرات وصولاً إلى حدود كردستان العراق. كان الوقت مساءً والظلام حل مبكراً من غير أن تعرف السبب، وحين تصاعد شخير المرأة، علامة على استسلامها لنوم عميق، لاحظت جزءاً من النقاب وقد انزاح عن جانب من وجهها ولاح طرف خدها الأيسر، فأغراها ذلك بالاقتراب منها وتحسس النقاب، ثم تمادت وبدأت تزيحه تدريجاً وبهدوء، تلاحقت أنفاسها وهي تواصل سحب قطعة القماش السوداء عن جدار الوجه، ظهرت أسفل الذقن لطخة بنية شبيهة بأثر جرح قديم، توقفت وقد بدأت يدها ترتجف وتتصبب عرقاً وارتفعت دقات قلبها حين شعرت بهول ما تقوم به، ظل ينازعها إحساس بين الفضول والذعر من أن يكون لهذا التصرف تداعياته عليها «ما الذي أصنعه؟». تذكرت دخولها دبي في المرة الأولى قبل سنوات حين كانت مطرودة من الجنة تبحث عن ملجأ وكيف كانت فاقدة الإرادة ومكتفية بمجرد لقمة عيش وسقف يغطيها، ها هي الآن تغامر بما تملك من نفوذ ومال ومكانة بسبب فضول عابر تجاه وجه امرأة قد لا يعني لها

شيئاً لو كشفته، وقد يبدو وجهاً كواحد من آلاف الوجوه العادية التي تلتقيها يومياً في زحمة الحياة «ماذا ينفعني أن أرى وجه المرأة وأخسر حياتي؟» بدا لها الأمر كقصة الخروج من الجنة حين أغرى الفضول السيدة الأولى في الكون ودفعت آدم لأكل التفاحة لتنتهي من يومها خارج الجنة، تطلعت إلى الوجه الذي مازالت تغطي جزءاً منه قطعة القماش السوداء، وبحركة مستديرة سحبت النقاب ووقفت أمام وجه المرأة عارياً.

«خضرة المياس، الطالبة المنتمية إلى البويات».

****

(٥)

عرفت أن الخطوط الحمراء موجودة في كل مكان من هذه الدنيا، لكنها لم يُخيل إليها أن هناك عرشاً من الرماح ينتظر جلوسها عليه لأيام، تتحمل جبالاً من المشاعر المنذرة بالرعب القادم، سمعت عن المحاكم الثورية والعسكرية الميدانية السريعة، لكنها لم تتصور أن هناك من ذهب من النساء والرجال وحتى الأطفال إلى الإعدام، لمحت في ساعة صفاء ذهني نادرة شبح نجوى القطان فوق سطح الدار تنشر الملابس المغسولة على الحبل، ومن بينها البذلة العسكرية لجبار الشريف، تراءى لها طيف طفلة صغيرة تقف على بعد خطوات من المرأة تتطلع إلى الزي العسكري، فترى فيه الشموخ الرمزي لشيء يبعث إحساساً لم تدركه ساعتذاك، لاح لها الآن على مقربة من الموت، ساد الصمت أيامها التالية وهي محتجزة في حجيرة مكتظة بالنمل والحشرات، يعلوها سقف خشبي، ينبعث منه الغبار طوال الوقت ويسبب لها السعال المتواصل، وصلت إلى المكان عبر ناقلة كبيرة محملة بالمواد عبرت بها الطريق معصوبة العينين لم تعرف شكل من كان يرافقها على الناقلة ولا هويته ولا العدد، باستثناء صوت رجل كان

يسعل بين فترة وأخرى. استغرقت الرحلة أكثر من ثلاث ساعات لم تتناول خلالها الماء ولم يسمع صوت كائن بشري سوى بعض الجلبة تحدثها الناقلة القديمة وهدير المحرك يتغير صوته بين فينة وأخرى خلال صعود المنحدرات وهبوطها، ومع حلول المساء الذي شعرت به من خلال الوميض الشفاف والذي لم تفلح فيه العصابة على عينيها من حجب الضوء الذي اختفى تدريجاً إلى أن توقفت الناقلة وسمع صوت الباب يفتح وفي إثره قفزت فجأة من مكانها حينما فاجأتها يد خشنة الأطراف وكف واسعة بدرجة لم تتخيل في الكون كفاً بهذا الحجم تقبض على يدها المرتجفة وتسحبها خارج الشاحنة بعد أن أزالت العصابة عن عينيها ودفعتها نحو تلك الحجيرة التي قضت فيها بعد ذلك أياماً لم تعدها، تضاعفت خلالها موجات الذعر التي راودتها من جديد بعد أن تخلصت منها في إثر لقائها مايك الباكستاني، الذي بدأت صورته تراودها طوال الوقت منتظرة معجزة ما تقع، ويصله خبر وجودها في هذا المكان، متخيلة صورته في هيئة سوبرمان يأتي من وراء الضباب ويعيدها إلى «كينغستون».

«سأحدث نفسي حتى لا أجن» ظلت الليلة الأولى بدون طعام ولا شراب حتى بزوغ فجر اليوم التالي، وقبل أن يخرج قرص الشمس باتجاه أفق السماء سمعت جلبة من الخارج لسيارات وعربات وأصوات ميزتها لعدد من الرجال يتحدثون بلهجات مختلفة وإن غلبت على بعضها اللهجة السورية. «إذن فقد ابتعدت كثيراً عن جبار الشريف»

كانت تأمل بأن تبقى على مسافة من كردستان العراق وحلمت ببلوغ أربيل ومنها تفتح الأبواب لبقية حدود الوطن الذي من خلالها سيتحقق الهدف الذي زرعته في أعماقها سعاد البشراوي التي تحولت فيما بعد إلى سمر يام، والتي يعلم الله وحده أين هي اليوم؟ اقتحم الباب الرجل الذي ميزته من صوته وهو أحد الذين انتزعوها من المخيم لحظة الواقعة المشؤومة، اقترب منها وهو يحمل كيساً ورقياً وزجاجة مياه ماركة النبع ووقف أمامها ينظر بصمت منتظراً منها الوقوف.. كانت خلال اقتحامه المكان، جالسة القرفصاء ومازالت ترتدي ملابسها التي كانت عليها منذ وصلت إلى المخيم، وهي عبارة عن سروال جينز أزرق فاتح ماركة «أرماني» وقميص أحمر ماركة «بوس» فوقه سترة جلدية ثمينة.. تذكرها هذه الملابس في هذه الساعة بالذات أين كانت بالأمس وماذا أصبحت اليوم «هل هذه خدعة الحياة معي؟».. قاومت الوهن الذي شل أطرافها ونهضت واقفة أمام الرجل الذي بدا وجهه النحيف مغطى بالغبار والشعر الكثيف، تسلمت منه الكيس وزجاجة الماء وظلت تنظر إلى وجهه الخالي من أي تعبير آملة أن تسعفها ملامحه على الاستدلال على مصيرها المنتظر في هذه الصحراء القاحلة الخالية من أي أثر للحياة.

قضت الليالي والأيام التالية، وسط الرعب والذعر تتوقع حركة ما تكسر رتابة الصمت والوحدة والألم الذي يعصرها، تنام ثم تصحو ثم تنام، تغير ملابسها مرة كل يومين بعد أن جُلبت لها ملابس رجالية

هي عبارة عن سروال خاكي من مخلفات الجيش وسترتين قطنيتين تثيران الحكة فيها؛ كان خروجها إلى الحمام مرتين في اليوم، واحدة مع بداية النهار وأخرى أثناء الليل، ويحدث أن تخرج مرة ثالثة أو رابعة عندما تصاب بالإسهال وألم في المعدة، ومع مرور الوقت اجتاحها الهزال، مرتقبة ساعة الإعدام كما تنبأ لها حدسها الذي كان لا يخطئ منذ أيام المراهقة حينما كانت معتمدة على متابعة مسار الأفلاك والأبراج، أصبحت هزيلة ومعزولة، جردت من كل شيء له علاقة بالحياة البشرية، وحتى لا تصاب بالموت البطيء آملة معجزة تحدث، راحت تجادل نفسها بالأصوات المسموعة واضعة أمامها الفريق الركن وسمر يام، كانت تدخر مايك لليل حينما يظلم الكون وتصبح وحيدة معزولة فتأتي به كطيف من وراء الحدود رغم جهلها مكانه، بعد أن ترك لها كل شيء واختفى «لن تتركني في الصحراء، ولن أشنق أو أرمى بالرصاص». عندما تقول عبارتها تلك، تنتظر لثوانٍ يأتيها الرد من خلال هاجس تقلبه في ذهنها ثم تعاود الحديث «تملك السيطرة والمعلومات وأعلم بأنك عرفت بقصتي وتعمل على حلها بوسائلك المفرطة في السرية» أما سمر يام، فقد اختلقت لها عذراً لتأخرها عن المجيء والسؤال عنها، «لاشك أنها تحاول الآن من خلال التواصل مع حازم الرحيم، الفريق الركن المسؤول عن كل شيء».. ظلت تستدرج الأصوات والمحادثات فيما استمر هزالها في الانحدار إلى

أن جاء أحدهم ذات نهار وقام بفحصها وقدم لها بضع نصائح للحفاظ على بقائها.

«أنت بحاجة إلى قواك كاملة».

عندما لمحت في عينيه بريق تعاطف تجاسرت وسألته بنبرة رجاء قد تحمل لها الأمل بنقطة ضوء في نفقها المظلم داخل هذه الحجيرة.

«هل سأشنق؟».

صوت خطوات في الخارج، صوت شاحنة تبتعد تليه أصوات رجال يتجادلون، تعود تنظر إلى عيني الرجل الذي كاد ينتهي من فحصها، لا شيء ينم عن تعبير ما يطبع ملامحه، كل جزء من وجهه جامد ما عدا عينيه اللتين تعكسان قلقاً واضحاً تفسره نبرته الهادئة.

«لا تستبقي الأمور، هناك محاكمة ميدانية يتحدد فيها مصيرك. آمني بالله واليوم الآخر، ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

من فرط شجونها التي تتدفق كالزَبَد فوق سطح البحر، لمست روحها المنسابة من داخل جسدها، تنزلق نحو قاع سديمي يوشك أن يبتلع خوفها ويفرغها من الشعور بشيء، لم تعد تشعر بالجوع ولا بالحر أو البرد، فقد استنزفتها العزلة والأشباح والتفكير في الموت قبل أن تفهم ما يجري ولا كيف انزلق بها الكون نحو الهاوية؟ تحدت خوفها وحبست أنفاسها وقالت للرجل وهو يهم بالخروج لدى مجيء الشخص الآخر المكلف حراسة المكان.

«من هؤلاء الذين يحتجزونني؟ أخشى الموت قبل أن أفهم ما يجري لي».

التفت نحوها الرجل وفاجأها بابتسامة صفراء لم تر مثلها قط وقال بنبرة ختامية:

«توكلي على الله وصلي».

مع تزايد حالة الهزال وبروز عظام وجهها واسمرار بشرتها، بدأ يطرق ذهنها ضوء يتسرب من أعماق عقلها الباطن الذي اختفت فيه كل الصور والمشاهد للسنوات والشهور المنصرمة، شعرت تدريجاً بوضوح في الرؤية لم يسبق لها أن شعرت به، إذ أخذت العزلة تفتح خزانة العقل الباطن وتخرج منه الصور والأسرار والخبايا وتفرشها أمامها كأنه سد تحطم فخرجت منه كل الألغاز. رأت العلاقة واضحة كالشمس بين مايك وسمر يام والمحامية الليبية، رأت الخيوط منسجمة بين الفريق الركن والملتحين الذين التقتهم في لندن وفي المخيمات، رأت جبار الشريف في المرأة المنقبة وكيف ابتعد طيفه عنها، وسعت المسافات وزادت الهوة، رأت الغبار الصحراوي يطغى على الضباب اللندني والصورة أصبحت معتمة، جاءت من أجل الزبير والعودة إلى الدار، وشم الرازجي، ومعانقة حلم جبار الشريف، لتسقط في انتظار الإعدام، مسافة مختصرة للموت، كل التداعيات اختزلتها الحجرة الترابية الصغيرة المبنية من الطوب الطيني المجفف ونافذتها الصغيرة القابعة في زاوية السقف العلوية ذات الأعمدة المتراصة الضيقة، والتي

لا تستطيع بلوغها ولكنها للتهوية ومنها يتسرب الغبار الكثيف الذي سبب لها السعال المزمن، اعتادت مرور الزواحف الصغيرة والعناكب، حتى العقارب السمية تسللت عبر الفتحات الأرضية، راحت تتأمل تلك العقارب صغيرة الحجم، ذات اللون الأصفر الفاتح وهي العقارب التي حذرها منها حارس المكان عندما قال لها بأنها تدعى العقارب العربية، تتسلل من صحراء الجزيرة العربية وتعيش بين الأخشاب والنفايات في المناطق البرية، لم تبالِ بها وكأنها تتمنى لو تلدغها واحدة منها وتنهي حياتها قبل أن ترى الموت بالإعدام، لكنها حينما تستعيد طعم الحياة وتتذكر بأن ثمة فرصة للعودة إلى «كينغستون» ومعها الرصيد المالي، راحت تفكر في مايك وما يمكن أن يقدمه لها في مأزقها الراهن؟ «سأخرج من هذا النفق حية أو ميتة، المهم أن أخرج بسرعة».

في الأيام التالية عاودها مرض الشقيقة الذي لايزال مرافقاً لها منذ الطفولة، عانت بسببه وهي في المرحلة الابتدائية بالمدرسة، يبدأ بعاصفة ضبابية تجتاح أجزاء من عينيها وتغمرها بهالة من انعدام الرؤية ثم يجتاحها صداع مدوٍ يشل رغبتها مجرد أن تفتح عينيها، تكررت تلك الموجة وهي سجينة الحجيرة الخانقة التي من المفارقات وهي في الصحراء، أن تعمها الرطوبة مساءً، وتجعلها أشبه بصندوق طيني مبلل بالماء.. وُلِدَ لديها شعور بأنها على وشك أن تنتهي حياتها قريباً، بين موت محقق أو معجزة تسقط عليها من السماء، راحت تناجي طيف والدها جبار الشريف وتأمل لو أن هناك خيطاً سميكاً يمتد بين الزاوية

النتنة التي تقبع فيها وبين المكان الذي يمكن أن يكون فيه الرجل «هل خدعني الفريق الركن وأوقعني في فخ الموت؟». دأبت في ترجيح كفة موت والدها رغبة منها في عدم العيش بحلم هو في حقيقته كابوس، وأملت فقط أن ينقذها مايك الموجود على قيد الحياة، غير متخيلة مكانه الآن، ساد عالمها المظلم شعور بالمرارة والضياع والخوف، ضاقت الحجرة خلال الأيام التالية أكثر فأكثر حتى كادت تصبح برميلاً تستقر فيه، كانت ساعات النوم قليلة لا تغفو فيها إلا وتسمع أصواتاً غريبة تتداخل في رأسها فتقفز من مكانها لتواجه ظلمة الليل وظلمة الحياة، مرت بخاطرها بعض من صور لندن و«كينغستون»، تذكرت غرف الفنادق التي خدمت فيها وقارنتها بجناحها في فندق «أتلنتس» دبي وبصالات وممرات فندق برج خليفة، تعود بعدها تمسح الحجيرة بنظرة جامدة مستسلمة لقدرها في المكان، لتجتاحها بعد فترة وجيزة مشاعر متناقضة تدفعها للإيمان بوجود معجزة مخبأة لها في مكان ما من هذا العالم بانتظار الفرج. «المرآة» كانت تردد هذه الكلمة بشيء من الهوس مدفوعة برغبة في رؤية وجهها وماذا حل به، كانت تمر على تقاطع الوجه بيدها وتتحسس أجزاءه، تتوقف بإصبعها على بعض البثور والخطوط وتتخيل مظهر تلك البشرة وماذا حل بعمليات التجميل التي أجرتها؟ «لن يقبلني مايك لو رآني على هذه الحال».. تبتسم باقتضاب وهي تفرك وجهها، ثم تمضي في التفكير طوال ساعات الليل والنهار،

إلى أن تحين ساعة خروجها إلى الحمام، لتواجه فضاءً مكشوفاً بسمائه الزرقاء الملبدة بغيوم رمادية تذكرها بحياتها الرمادية، تخرج عادة في الصباح الباكر مرتدية بذلة الخاكي العسكرية وتحتها قميصها الأزرق المتهرئ مع سروال بني طويل قامت بطي أسفله عند القدم، وتنتعل حذاء رجالياً من الجلد من غير جوارب يتخلله التراب، وقد هالها رؤية أصابع قدميها متآكلة وقد احترقت أظفارها، تقضي حاجتها وتغتسل بماء آسن يأتي في جراب تفرغه في حوض استحمام قديم لتعود إلى مكانها وقد أحست بأنه آخر يوم لها في الحياة.

«متى محاكمتي؟».

طفقت خلال الأيام التالية تكرر السؤال ببلاهة على كل من يصادفها في عزلتها، مستهدفة من ترديده كسر رتابة الحالة، وربما تشتم خبراً ما أو كلمة عابرة تفتح لها ثقباً تستدل منه على مصيرها، إلى أن فقد أحدهم صبره ذات مرة وصرخ بها.

«لماذا الاستعجال على إعدامك؟».

****

أفاقت على وقع أقدام عند الفجر، وقبل بزوغ الشمس، فُتح الباب وهي ما كادت تغط عينيها بعد ساعات طويلة من أرق مزمن، حتى كسر صرير الباب الخشبي سكون الفجر، ولامست أقدام الرجل أرض الحجرة، نفضت عنها الغطاء القطني المهلهل والمزركش وجلست

القرفصاء وسط صمت الرجل الذي بدا وجهه منتفخاً من النوم، نظر إليها وقال متسائلاً:

«ألم تسمعي أذان الفجر، كالعادة تغطين في النوم كالميتة؟».

«ما المتعة في تكرار كلمة الموت»، بدا على وجهها الذعر من هيئة الرجل الواقف كالصنم لا يتحرك فيه أي جزء من جسمه، حتى عيناه بدتا جاحظتين لا ترمشان ولا مرة كأنهما عينان زجاجيتان «ماذا يحمل معه لي في هذا الفجر المظلم فجأة؟».

خرج عن صمته وقال بنبرة آمرة:

«قومي اغتسلي وصلي الفجر، سنأخذك في جولة، لقد انتهت إقامتك هنا».

فجأة سمع دوي انفجار على بعد، تلاحقت أنفاسها وبدأت ترتجف من البرد وظلت حبيسة المكان كأنها لم تسمع الرجل الذي نهرها بلهجة شديدة آمرة، خارت قواها، لم تستوعب الموقف، مازال يغلبها النعاس والإرهاق.

«هل سيعدمونني؟».

«لا ليس اليوم».

«هناك إعدام إذن».

على بعد ساعتين وصلت الشاحنة إلى بناية داخل المدينة المهدمة جراء القصف، وهي تنقل عدداً من الرجال الملتحين من دون أن يحملوا بنادق أو بنادق آلية كما كان الحال في المرة التي جيء بها إلى المكان،

لم تُعصب عيناها هذه المرة، رأت خلال الساعتين المنصرمتين طرقاً وعرة وشوارع مرصوفة وبنايات وسيارات مدمرة، لكن البلدة التي دخلتها لم تكن فيها أية كثافة سكانية.. ظهر بعض الصبية يعبرون الطرقات وانتشرت بعض القططة والكلاب الضالة، وبرزت براميل القمامة مهشمة أو محترقة فيما غطت النفايات بعض زوايا الطرقات وأغلقت أغلب المحال أبوابها وبدت المدينة أقرب ما تكون إلى الهدنة، راقبت كل تلك المناظر لعلها تتبين المكان لكن أحدهم من فرط ثرثرته مر على ذكر القائم «عدت قريبة من الهدف، لعنة على هذا الزمن، مرة أقترب ومرة أبتعد». عندما توقفت الناقلة بالقرب من موقف للسيارات هبط الجميع باستثنائها، أشار إليها السائق بالانتظار، ظلت أكثر من خمس وثلاثين دقيقة حتى وصلت سيارة صغيرة، هبط منها أحد المسلحين الملثمين واقتادها إلى السيارة وانطلق بأقصى سرعة بعد أن عصب عينيها. في البداية ساد صمت تخلله صوت محرك السيارة الجيب، ثم تسلل صوتها معطوباً ينم عن حزن داخلي عميق تحمله نبرة مكسورة.

«شنقاً أم رمياً بالرصاص؟».

رد عليها بنبرة مستغربة.

«ماذا فعلت؟ ما هي جريرتك؟».

لم ترد عليه وعاد الصمت يسود بينهما إلى أن عاودتها موجة

السعال لدى انتشار الغبار من حولها داخل السيارة التي توقفت عند أحد الحواجز وسمعت صوت السائق يقول مخاطباً شخصاً آخر:

«السلام عليكم».

رد الآخر السلام وسأل السائق عن الطارق، فرد عليه السائق «الحجاج»، بعده انطلقت السيارة من جديد، وصلا إلى مبنى قديم يشغله عدد من الرجال المسلحين، ترجل السائق وفك العصابة عن عينيها وطلب منها النزول، فرصة وجدتها صدفة وهي تهبط من السيارة عبر مرآتها الجانبية، وقفت ووضعت وجهها بوجه المرآة بعد أكثر من شهر وسبعة أيام من الاحتجاز.

«لا إله إلا الله».

قالتها وقد جمدت مكانها، تأملها السائق مندهشاً، حاول في البداية جرها من قميصها لكن قدميها خذلتاها فجلست على الأرض منهكة، كانت تبدو كما لو أنها مدفوعة إلى حبل المشنقة، لم تقو على السير فوضعت يدها اليمنى على التراب ووضعت اليد الأخرى على فخذها محاولة استعادة توازنها، كانت الصورة التي رأتها في المرآة لكائن بشري لا علاقة له بيسرا القرمزي، الفتاة الزبيرية ذات الجسد الرشيق والقوام الخلاب والوجه المشدود بالبشرة البرونزية، رأت امرأة منتهية الصلاحية قابلة للطي، غزت البثور الحمراء وجهها الشاحب لشدة حكها، وبدت بشرتها رمادية بلون الصحراء وكست تجاعيد صغيرة جانبي الخدين النحيلين، كانت أسنانها صفراء رغم

انقطاعها عن التدخين، وطفق أنفها نافراً وقد ظهرت عظمته العليا نافرة لا يغطيها إلا جلد شفاف، شعرها تقصف وتقلص ولكنه لم يفقد بريقه رغم حرارة شمس الصحراء في النهار وغبار الطريق ورطوبة الحجرة الخانقة.. عجزت عن استيعاب صورتها في المرآة فانهار جسمها وظلت على الأرض فترة وجيزة، تجمع حولها عدد من الرجال إلا أن سائق السيارة الجيب أشار عليهم بالتفرق وساعدها على النهوض.

«لا بأس عليك لن تعدمي اليوم».

بلغت بناية قديمة مقابلة لموقف السيارات ضمن سلسلة بنايات متراصة، أوشكت على الوصول إلى غرفة أرضية في واجهة البناية من الداخل، وقبل أن تدلف توقفت وكادت تنهار مرة أخرى، سارع رجلان آخران وسارا معها داخل الغرفة، كان التراب والغبار يتطايران إلى الداخل كلما مرت سيارة في الخارج، وينفذان إلى عينيها. ظهرت الأرض برتقالية اللون وقد ذكرها ذلك بلون أرض حديقة دار الزبير الرازجية. بعد ساعة من وصولها ناولها أحدهم زجاجة مياه صغيرة وسألها إن كانت تريد تناول وجبة خفيفة فهزت رأسها نافية، عندئذ تركها الرجل وحدها في الغرفة وخرج فراحت تجول بنظراتها الواهنة في أرجاء المكان. كانت الغرفة واسعة تحتوي على عدة كراسٍ فردية بلاستيك بيضاء ولكنها غير موحدة الشكل، كانت متنافرة المظهر وقديمة ومبعثرة في المكان، ثمة سبورة مستطيلة فارغة من أي محتوى، وإلى جانبها خريطة شبه الجزيرة العربية ظهرت فيها علامات

موضعية متعمدة، وعلى أحد المقاعد وضعت سجادة الصلاة وبضع نعال موزعة بلا انتظام أسفل الكراسي، وفيما هي تمسح الغرفة بحثاً عن إشارة تدل على حالة ما تفصح لها عن وضعها الشاذ، تناهى إلى سمعها من الخارج صوت أغنية لناظم الغزالي كثيراً ما سمعتها منذ طفولتها « يمتى على حالي تحنون، تاه العقل صار مجنون، مقدر أنا بلياكم يوم بشهر فرقاكم». أمسكت بيدها إشارة اعتبرتها من السماء، هذه الأغنية آتية من الغيب تحمل لها نذراً «ماذا يكون؟». تساءلت وهي تتابع كلمات الأغنية تختفي تدريجاً، عادت تتحسس وجهها بعد رؤيته في المرآة، أخذت تتلمس البثور كما لو أرادت فقسها وإذا بالباب يتحرك ويدخل شاب في مقتبل العمر تغطي وجهه لحية خفيفة وشنب هو الآخر خفيف، كان يرتدي سروال جينز أسود وقميصاً بنياً فاتحاً مقلماً بالأسود، وفوقه ارتدى سترة سوداء جينز، تقدم منها وقال وهو يسحب أحد الكراسي وسألها هامساً.

«أين جواز سفرك؟».

«أخذه أحد الإخوة».

عندئذ نهض وسحب الجواز من جيب سرواله الخلفي ورفعه في وجهها قائلاً بنبرة تنم عن تعاطف واضح:

«سأحفظه معي إلى حين الحاجة، من حسن حظك أنه جواز بريطاني وإلا كنت في الجنة الآن».

لمعت عيناها وهي تلمح الجواز بيده، لا تعرف بماذا تجيبه،

كانت تخشى التلفظ بعبارة أو كلمة تنتهي بها في الجنة كما عبر الشاب للحظة، رأى الشك في نظرتها إليه، فابتسم وهمس لها بصوت خفيض وهو يضع يده على فمه.

«يرسل إليك عبد العزيز تحياته وحملني سلامه».

انفتحت أساريرها للمرة الأولى منذ احتجازها، دفعها ذلك لتكرار السؤال الأسطوري العالق برأسها كالخلية الحية.

«هل سأعدم؟».

نهض واتجه نحو الباب، زرع فيها ذلك الفزع وتغيرت صفحة وجهها، زال الارتياح وحل مكانه الذعر إلى أن عاد بعد أن أطل برأسه خارج الغرفة واقترب منها قائلاً.

«الخارجية البريطانية مهتمة بك، هذا كل ما أستطيع أن أقوله. بعد فترة لا أعلم بالتحديد سيتقرر مصيرك، وأظن أن الإخوة سيضعون جوازك البريطاني في الحسابات، لذلك سأحتفظ به حتى لا تفقدي فرصتك في النجاة».

قالت والرعب يكتسح ملامحها والخوف يعصر وجهها:

«لم أفعل شيئاً خطيراً».

«كسرتِ القواعد، مشكلتك تملكين معلومات أكثر من اللازم، لو كنتِ رجلاً لأعدم في الحال، لكن ثمة من اهتم بأمرك من الداخل وهذا سبب تأخير إجراءات محاكمتك، كل من حكم هنا خرج إلى المذبح، لم ينجُ أحد قط».

قبل أن يخرج، وجه لها صفعة قوية على وجهها محدثاً لديها صدمة حادة، جاءت الصفعة قوية مخلفة لطخة حمراء على صحن خدها الأيمن، بدت ملامحها غارقة في الذهول «هل كان يمزح معي؟». كل شيء حولها يوحي بالغموض والتعقيد، كل ما يدور مبهم ولا تفسير له، منذ اليوم الأول الذي التقت فيه سعاد البشراوي أو سمر يام، تغير الكون برمته معها، لم تفلح الكواكب والنجوم، بل لم تفلح الأفلاك والأبراج في تفسير ما جرى لها منذ ولادتها حتى هذه الدقيقة، تداعت الأحداث بعضها وراء بعض، سريعة، دامية، محبطة، ولفترة وجيزة كانت مترفة وسعيدة وسرعان ما انقلبت على أعقابها «لم تبق تراجيديا أسوأ من هذه بانتظاري بعد». كل الأشياء التي تخيلتها أو لم تتخيلها وقعت «الإعدام هو الخاتمة». هكذا رأت الطريق إثر هذه الصفعة الصاعقة التي أدارت رأسها ولم تفهم الرسالة منها، حلمها قبل أن تُعدم زجاجة ويسكي «جاك دناليز» وعلبة سيجارة «مالبورو حمراء» سيزيح عن صدرها عبء الموت ويخفف وطأته في هذه الصحراء، ومع هذا الغبار والحكة التي تلتهم جلدتها، وكرهها لملمس البذلة الخاكي التي لم تفارقها. لا شيء يفوق ترف الحياة مقابل الموت سوى الويسكي والسيجارة «آخ يا عمري الضائع، كأس وسيجارة ومن بعدها المشنقة أو الرصاصة».. ضحكة مذعورة خرجت مع ابتسامة على شفتيها وقد تخيلت جسدها محمولاً بعد إعدامه، رأت بنيتها الضعيفة الهزيلة وقد حملها رجلان ملتحيان، ورأت الحزن في عيني مايك والدهشة على

وجه سمر يام، وربما الحسرة على قسمات الفريق الركن، رأت الوجوه كلها تتأمل جثمانها بعد الموت، إلا وجه جبار الشريف الذي غاب نهائياً من أمامها. لم تشعر بعد هذه الصور والتداعيات إلا بالنعاس يتغلغل بطيئاً وينساب في أوردتها كأنه حقنة مخدرة غرست في شرايينها، حاولت لبضع دقائق تحمل الوهن والصمود على مقعدها الصلب، لكنها وفي إثر موجة التثاؤب التي اجتاحتها، لم تر سوى نفسها تنخرط من فوق المقعد على الأرض، استسلمت لغفوة مباغتة، بعد أيام من الصحوة الإجبارية، كان الوقت ظهيرة وقد ارتفع فيها قرص الشمس ليتوسط كبد السماء، وكانت بضعة أسراب من طيور غريبة الشكل، بشعة المظهر تحوم في السماء.

****

(٦)

«عفت عنك الأخت بحار، لكن ذلك لا يسقط حق التنظيم في معاقبتك لأن سلوكك شكل خطراً على سرية التنظيم، أنت مذنبة بكسر القواعد، ولقد رأينا أن نضعك ضمن خيارين».

خفق قلبها، لم تر أمامها سوى ظلمة الغرفة المحاطة باللون الأسود وعلم العراق القديم، حينها فقط هدأ خوفها وشعرت باطمئنان، فقد لاح لها بصيص ضوء صغير في نفق الموت المرفرف فوق رأسها منذ شهرين من الاحتجاز، ضوء أصفر شاحب تسلل من فتحة التهوية في زاوية عليا من الغرفة وسقط على جهة من وجهها، تنهد الرجل العسكري الجالس أمام طاولة شبيهة بمنصة صغيرة، وركز نظرته على زميل له يجلس بمحاذاته ثم التفت نحوها واستأنف حديثه الذي قطعه وتأمل رد فعلها الأولي.

«الخيار الذي اتخذته اللجنة القضائية بالمجلس الثوري هو تطبيق عقوبة الإعدام عليك استناداً إلى أحكام سابقة مماثلة، وهي قاعدة يعمل بها القضاء الثوري للتنظيم، وبما أن هناك توصية بالرأفة من منطلق كونك امرأة وهي المرة الأولى في سجلك، ومن حسن حظك

أن هذا التنظيم بحكم الائتلاف مع فصيل ثوري مختلف في الرؤية، فإن قرار اللجنة القضائية الثورية هو الحكم الآتي «أنطق بسرعة قبل أن أموت» قالت العبارة وهي تغص بالهواء من حولها، وكأن المكان أُفرغ من الأوكسجين.

«تقومين بعملية ثورية مع بعض الإخوة الانتحاريين بتسهيل وصولهم إلى الهدف وانتظارهم والتغطية عليهم، هذا بديل الإعدام وإذا كتب لك النجاة تُلغى العقوبة أو تحسبين مع الشهداء الأبرار» ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾.

تحرك الرجل الآخر وتدخل معرباً عن تعاطفه معها وقال بنبرة هادئة للغاية:

«ستراعي الخطة العسكرية وضعك، وإن حدث ووقعت في الأسر فسيكون متاحاً لك تفجير نفسك في المكان».

«أضحيت يسرا الإرهابية» هدأت من الخارج، بدا على وجهها الارتياح في حركة تمثيلية تخفي بها الحالة الأسطورية التي وصلت إليها، كان لون الغرفة المائل إلى العتمة قد اتسع وصار كأنه الكون برمته «متى تنتهي هذه الرحلة الطويلة من العمر وأعود إلى التراب؟». كأنها الخاتمة لعمرها ينتهي عند انتحارها الذاتي، هذه نهاية الجنسية البريطانية وبداية العودة إلى القبر.

عندما نهض الرجلان، نهضت في إثرهما كمن تريد أن تخرج

معهما، لكنها ودت التعبير لهما عن احترامها لقرارهما، وفيما هما يخرجان التفت الرجل الكبير وقال لها وهو يقترب من باب الخروج:

«أكثري من قراءة القرآن»

لم ينتظر ليسمع ردها، تركها وخرج وظلت واقفة في الغرفة وحدها تتأمل الكراسي الفارغة وقد تناهت إليها أصوات العربات والرجال في الخارج، كان الوقت عصراً ولم تتذوق طعم الأكل منذ مساء الأمس باستثناء بعض الماء، ورغم ذلك لم تشعر بالجوع، كان مظهرها الخارجي وتشوه بشرتها يقلقانها أكثر من الحكم الذي صدر عليها، ودت لو تموت وهي بكامل جمالها الذي طالما أهملته واهتمت به في الآونة الأخيرة؛ رأسها فارغ من الأفكار، ومشاعرها مجمدة ككرات الثلج، وحدها الصور القديمة تعبر ذاكرتها كأنها أشرطة مسجلة للمراحل التي عبرتها منذ الطفولة حتى هذه اللحظة «ماذا الآن؟». اختزلت بهذا السؤال الداخلي كل الاحتمالات حول أحداث اليوم منذ استيقاظها عند الفجر حتى خروج الرجلين من الغرفة «هل تغير قراءة القرآن مصيري؟». بلغت مشاعرها أوج عنفوانها وبدأ الخوف يزول تدريجاً ويحل مكانه شعور بالرغبة الشرسة في الانتقام من الجميع، أحست بأن العالم خذلها وهي تواجه مصيرها وحدها، وزاد من مشاعرها المتفجرة موجة غضب اجتاحتها تجاه سمر يام والفريق الركن ومايك، الذين أوقعوا بها في هذا الفخ، اعتقدت أنهم تواطأوا ضدها وحشروها في هذه الصحراء الموحشة مع الغبار والعقارب والوحدة

القاتلة. «ماذا فعلت لي الملايين المكدسة في حسابي للخروج من هذا الفخ؟». قفزت فكرة خاطفة بينما كانت في قاع اليأس، تواردت الأفكار بعدها، هل تنتحر بعملية عسكرية وتترك الملايين في حسابها؟ «كيف لم أفكر في ذلك؟». تناهى إليها وقع أقدام في الخارج وسمعت صوت مذياع يتحدث عن انتفاضة في منطقة «الأنبار» كانت المرة الأولى تسمع فيها خبراً من الخارج وشعرت بأن ثمة أحداثاً تدور ولا تعلم بها نتيجة العزلة، ربطت بين الخبر والحسابات المالية المكدسة لديها «لا يعلم هؤلاء الذين في الخارج ما أملك؟» تواردت الأفكار وبدأ الثقب يتسع في النافذة الخيالية التي فتحت في رأسها، أيقنت أن هدف مايك من فتح الحساب لها ليس حماية أمواله فقط، بل حمايتها هي، حتى الفريق الركن حازم عبد الرحيم كانت لدية خطة وهو يقول لها ستحملين حياتك على كفك «الآن حياتي على كفي».

عندما هم أحد الرجال باقتيادها إلى الخارج، توقفت عن السير خلفه وأثار ذلك رد فعله بالقول:

«تنتظرين مني جرك بالقوة».

ابتسمت له وقد استدرجته للاقتراب منها وحين عاد إلى الوراء أسرعت وأغلقت الباب خلفهما وسط استغرابه، لاحظت الذعر على وجهه، فردت بسرعة قبل أن يتصرف برد فعل معاكس يثير الخارج.

«أنت تعرف ماذا يجري في الأنبار، أنا مستعدة لتمويل الانتفاضة بالملايين».

قالت ذلك ووضعت مصيرها في كفها، تعرف أن المنطقة كلها تتعاطف مع ما يجري في الأنبار، وهي بذلك دفعت ثمن مجازفتها، كانت مجازفة قاتلة، لكنها وجدت في الرجل الذي يتحدث لهجة العشائر، وقد ميزت خلفيتها، فرصة في سبر غوره، لعل ثمة صدفة تجمع بينه وبين ما يجري في الخارج، كانت قد التقطت الخبر الذي أشاعه المذياع وطورت الفكرة في رأسها، فهو لا يعرف أنها التقطت الخبر من المذياع الذي كان يبث من بطارية، ولن يربط بينها وبين سماعها للخبر، حينئذ رأت ردة فعله الأولى علامة استفهام صارخة كأنها ضربة فوق الرأس، تسمر في مكانه والتفت حوله ليتأكد من عدم وجود من يترصد، اقترب منها وتعمدت رسم ابتسامة زائفة على وجهها رغم دقات قلبها المتلاحقة لكنها أخفت تلك الموجة المرعبة وراء نظرة ثاقبة تعمدت اصطناعها علماً بأنها من الداخل كانت ترجف ذعراً.

«من أنتِ؟».

«يسرا القرمزي».

ران صمت مطبق وسط نظرات ساهمة من الرجل الأربعيني، كان شعره منسدلاً من الخلف بينما كانت بداية الصلع في المقدمة، ظهرت حبيبات من العرق على جبهته رغم تحسن الطقس وانقشاع الحرارة النهارية، لاحت لها صدمته من سماع ذلك «بدأ مفعول السحر»، قالت في داخلها وأسرعت بضرب الحديد وهو ساخن.

«نفذ الأوامر المطلوبة منك ولكن أبلغ سراً أيّاً ممن تثق بهم

بإطلاع العشائر عن مكاني، ولن أنسى لك هذا المعروف، لكل مجازفة جائزة في النهاية».

خشي الرجل أن يكون قد تأخر عن اصطحابها، أشار إليها بالخروج معه من دون أن تعرف رد فعله ولا ماذا ينوي أن يفعله ولكنها سلمت أمرها للقدر بعد هذه المحاولة الأخيرة لإنقاذ نفسها من الإعدام الانتحاري، سارت وراءه خطوتين وهي تهمس في أذنه بآخر أوراقها المتبقية.

«مئة ألف دولار وحدك».

****

(٧)

«يسرا جبار الشريف القرمزي».

تردد اسمها في القنصلية البريطانية بالبصرة وتحركت ماكينة الاستخبارات والمعلومات تحشد الرجال للتنقيب في أوراق المرأة البريطانية المختفية منذ أكثر من سنة، ظلت الخطوط الهاتفية شغالة طوال الوقت بين البصرة والمحافظات الأخرى، لكن التركيز جرى على البصرة إثر المعلومات غير المؤكدة الواردة إلى الاستخبارات العراقية والبريطانية عن وجودها في البصرة، بدأ البحث والتنقيب في إثر بلاغ لا أحد يعلم كيف ورد إلى السفارة البريطانية في بغداد عن اختفاء مواطنة بريطانية من أصل عربي، كان هناك من يقول من المخبرين بأنها اختطفت بينما كانت تقوم بعقد صفقات أسلحة لرجال المقاومة السنية، وبعضهم نسبها إلى رجال النظام السابق من البعث والعسكريين، بينما قال آخرون بأنها متواطئة معهم وصنفها في خانة الإرهابيين، بل ذهب بعضهم أبعد من ذلك بأن قام بوضع خط أحمر بالقلم تحت اسمها وكتب تحته «يسرا الإرهابية». سارت معلومات القنصلية البريطانية في اتجاهين، اتجاه يجري البحث عنها باعتبارها

مواطنة بريطانية مختطفة، واتجاه آخر كان يبحث عنها باعتبارها مواطنة تحمل الجنسية البريطانية، مطلوب القبض عليها بصفتها إرهابية، لكن الاسم أخذ يتردد في أكثر من بقعة فيما ظلت هي لغزاً بعد خروجها من المنطقة التي كانت محتجزة فيها. وصل الخبر إلى بعض التجار وأصحاب الصالونات الراقية التي كانت هي من روادها في مدينة دبي، أثار ذلك موجة تساؤلات لدرجة ظن البعض أنهم وقعوا في مأزق من خلال التعامل معها قبل اختفائها.

في بريطانيا تسلل أحد المحققين إلى ملفاتها لدى فندقي «الهوليدي إن» في لندن و«كينغستون» وعبث بالمعلومات ثم جرت عملية تنقيب سرية في علاقاتها من دون أن يثير ذلك انتباه زملائها وزميلاتها من العاملين الصغار، كان الاهتمام بها يتزايد كلما اتسع نطاق التحقيق ولم يصل إلى نتيجة عن مكان وجودها، كل ما كان يتردد على ألسنة البعض عبارتا «يسرا البريطانية» أو «يسرا الإرهابية» بحسب تشخيص الأشخاص الراصدين لأخبارها ومزاجهم؛ شخصية واحدة كانت تعلم بكل ما يجري حولها، إنه الشيخ، وهو اللقب لأحد رجال العشائر، فيما عدا ذلك ظل شبح يسرا البريطانية يحوم فوق رؤوس كثير من الأشخاص في أكثر من دولة ومدينة، فكان اسمها يتردد في لندن وبغداد وفي دبي، بل هناك من وصلته شائعات حولها عن طريق السفارة البريطانية في البحرين، غير أن الصمت يعم الجميع خشية التورط حين يجري ترديد اسمها؛ أصبحت يسرا القرمزي عنوان

الأخبار السرية غير المعلنة، باستثناء خبر ورد في صحيفة «الغارديان» البريطانية حول المواطنة البريطانية التي يجري البحث عنها، وفيما انتشرت الأسئلة حولها ظلت الأجوبة معلقة، وخلف كل هذه الأبواب المغلقة كانت هناك غرفة واحدة سرية يجري فيها تداول اسمها، مكتب الفريق الركن حازم عبد الرحيم الذي شهد لقاءً بينه وبين رجل دين سني، في الخمسينيات من العمر، له وجه طويل ونحيف ظهر بعض الشحوب عليه، تكسو وجهه لحية خفيفة يعلوها الشيب في بعض المناطق وبدا من سماته مسكوناً بالجمود من أي تعبير، قال له وهو يتعمد عدم النظر إلى وجهه مباشرة.

«لقد ورطت هذه المرأة الجميع وكشفت عورتنا».

لكن الفريق الركن الجالس خلف مكتبه والذي بدت عليه الثقة، رد عليه بنبرة تحمل عتاباً وتوبيخاً.

«لا لم تفعل أكثر مما كان متوقعاً، لقد كنتم في فوضى قبل وصولها، وهذه نتيجة عملكم غير المنظم».

«على العموم نحن غير معنيين بها، ما يهم متى تبدأ العملية الكبرى؟».

ضحك الفريق الركن ثم قال ممازحاً الرجل:

«سمها الجهاد الأكبر».

رد ببرود غير عابئ بمزحة الآخر.

«لم تجب عن سؤالي؟».

فكر الفريق الركن ثم جال بنظره برهة وقال بحسم:

«حينما تأتي الإشارة من الجيش».

انحرف الحديث عن يسرا ودخل متاهة الأسرار بينهما ولكن حازم عبد الرحيم أعاد الموضوع إلى بدايته وهو يسأل كمن لا يملك الخيط.

«ماذا ستفعلون بشأنها؟ لقد وعدت الرجل الكبير بالحفاظ على حياتها وإن وقع لها حادث فقد يحدث انقلاب في العلاقات».

«هل كان من الضروري أن يراها في هذا الوقت بالذات الذي يجري الإعداد للعملية الكبرى؟».

كان ضباب لندن الصباحي قد خيم على الجميع وفي إثر ذلك ساد الظلام محدثاً العتمة التي امتدت أكثر من أسبوع، استمر خلالها المطر يهطل بلا انقطاع واحتجبت الشمس عدة أيام وترك ذلك بصماته على وجوه البعض في شكل رتابة خلفت بدورها ما يشبه الكآبة، صحت لندن ذلك الصباح وعناوين الصحف البريطانية تحمل خبراً مثيراً لكل من يعيش على الأرض البريطانية «التحقيق مع مايكل محمد» كان الخبر وحده كافياً ليوجه الأنظار إلى المواطنة البريطانية يسرا القرمزي التي كانت على صلة به وقد دفع ذلك الخبر الفريق الركن ليسأل رجل الدين القابع أمامه والذي بدا في حيرة من أمره كما لو تذكر الخبر توّاً

«ما صلة هذا الرجل بها؟».

كان الهدوء يسود الغرفة ويكاد يسمع صوت الأنفاس، مرت فترة وجيزة قبل أن يرد الرجل الآخر قائلاً:

«يسمونه رجل الساعة».

رد الفريق الركن وقد نهض وأخذ يدور في المكان فيما الآخر ظل مكانه ولكنه استدار وهو على مقعده ليتابع الحديث معه.

«من هو مايكل محمد؟ لا تقل لي من القاعدة فستكون كارثة على الجميع».

لم ينته الأمر بعد ذلك، فقد ظل العنوان الرئيسي لأحاديث الصالونات والمجالس والمكاتب في كل من لندن وبغداد ودبي هو يسرا القرمزي، أين اختفت؟

هي وحدها تعلم أين تكون، لكن ذلك ظل وقتاً طويلاً سر الشيخ.

****

(٨)

ردت على الشيخ المهيب، وهو اللقب الذي يناديه به رجاله من الحرس والمستشارين والمرافقين بهدوء ومن غير تكلف قائلة.

«عانيت خلال هذا الشهر كما لم أعانِ كل هذه السنين، لقد كان الجميع متوترين ولا أعرف سبباً للأمر، لكن الجماعة هنا أكرموني».

له عينان سوداوان تشبهان عيني الصقر، ترسلان بريقاً يشبه الشرر، أنفه الطويل يمتد إلى الأعلى ويعلن مظهراً للشموخ، لحيته البنية اللون خفيفة للغاية تختلف عن كل اللحى التي عرفتها من رحلتها الشاقة عبر المناطق والبراري والكهوف، كان يرتدي دشداشة بيضاء رغم برودة الجو بعض الشيء، مع غترة وعقال كذينك اللذين يضعهما سكان الجزيرة العربية، وقف في المكان الواسع الذي بدا على هيئة ساحة محاطة بالسيارات «البيك أب» والعربات، يعتليها رجال ملثمون، بعضهم حمل الأسلحة الرشاشة الخفيفة، لم يكن المكان مرصوفاً بالإسفلت، ما أثار الغبار في الوجوه كلما تحركت السيارات، كانت يسرا تقف أمام الرجل وحولها عدد من الرجال اكتفوا بالمراقبة فيما كان الحديث يدور بينها وبينه.

«حمداً على سلامتك».

قال عبارته بنبرة مقتضبة وتمعن في وجهها ثم استطرد.

«المنطقة كلها على كف عفريت بما فيها الدول، وأنت فيها كقطرة في بحر، كيف انزلقت بك الأمور إلى هذا الحد؟».

أشارت بيديها في الهواء علامة على عدم فهمها للأحداث التي جاءت بها إلى هنا، كان وجهها شاحباً وعيناها متعبتين وبشرتها بدت صفراء ميتة وجسمها ظهر هزيلاً نتيجة التجويع، ما دفع الشيخ ليسألها.

«لم يطعموك؟».

«بلى، ولكن نفسي مسدودة يا طويل العمر».

التفت الشيخ إلى أحد المقربين منه وهو ساعده الأيمن كما بدا من وقفته، وترقبه لإشاراته، وقال له بلهجة تنم عن الاهتمام البالغ بها، كما لو كان يعد لها ترتيباً ما.

«صباح، خذ رجالك واذهب بالسيدة الكريمة إلى بيت النساء ولا يعلم بها أي كان خارج الدائرة، وسأكلف البيت بالباقي عن طريق الهاتف».

رد صباح بعبارة مختصرة.

«أبشر يا طويل العمر».

على بعد أمتار كانت هناك رقعة أرض مهجورة، تكدست فيها الأنقاض من أنابيب حديدية وسيارات قديمة وعربات عسكرية مدرعة شبه محطمة، بعضها بدا صالحاً للاستخدام، ظهر بضعة رجال مدنيين

مسلحين بالبنادق الآلية الخفيفة، لفت انتباهها هذا المظهر ورأت فيه خلاف ما كانت تراه في المجموعات المسلحة التي انزلقت معها منذ البداية من خلال خيوط لندن ودبي. لم تكن هناك لحى طويلة ولا شعور كثيفة على الرأس، لم تر التوتر المزمن يتملك أولئك الرجال كالذي لمسته منذ وطئت قدماها مخيمات اللاجئين والكهوف المهجورة في المناطق النائية التي تعبرها قوافل سيارات «البيك أب» و«الجيب» المدججة بالمدافع الرشاشة المتوسطة، راح عقلها يقرأ الصور ويربط الخيوط، تذكرت أن الرجل الذي فتح لها الطريق نحو هذا المكان كان في الأصل منظماً مع المجموعات الأخرى الموتورة التي كادت تعدم هناك، لولا مجازفتها وإلقاؤها بورقتها الأخيرة التي عتقتها من الموت، طفقت طوال الوقت وهي تنتظر إرسالها إلى بيت الشيخ مع النساء، تتأمل التحركات والاتصالات واللهجات التي طمأنتها وشعرت من خلالها بأنها في ديارها، قارنت بين لهجات المجموعات الهاربة منها والتي اكتست بالغرابة والغموض وبين اللهجة البغدادية ولهجات أهل «الأنبار» و«الرمادي» و«الفلوجة» وغيرها من مدن الوطن «أنا في أرضي أخيراً». ولكنها في داخلها لم تطمئن لما يخبئ لها المجهول، لقد اعتادت المفاجآت المخيبة للآمال، بداخلها الحدس المخيف نفسه الذي ينبئ باستمرار النحس الذي يلاحقها، لم تقو الملايين في حساب رصيدها التي هبطت من السماء وعمليات التجميل التي أجرتها وتهريبها من الإعدام، على إعادة التوازن داخلها، بدا الكون كله عبارة

عن فخ هائل تسقط فيه كل مرة تنهض منه، كهذا الغبار الذي يتطاير أمامها من الساحة الترابية المليئة بالناس والسيارات والأسلحة، بدا الوضع كأنه بركان يغلي ويوشك على الانفجار، ثمة في الأفق ما ينبئ بأحداث جسام تظهر علاماتها على الوجوه وفي هذا الوجود المكثف للرجال والأسلحة وعبر العواطف المنفلتة التي تبدو في مشاعر الناس وفي تحركاتهم، وكأن هناك ريموت كونترول يحركهم، وهذا ما بدا من سلوك صباح المساعد الذي حركته أوامر الشيخ، وليست سوى دقائق حتى عاد بسيارة، «مرسيدس» رصاصية اللون، توقفت، هبط منها واقترب بعد أن فتح باب السيارة الخلفي وأشار إليها بالدخول «مجازفة أخرى قادمة» على إيقاع هذا الشعور، استرخت داخل السيارة وشعرت بحرارة مقاعدها الجلدية السوداء، لفحتها رائحة تبغ خفيفة بدا لها أن هناك من كان يدخن بالسيارة، لم تستطع تمييز رائحة التبغ وخمنت أن يكون نوعاً من السيجار الرخيص لأنها تعرف نكهة السيجار الفاخر منذ التقت «مايك»، للحظة وعلى إيقاع رائحة التبغ، تذكرت الرجل الذي لم يعد حدسها ينبئها بمكانه ولا ماذا حدث له؟ اكتفت بالصمت ومراقبة الجموع البشرية في الخارج من نافذة السيارة، رأت جزءاً من وجه الشيخ يقف كعادته شامخاً تعلو وجهه سمات التحدي ومن حوله الحشد، مرت دقيقتان تقريباً قبل أن تتحرك السيارة، اتجه خلالها صباح للتحدث مع الشيخ، لمحت وميضاً من حركته تراءى لها أنه كان يهمس في أذن الشيخ، ثم عاد مسرعاً وركب السيارة وانطلقت، لتتبعها ثلاث

أو أربع سيارات من نوع الجيب و«البيك أب» كما هي الحال في كل السيارات التي يقودها رجال الشيخ.

«ما اسم الشيخ؟».

رغم انشغالها بالتطلع عبر النافذة إلى الشارع الذي انطلقت فيه السيارة والسيارات المرافقة، إلا أنها لم تمنع نفسها من طرح السؤال العالق برأسها منذ ساعة وقوفها أمام الشيخ ولم تسمع خلالها أحداً ينطق باسمه أو يتحدث عنه سوى بالشيخ، كان صوتها ضعيفاً يشوبه الوهن وخرجت منها العبارة تعلوها حشرجة سببها غبار الطرق والبراري التي قطعتها طوال فترة تنقلها في السيارات وعبورها الطرق الوعرة وحبسها في الغرف الطينية القديمة والضيقة، ملأها إحساس بالراحة والطمأنينة لرؤيتها البنايات والمنازل والمارة والهدوء الذي يسود الطريق رغم الإحساس بأن ثمة أمراً يحضر من خلال السكون المريب الذي يطبق على كل شيء مرت به السيارة، ويبدو جلياً في حركة الناس والسيارات والوجوه التي تعلوها سمات الغضب.

«نناديه بالشيخ لأنه رئيس العراق الآتي».

ذهلت من عبارة صباح الواثقة، خرجت من شفتيه كأنها قرار اتخذ وسار فيه الجميع، لم تكمل تنفسها وهي تتلقى العبارة الصادمة حتى جاءها صوته مستطرداً.

«هو الشيخ جاسم الذي يتولى قيادة العشائر السنية».

عندما انعطفت السيارة نحو اليسار، اصطدم بؤبؤا عينيها بخيوط

أشعة شمس المساء المائلة إلى الزوال، التي كانت حادة مع نهاية النهار رغم ضعفها؛ كان الطريق الذي عبرته السيارة غير معبد وشعرت وهي تلمح سلسلة المنازل الكبيرة والفخمة وقد بدا من مظهرها الخارجي أنها تدل على حداثة المنطقة.

«من حسن حظك أن وصلت اليوم، ولو تأخرت بضع ساعات، لحشرت في مأزق، لكن الله ستر».

أحست بأن الرجل يسعى لفتح حديث معها من دون أن يقتحم خصوصيتها، وبدورها وجدتها فرصة لتعرف ماذا جرى في العالم خلال فترة احتجازها، كان التوتر الذي لمسته مع محتجزيها يوحي بتطورات لم تطلع عليها وهي حبيسة الحجيرات المعتمة، فأمسكت بطرف خيط الكلام وقالت بصوت هادئ بعد أن خفت حدة قلقها.

«أفقت فجأة ووجدت نفسي بينكم، أشعر بأني وسط أهلي».

«الحمد لله، لقد كنت محظوظة والله يحبك».

ساد الصمت برهة ثم استرسل صباح قائلاً:

«ستجدين الرعاية في البيت الكبير إلى أن يكتب لك العودة إلى المكان الذي تنتمين إليه بضمان الشيخ حفظه الله».

«هل يعلم بأني مواطنة بريطانية؟ ولو علموا، هل سيغير ذلك من وضعي؟»؛ وفي إثر أسئلتها الداخلية مع نفسها، قفز إلى ذهنها مصير جوازها البريطاني الذي احتجزه حارسها ووعد بحمايته، وجدتها فرصة

لتسأل صباح عن كيفية استرجاع الجواز من غير أن تخبره بجنسيته قبل أن تمضي الأيام وتيأس من استرجاعه.

«لقد أخذوا جوازي».

التفت إليها وهو يقترب من منزل كبير يقع في طرف الطريق المفتوح على رقعة أرض واسعة غير مأهولة، بدا من مظهره الخارجي أشبه بالقصر.

«لا داعي للقلق، الجواز مع الشيخ، لقد استرده رجالنا».

خفق قلبها وعادت إلى صمتها وابتلعت نفسها «يعرفون هويتي» وماذا لو عرفت بالضجة حولها؟ ماذا لو عرفت ما يجري في لندن و«كينغستون» وتحقيقات المخابرات البريطانية؟ لا شك أنها حالمة الآن بالعودة إلى «كينغستون». كل الأفكار كانت تنبع من هذا الشعور تجاه تصريح أدلى به الفريق الركن فيما يخص والدها وتركها بعدها تخوض كل هذه المغامرات والمجازفات من هذه النقطة «هل كانت كذبة؟». لم تطل الحديث مع صباح فيما يخص جواز السفر، كانت موقنة بأنها أقلّه خرجت من دوامة الإعدام، زالت الغمة من حولها ودخلت دائرة العتمة وهذا أقله أفضل من المراوحة في محيط الموت.

«ستكونين بمأمن هنا حتى يكتب لك الفرج وهو آت بإذن الله تعالى».

قال العبارة وهو يسلمها إلى المرأة الكبيرة التي يطلق عليها «أم صقر». كانت سيدة أربعينية مكتنزة الجسد بصورة رشيقة، راقية

المظهر، ذات هيئة وقورة، استقبلتها بابتسامة حانية كشفت عن أسنان بيضاء وكأنها تعرفها منذ زمن، كانت ترتدي ملاءة سوداء تضعها على رأسها من دون حجاب وقد برزت خصلات شعرها الأمامية ذهبية ناعمة، ولدى تقدمها منها وحولها بضع نساء مختلفات المظهر والحجم ومتفاوتات في السن، أمسكت بيدها وقربتها منها تتفحص وجهها قائلة:

«بنيتي، لاشك أنك عانيت الكثير خلال الأيام المنصرمة».

لمحت يسرا وجوه النسوة الأخريات ينظرن إليها بعلامات استفهام وترقب ولاحظت إحداهن صغيرة السن ظلت مشدودة نحوها وعيناها معلقتان بها طوال الوقت، وحين ركزت التأمل فيها وجدت نفسها تواجه وجهاً أليفاً يذكرها بوجوه فتيات الزبير ومنهن صديقاتها في المرحلة الثانوية «يا سبحان الله» همست في سرها ومازلت تحدق نحوها بين فينة وأخرى إلى أن انتبهت أم صقر إلى نظراتهما المتبادلة، فسحت حينها فجوة وأشارت للفتاة بالتقدم وتوجهت نحو يسرا بالكلام قائلة بنبرة مازحة:

«بنتي ريم لا تتصوري هوسها بالمجازفات، أخشى عليها من والدها بو صقر الذي شجعها على المغامرة ومسك السلاح».

«ماما، حياتنا كلها مجازفة اليوم».

ردت أم صقر قائلة وهي ترمق الفتاة بنظرة ثاقبة، وتعود بابتسامة نحو يسرا.

«تخرجت في الجامعة دبلوم اقتصاد، وانخرطت مع والدها في السياسة، انظري إليها، إنها في سن الزواج، وحتى هذه اللحظة تفكر في الأسلحة».

ثم التفتت نحو يسرا قائلة بنبرة من يريد إنهاء الحديث:

«أنت مرهقة بنيتي، سندعك تغتسلين وتبدلين ملابسك ولا تقلقي ما دمت هنا في منزل الشيخ».

نطقت المرأة كلمة الشيخ بفخر مثلما ينطقها بقية الرجال، وقبل أن تتوارى خلف الجدران لمحت نظرة ذات مغزى من ريم وكأنها توحي بإعجاب كما لو كانت تعرف مغامرتها، ذكرتها الفتاة بنفسها قبل سنوات وشعرت نحوها بعاطفة جياشة وخشية عليها من المجهول كالذي حمله لها عبر السنين، ومن نتيجته وجودها في هذا المكان الذي لا تعرف أين؟

في خضم عتمة الليل، تسللت أضواء شاحبة في الخارج من حول المنزل الذي يحيط به عدد من السيارات المختلفة الحجوم والألوان، استقرت يسرا في ليلتها الأولى على فراش وثير من القطن في غرفة واسعة أشبه بصالة تتسع لعدد من الأفراد، لم تتأمل الغرفة كعادتها فقد كان انتباهها في جهة أخرى من العالم، كانت تسرح الفكر باتجاه «كينغستون» والعودة إلى حياتها الطبيعية البسيطة حتى لو سحبت الملايين من رصيدها الذي حتى هذه اللحظة لا تعرف مصيره بعد سلسلة الأحداث التي مرت بها، اكتفت بالتقاط أنفاسها

وتأمل سقف الحجرة المزينة جوانبها العليا بإطار من الجبس المنقوش باللون الذهبي، كان السقف أبيض اللون تتوسطه ثلاث نقشات كبيرة لورود محمدية ذكرتها بشجيرات الورد المحمدي في منزل الزبير، مرت الأفكار تسرح كالخلايا بالآلاف تعبر رأسها من جميع الأمكنة والأشخاص. قفز مايك، وسرح بها بعيداً، تخيلته في مدينة أوروبية هارباً، ثم اجتاحتها أفكار وهو في سجن بريطاني يخضع للتحقيق، ثم انتقلت إلى المرأة المنقبة خضرة المياس ومصيرها وما عانته بسببها، وسرعان ما انعكس تفكيرها في جهة الفريق الركن حازم عبد الرحيم وكذبته أو صدقه بشأن والدها الذي مازال حياً يرزق بحسب قوله، توقفت عند سمر يام وكيف توارت نهائياً عن المشهد وكأنها شبح عبر حياتها فترة وجيزة ثم ذاب في ضباب الليل الأدكن، كانت عيناها مفتوحتين على السقف عندما استقر تفكيرها في الشيخ جاسم، تخيلته بهيبة والدها جاء من مسافات بعيدة لينقذها من إعدام محقق، رأت في الشيخ حلماً لرجل طالما طاول خيالها وشكل لها نبراساً للرجال الذين تصورتهم أسطوريين وحلمت بواحد منهم وقد استقرت معه في منزل واسع كهذا البيت الذي يؤويها هذه اللحظة «يا له من أسطورة رجولية!». سرحت في وجهه السمح المكتنز بالصرامة وفي لحيته الخفيفة السوداء المختلطة بالبياض والمشذبة بعناية «جاء ووقف أمامي ومضى كأنه حلم». ودت لو تتاح لها الفرصة وتجلس أمامه وتتأمل وجهه بصمت من دون أن تتحدث إليه، كان صمته لغة

توحي بالكثير من الكلام، وعيناه كعيني النسر تأسران الوجوه أمامه.. «لقد أنجب الفتاة ريم التي عيناها تقدحان شرراً وقد استمدتهما منه بموروث قوي برز فيها ولكن بعفوية الفتاة المراهقة». هكذا تخيلتها وهي تسرح في والدها الشيخ جاسم.

مضت ساعات الليل، ولاح الأفق من خلف الشمس من دون أن تسمع أذان الفجر، خمنت أن المنطقة حديثة العمران ولا توجد فيها حتى الساعة مساجد تصدح بالأذان كما اعتادت في كل الأمكنة التي مرت بها، لا شيء معها يشير إلى الوقت، لا ساعة ولا هاتف جوال ولا جهاز، كأنما أرادوا لها أن تستقر وتهنأ بالهدوء بعيداً عن ضغط الوقت، نهضت واقتربت من النافذة، أزاحت الستار وفوجئت بالسيارات وقد انسحبت جميعها من حول المنزل ولم يتبق سوى رجل طاعن في السن يقود خمسة من الخراف بعيداً عن المكان «ربما هذه الخراف هي وجبة رجال الشيخ لهذا اليوم».

كان الوقت مبكراً، تناهت إليها بضعة أصوات لبعض سكان المنزل وقد صحوا منذ الفجر، لم تميز من بينهم أصواتاً محددة وأدركت أن الحركة تبدأ منذ الفجر وقبل شروق الشمس، فكرت في كيفية قضاء الوقت كله في المنزل، ولكن بمجرد أن طاف برأسها شريط الاحتجاز أيقنت أنها لن تتذمر حتى لو قضت الدهر كله في هذا البيت.

خارج الأسوار، وبعيداً عن هذا المكان بمسافات واسعة، ثمة بحث وتقصٍّ عنها واتصالات تجريها الخارجية البريطانية عن طريق

سفاراتها وقنصلياتها في كل من دبي وبغداد والبصرة، لا تعلم هي بها ولم يخطر ببالها كل هذا التحقيق حولها.. هي لاتزال تظن أنها محصورة وسط الدائرة السرية التي جاءت منها، كان هاجسها الجواز ومعرفة الطريق إلى لندن ولو عرفت بما يجري لفضلت التريث والبقاء هنا وسط النسوة اللواتي ينتمين إلى ديارها. ورغم فقدانها أوراقها وكل محتويات حقائبها أثناء عبورها البراري والصحارى إلا أن شغلها الشاغل هو الجواز، حتى بطاقات السحب ودفاتر الشيكات لا تعلم أين انتهى بها المطاف؟ وفيما هي تفكر في كل تلك المفقودات، كان مقر السفارة البريطانية في بغداد يشهد حركة تبادل الاتصالات مع أكثر من جهة في العالم من بينها العاصمة البحرانية التي كانت خلالها السفارة البريطانية هناك تتلقى التعليمات بالإعداد لنقل يسرا القرمزي إلى لندن عن طريق المنامة في حال التوصل إلى معلومات عن مكان وجودها. ظهر في الأفق ثمة خيط أمسك به التحقيق بدأ من مطار الإمارات بدبي، حيث غادرت منه في المرة الأخيرة وكانت وجهتها العاصمة الأردنية عَمان، فشمل التحقيق الأردن، وتوصل عن طريق مراكز الإغاثة، عن عبورها إلى سوريا والعراق وهنا بدأت الخيوط تتسع وتتشعب قنوات البحث لتشمل الحدود وخيام اللاجئين وسكان المناطق الحدودية، وأخيراً توصل التقصي بأنها شوهدت آخر مرة قرب الحدود مع كردستان العراق.

«الشيخ طلب رؤيتك».

نظرت إلى وجهها في المرآة في إثر الطلب، تأملت البثور التي ما زالت آثارها مطبوعة على وجنتيها، لمست شعرها وهالها حالته الرثة رغم مظهره الطبيعي لكنها شعرت بتقصفه، الشيخ يطلب رؤيتها وشعورها بعدم الاستعداد لمقابلة أي إنسان وهي بهذه الحالة زرع فيها الإحباط الذي لاحظته أم صقر من ردة فعلها، وسألتها عن سببه، وبعد تردد فاتحتها بشعورها الدفين تجاه نفسها ومظهرها، ابتسمت لها كعادة شفتيها اللتين لا تفارقهما الابتسامة منذ أن رأتها، كانت المرأة ودودة لدرجة لا تقارن بمن مررن عليها من النساء، عرفت بعد ذلك أنها تنتمي إلى عائلة عريقة جذورها في السعودية وتنتمي إلى قبائل العرب في الجزيرة العربية، مر في حينها شبح سمر يام التي قالت إنها تنتمي إلى عشائر «النيادة» لكن هذه المرأة البغدادية لا تضاهيها امرأة من حيث الود والطيبة، هكذا كانت تراها طوال الوقت مما سهل عليها الاندماج معها والتصريح لها بمكنون مشاعرها.

«هذا ما يقلقكِ يا بنيتي؟ كلها يومان أو ثلاثة وتعود إليك نضارتكِ، دعي الأمر لي».

استغربت تأجيل لقائها الشيخ وخمنت أن وراءه أم صقر التي استعانت بابنتها ريم وكرستا يوماً كاملاً شغلتا وقتهما في العناية بها، بدأتا بأخذها إلى صالون نسائي يبعد أكثر من أربعين دقيقة عن المنزل بالسيارة، تركتها أم صقر مع ريم فيه وعادت أدراجها بعد أن تركت ثلاثة من رجال الشيخ يحيطون بالصالون ومعهما سيارة جيب تقف على بعد

من المكان، لم يكونوا مسلحين ولكنها اكتشفت في إثر عودتها مع ريم وجود السلاح بالسيارة، تم غسل شعرها وتجفيفه ثم دعكه بمواد عشبية بعدها تم تسريحه وتقشير بشرة وجهها ووضعت كريمات عدة دقائق ثم أزيلت وأعيد دهن بشرتها بكريمات أخرى، قضت أكثر من ثلاث ساعات بلا توقف ما دفعها للتساؤل عن سبب هذا الاهتمام غير المبرر «من أكون حتى يكرس الكل وقته لي؟». كانت تدرك من حالة الأسرة المادية الميسورة، أنه من غير الوارد أن يكون الأمر له علاقة بمالها، هذا إن كانوا يعلمون شيئاً عنه، بدا لها مستوى الثراء الواسع الذي تعيش فيه الأسرة من خلال مظاهر البذخ، من سيارات وحرس وحياة مترفة بالإضافة إلى النفوذ الذي يحيط بالشيخ جاسم «إذن ما الدافع وراء كل هذا الاهتمام بي؟».

بعد يومين على تلك الأسئلة التي عصفت برأسها وقفت في تلك الأمسية الهادئة أمام الشيخ جاسم الذي نهض عن مقعده الكبير الواسع لدى ولوجها الصالة الكبيرة الملحقة بمبني تراثي قديم يقع عند منعطف الشارع الرئيسي من المدينة التي عرفت فيما بعد بأنها ضاحية من ضواحي الأنبار «كيف وصلتُ إلى هنا؟» قالت في سرها من دون أن تعرف أخبار المدينة ولا التطورات فيها.

«سأغادر غداً المكان وستذهبين معي، لقد كان حلمك رؤية الزبير، لكن الوصول إلى البصرة محفوف بالمخاطر، سنأخذك إلى قطعة من الزبير في مكان آخر».

هذا كل ما صرح به الرجل الكبير، لكنه زرع في ذهنها عشرات الأسئلة والاستعلامات، وتركها في حيرة بين التوتر غير المصحوب بالخوف كما في السابق ليقينها بوجودها في أمان مع الرجل وبين الشعور بالضياع والمتاهة التي تتسع كل يوم مع فقدانها جواز سفرها وأوراقها وكل ما يتعلق بهويتها وشخصيتها. كانت تشعر بأنها لم تعد، لا يسرا البريطانية، ولا يسرا ابنة الزبير، ولا بشيء يوحي أنها تنتمي إلى بيئة ما، رغم ذلك كانت مستقرة المزاج وشاكرة نعمة الخروج من دائرة الموت الذي مازالت تراه كل ليلة في أحلامها الكابوسية «ماذا عن لندن؟». لا أحد يذكر لها المكان الذي جاءت منه، ولا إشارة أو دلالة على أنها ستعود إلى بلد الضباب «هل سأبقى هنا إلى الأبد؟» أجلت البحث عن إجابة عن هذا السؤال إلى حين ترى بارقة ضوء في نفق المجهول الذي تسير فيه، كرم الشيخ مع رعاية أسرته ورجاله لها وحمايتها أبعدها عن إثارة الفضول والبحث عن إجابات، كانت ترى الوضع غير مستقر في المنطقة وتسمع عن الاحتجاجات والمصادمات من خلال الفرصة التي تتوافر من حولها، إذ بدا لها أن هناك اتفاقاً بين الجميع على إحاطتها بالرعاية من دون اطلاعها على التفاصيل بما يجري حولها في المكان كله، هذا المناخ أسدل على أفكارها الهدوء وأسبغ عليها الرضوخ للحالة التي هي عليها «سنأخذك إلى قطعة من الزبير، ماذا عنى بذلك؟ أيكون للرجل صلة بمن أفكر فيه؟». شغلها هذا الموضوع طوال الطريق الذي قطعته قافلة السيارات عبر توتر بدا

واضحاً على وجوه الرجال، لم تر الشيخ خلال مسيرة القافلة، ولم تسمع عنه، ما نبش التوتر في نفسها، ثم ازداد توترها وأضيف إليه القلق خلال عبور المسافات الوحشية التي تباينت خلالها المواجهات والأحداث من غير أن تفقه شيئاً مما يدور، كانت تلمح السيارات تنطلق بسرعات خيالية تقطع المسافات مخلفة وراءها الغبار الذي سرعان ما ينقطع إثر بروز الطرق المعبدة وبعدها تخفض السرعات وأحياناً تتوقف ولا تعلم ماذا يجري حينذاك، لكنها ومن خلال التجربة المروعة مع الموت الذي مرت به، وعبر الوقائع والوجوه والأيام والليالي التي شهدت معاناتها، وُلد لديها حدس بما يجري «هل الجماعة في حالة هرب؟».

مع حلول المساء، وعند العبور من نقطة حاجز للجيش توقفت السيارات برهة، سمعت خلالها صوت مشاجرة وسباب لم تتبين تفاصيله، فقد كانت سيارتها على مسافة من نقطة الجيش «ماذا يجري في العراق؟». التفتت إلى أحد المرافقين، كان جالساً إلى جانبها آملة أن ترى في عينيه ما يطمئن، فرأت الابتسامة الباردة نفسها التي لا تعبر عن شيء، بعدها بدقائق اندفعت قافلة السيارات ورأت خلالها وجوه أفراد الجيش وأيقنت من أن أحداً لم يرها لوجود طبقة الكربون الأدكن على زجاج السيارة، ولم تمضِ بضع دقائق حتى تناهى إليها صوت زخات من الرصاص تنطلق من عدة اتجاهات لم تتبين مصدرها، وحينها دب القلق داخلها وبدأ يساورها الشك في الطريق الذي يقطعونه، ران صمت إثر صوت الرصاص ثم تبعته حركة غريبة شعرت بها إثر انطلاق

سيارتها بسرعة فائقة تجاوزت المائة وثمانين كيلومتراً في الساعة، كان الطريق عبارة عن شارع عام تقع على جانبيه الأشجار، ظهرت سلسلة منازل متباينة الأشكال، لم تلمح سوى سيارة واحدة خلفهما من بقية القافلة واختفت بقية السيارات وبدا لها بأن هناك مشكلة ما حدثت، بعدها تأكدت من ذلك إثر ظهور سيارة أخرى من طريق فرعي تابعة للقافلة وقد بدا الدخان يتصاعد منها، لم تملك كتم فضولها فسألت الذي كان جالساً عن يمينها.

«ماذا يحدث؟».

ظلت الابتسامة الفاترة نفسها عالقة بشفتيه، تنهد وقد بدا في غاية الهدوء وعدم الاكتراث، نظر إلى عينيها وقال بنبرة من يريد أن يطمئنها:

«أمر روتيني نمر به كل يوم».

(٩)

مع اشتداد رياح الشمال الساخنة المنذرة بموجة عاتية من السعال، مضت الساعات التالية على وصولها أربيل العاصمة تتأمل الشوارع والطرقات التي كانت تعج بالحركة، فوجئت بالمناخ الدافئ والغبار وزحمة المشاة والسيارات، في البداية اكتفت بتأمل الأمكنة والبشر ورأت الوجوه المنتشرة في أربيل لا تختلف عن الوجوه التي اعتادتها في الزبير والبصرة وبغداد، شعرت بارتياح لوصولها إلى بناية قديمة الطراز تطل على الشارع العام ولها مدخل آخر محاذٍ للساحة التجارية التي اكتظت بالمؤسسات، صدمت من رؤية البنايات الشاهقة، البنوك وشركات الطيران، بدت لها أربيل مدينة خيالية مقارنة بالزبير التي هجرتها منذ سنين، لم يدر بخلدها أن تصل إلى آخر نقطة في الديار ولا تستطيع بلوغ مسقط رأسها، كانت مأخوذة بالمكان والبشر من المذاهب والأجناس كافة لكأنها لندن بتلك السمات مع فرق المناظر والبنايات، توقفت بنظرتها لحظة لمحت فيها اسم بنك «إنتركونتننتال» رأت فيه خيطاً لمراجعة حساباتها لو كانت تملك جواز سفرها، عندما

التقت في المساء صباح، مساعد الشيخ، أطلعته على رغبتها في استعادة جوازها.

«الجواز معنا وبعض الأوراق، منها مستندات لم نفتش فيها سأسلمك إياها حين تستقرين».

استغلت تصريحه ذلك حين رأت على وجهه استعداداً لتقبل أسئلتها فأسرعت بالقول:

«متى أستقر؟ أريد العودة إلى لندن».

هنا توقف فجأة ونظر نحوها بثقة من يملك الأسرار، تأمل وجهها بنظرة لم تخفِ الابتسامة ما وراء الكلام الذي ينوي قوله، اتجه نحوها وكانا يقفان بمحاذاة المكتب الواسع بالمنزل في البناية نفسها التي استقرت فيها وكان واضحاً من شكل المكتب، أنه يعود لأعمال الشيخ.

«بنتي يسرا، لا تعلمين ماذا جرى من حولك طوال الفترة المنصرمة، ولا نريد أن نصدمك، أنت مطلوبة لجهات عديدة منها أجهزة استخبارات دولية، في نظر البعض أنت إرهابية وهناك من يلاحقك، اطمئني، أنت في حماية الشيخ وقريباً هناك ترتيب بخصوص استقرارك».

صدمت بكلامه، كان واضحاً من ردة فعلها هول المفاجأة مما ورد في حديثه لها، أدركت مدى فداحة الأمر وفسرت سر الصمت الذي لاذ به الجميع من حولها خلال الفترة المنصرمة لكنها لم تتوقع

أن تبلغ المسألة حد المخابرات الدولية، ظنت في البداية مزحة من صباح ورددت العبارة التالية بنبرة استفسارية.

«مخابرات دولية تلاحقني؟».

رد بنبرة حاسمة.

«المخابرات البريطانية، تظن أنك إرهابية وينقبون في ملفاتك في كل مكان».

«أنا؟».

قالتها بدهشة من نسيت ماذا جرى لها خلال الفترة الماضية، وقبل أن يرد الرجل استعادت في ومضة خاطفة شريط وقائع الأحداث مع مايك وسمر يام والفريق الركن وعبدالعزيز، وكل ما وقع لها في المخيمات والبنايات المهجورة وعلى الحدود، مرت الصور كأنها نيزك وقع بسرعة فائقة وأحدث كل ذلك العطب في محيطها، حين رن صوته مرة أخرى سمعته يقول:

«أنت في نظر العالم إرهابية يا يسرا ولا بد من محو هذا الملف قبل أن تستعيدي حياتك الطبيعية، التي لن تكون بأي شكل سهلة وبسيطة، لن تعودي كالسابق بأي حال من الأحوال».

غاب لثوانٍ ثم عاد حاملاً كأسي شاي أحمر، ناولها واحدة ووضع الأخرى على المكتب إلى جانبه فيما وضعت كوبها على طاولة مستطيلة تتوسط المكان أمامها وبدأت التفكير بينما راح ينظر إليها بصمت، مرت دقائق أخذا خلالها يرشفان الشاي، نهض فجأة وقطع الصمت قائلاً:

«لا خوف عليكِ مع الشيخ».

«أعرف يا أخ صباح، كم أود رد هذا الجميل لكم».

ابتسم وقال وهو يحك ذقنه:

«ما زال علينا دين لك لم نسدده بعد وسيحين موعده قريباً إن شاء الله».

حين عادت إلى مكان إقامتها لاحظت وجود عدة نسوة في البناية نفسها وفي غرف منفردة ومزدوجة، غرقت في تفكير عميق ومشوش، تداعت خلالها كل الوقائع بما فيها أقوال الرجل الأخيرة عن الدين المتبقي «ماذا قدمت لهم ليكون لي دين عليهم؟».

كان لانتشار الصور والذكريات والتداعيات التي مرت بها تأثير في نومها المتقطع سواء في الليل أو في النهار، امتلأ محيطها بالفراغ والضجر، وبدأ السأم يتسرب إلى داخلها رغم الاهتمام المستمر من قبل رجال الشيخ وبعض النساء والفتيات اللواتي رافقن القافلة التي رأت فيها ما يشبه الهروب من المنطقة التي قدموا منها، لم تتعرف إلى ملامحها إلا أنها وجدت فيها ملامح من بعض سمات الزبير، كانت البصرة بالنسبة إليها محيطاً يشبه البحر الذي يحتوي على مختلف أنواع الأسماك، عكس الزبير التي كانت لها بحيرة صغيرة تضم الجيران والأصدقاء والأصحاب والأهل وكل الذين ينحدرون من العرب «نوع واحد من السمك». ابتسمت لهذه الخاطرة التي اقتحمت تفكيرها فيما كانت تعبر الحدود والمناطق وتستحضر الوجوه لتقف بين فينة

وأخرى عند مايك «آه، ليتني أمسك بخيط فحسب». لم تتمكن من طرد الأفكار والصور المتدفقة كالشلال، تحول الفراغ من حولها إلى حنفية تهدر بالتداعيات لكل ما حدث وكأن داخلها بدأ يتنفس الوقائع التي جرت في لندن ودبي والعراق. كان دخولها العراق واحتجازها فيه ذروة الوقائع، صنع منها عقلها الواعي ملحمة دامية دأب في تغذية عقلها الباطن بالحدس المزمن تجاه التوقعات من بقائها أو انتقالها أو ما سيجري لها في الغيب، رأت في الوقت مجرد محطة ترانزيت بانتظار أوقات أخرى تتدفق منها أفكار ومشاعر أخرى غير تلك التي تنبع الآن من ذهنها وهو ما زال مثقلاً بالأحداث المتتالية «هل كانت محاولة لاختطافي من القافلة لدى المرور بنينوى؟». تمادت في التخمين وتوغلت في التذكر واسترجعت الصوت والصورة، استحضرت مشهد القافلة وكيف توزعت سياراتها وتباعدت الواحدة عن الأخرى ثم كان هناك صوت زخات الرصاص ولم تكن واثقة أنه كانت وراءهما سيارة مشتعلة، هدوء الرجلين إلى جانبها انعكس على احتمالات اختطافها «لا لم تكن محاولة خطف، من أكون لأصبح هدفاً لصراع القوى؟». ثم ما تلبث أن اقتنعت بأنها كانت محاولة خطف «لاشك أن معي شيئاً ما يغري الآخرين بانتزاعه، ما هو؟» بحثت فيما تملكه: أسماء؟ أموال؟ أسرار؟ «ماذا لدي؟».

****

«قال تعالى ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾.

كان صوته رخيماً انساب ببطء وخشوع، لدى انتهائه من عبارته القرآنية، نظرت إليه وقرأت في عينيه لغزاً وهو يبعد ذبابة تحوم أمام وجهه، توجه نحوها بنظرة شابها النعاس وتمتم ببضع كلمات ثم قال بنبرة خافتة أقرب إلى الهمس:

«الجهاد يا أختي حق علينا جميعاً ولكن لا يقربه إلا من كان قادراً عليه، وللجهاد وجوه عدة منها التضحية بالنفس أو بالمال أو بالكلمة وأدناه الجهاد بالنية الطيبة، وأنت يا أختي بذلت ما في وسعك رغم عفويتك وقصر تجربتك وحان لكِ أن تستريحي وأمامك طريق طويل تنهينه بالعودة إلى ديارك التي اختارها لك الله».

كان شاباً يافعاً خمنت عمره العشريني، نحيل الجسم وقصير القامة غطت وجهه لحية طويلة أثـارت فيها القلق، كانت تتوق للتواصل مع رجال كالشيخ جاسم وصباح ولكنها فوجئت هذا اليوم بمن يستدعيها من داخل البناية التي تقطنها لتواجه هذا الرجل الذي لا تعلم ما هي مهمته ولماذا يلقي عليها بتلك الألغاز؟ شعرت بأنها اكتفت بل تشبعت من التوجيهات والكلام المرسل، تطلعها الوحيد نحو معرفة مصيرها وأين تستقر؟ حفظت كل العبارات التي يروجها هؤلاء الذين التقتهم عبر مراحل مرورها على العواصم والمناطق، منذ أن أسبغت عليها سمر يام أو سعاد البشراوي تلك التعاويذ وهي تواجه المآزق والكوارث، هذا الرجل يذكرها بكوابيس وأحلام سوداء لاتزال تلاحقها في نومها، لم تتعرف إلى ما كان يرمي إليه محدثها ولكنها

قطعت الصمت القصير بينهما حين اعتدلت في جلستها أمامه وقالت بلهجة خاطفة:

«هل والدي لايزال حياً يرزق؟».

تعرف أنها ليست في المكان، ولا مع الشخص الذي يملك الإجابة عن سؤالها، ولكنها اختارت تلك العبارة لتبدأ معه الحديث، فوجئت بقوله:

«هذا ما جئت أحدثك عنه».

خفق قلبها بسرعة وكأن الأرض زلزلت من تحت قدميها، أخذت تتنفس وهي تتطلع إلى وجهه كأنها تبحث عما يوحي بالثقة فيه ليحدثها عن الشبح الذي طاردته من أمد بعيد ولم يفلح أحد ممن التقتهم رغم أهميتهم التي تفوق أهميته في الاقتراب من الشبح المطلوب، كانت موقنة أن الجميع تلاعب بها ولن يشذ هذا الشاب اليافع عنهم، نظرت نحوه باهتمام، تستدرجه بنظرات رجاء واستحواذ وبداخلها رغبة عارمة لتقوم وتعصره لتستنطقه بسرعة بدلاً من هذه اللهجة الباردة البطيئة التي يتحدث بها.

«نظرتك تجاهي تقلل من شأني، معك حق، ما أنا إلا منفذ لتوجيه الشيخ، هو من يملك المفاتيح كلها وهو من يفتح الأقفال ويغلقها، اطمئني يا أختي أنت في ظل الشيخ جاسم حتى تصلي إلى مرفئك النهائي».

فاجأتها عباراته، كان لايزال هادئاً وصوته الهادئ ينساب بسلاسة وإتقان، أعادت التدقيق في وجهه فوجدته مختلفاً عن وجوه الرجال

الذين التقتهم، بدت ملامحه متسامحة وقسماته الشبابية أصغر من تفكيره العميق وهدوئه البارد الذي لا توحي به لحيته الكثيفة وغير المشذبة، مثلما أوحى لها في البداية بعدم الثقة، أحست أنها ظلمته وأظهرت له الكبرياء التي لم تجرؤ على التظاهر بها للرجال السابقين الذين استحوذوا عليها بكبريائهم وكذلك بتعاليمهم:

«ونعم الشيخ ونعم من يمثله، اغفر لي جفائي، لو علمت ما مررت به لقدرت سلوكي الفظ».

رد باللهجة الفاترة نفسها الدالة على دم بارد لا يثيره شيء.

«علمت بكل ما مررت به، ولهذا أنا هنا».

كانت عباراته مقتصرة ولا تفسر عواطفه الداخلية، قارنت بينه وبين زوجها البحراني الذي يشبهه في اللحية والمظهر، ورأت في الأخير فرقاً بين الثرى والثريا، طفقت تتأمله غير عابئة بما قد يفسره تجاهها حتى فاجأها قائلاً:

«لماذا لا تضعين الحجاب على رأسك؟».

تذكرت عبارته القرآنية في بداية اللقاء فكررتها بنبرة من لديها ثقة بنفسها:

«قال تعالى ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾».

«أحسنت الرد».

حين ارتاحت له وبدا يزول عنها التوتر، رأى في عينيها السؤال المحير ولم يدعها في قلقها، نهض واقترب من طاولة مستطيلة بمحاذاة كنبة وسط الغرفة، فتحها وأخرج منها علبة سجائر من ماركة لا تعرفها

وتقدم منها، استل سيجارتين، قدّم واحدة لها وأشعل الأخرى، ثم قدم لها القداحة لتشعلها بنفسها.

«لتعلمي إلى أي حدٍ أعرفك».

«ما هذا الملاك الطاهر القادم من وراء الغيب؟» قالت ذلك في سريرتها وأشعلت السيجارة وتعمدت أن تنفث الدخان بعيداً عن وجهه.

«ما زال في هذا العالم أشخاصٌ طيبون».

فجأة طرق الباب الذي كان مفتوحاً أحد الرجال فنهض الشاب نحوه وانسحب خارج المكان وتركها وحدها تحلق مع دخان السيجارة وابتسامة شقية عالقة بشفتيها مع هاجس قوي تجاه أخبار جبار الشريف. كان الإلحاح بداخلها يأكلها لكنها فضلت التريث إلى حين يبادر الشاب بطرح الفكرة، عاد بعد بضع دقائق وكان وجهه مثاراً لا يدل على تعبير ولكنه يوحي بتغيير طرأ على ملامحه التي بدت متوهجة، جلس مكانه وقال باللهجة الباردة نفسها:

«سقطت نينوى بالكامل وأصبحت الموصل في يد المقاتلين والعشائر».

انتظرت لثوانٍ ثم سألت.

«هل سيغير ذلك من الوضع؟».

«الله أعلم».

****

(١٠)

كأنها ساعة القيامة، سماء حمراء عند المساء المقتضب، حرارة تلفح الوجوه العابرة للشوارع والطرقات والممرات، فلول الجيش هربت عبر الصحراء، وانتشر الدخان يغطي رؤوس الرجال بملابسهم العسكرية وقد بدا عليهم الإرهاق والتعب رغم عدم خوضهم المعارك. كانت ملابسهم تبدو نظيفة، انتشرت الإشاعات بين الناس حول ما يجري في أغلب المناطق من البلد، في خضم هذه الأهوال التي بدت عبر الأخبار الواردة من المناطق المحيطة بكردستان، أن ثمة ثورة أو حرباً أو تمرداً، اختلفت الأسماء التي تطلق على ما يحدث لكنها اكتفت بمراقبة الوجوه القادمة وانتظار ما يحدث لها هي بذاتها، لم تعد تعير الآخرين اهتماماً، كان هاجسها الخروج من الكهف الذي وجدت نفسها معزولة فيه عن العالم، وإن ظل خيط رفيع يشدها إلى المكان الذي هي فيه الآن، وهو جبار الشريف. تباينت مشاعرها بين البقاء والمغادرة «كيف أغادر؟ وهل الأمر بيدي؟ وإلى أين ما دمت مطلوبة في لندن؟»‏.

ظهرت الكآبة على ملامحها رغم التجميل الذي قامت به أم صقر، لم تستطع إخفاء مظاهر الإنهاك الجسدي والتشتت الذهني،

عيناها واهنتان وبشرتها شاحبة وقد ظهرت النحافة على جسدها الذي خسر كثيراً من الوزن وتظاهرت بالتماسك فيما داخلها يغرق في الضعف والرغبة في الانعزال والاكتفاء بالقراءة كما كانت تفعل منذ صباها. مرت بذاكرتها رواية (عودة الروح) لتوفيق الحكيم التي قرأتها وهي بالمرحلة الثانوية، ودت لو تعيد القراءة اليوم فهي تفتقد تلك الأفكار الضبابية الغامضة وكأنها تدخلها عالماً خفيّاً لا يبصرها أحد خلاله، ممن اعتادت رؤيتهم وسماع أصواتهم، وحده الشيخ جاسم بهيبته وطلعته التي تبهجها، ولو حلمت برجل معها لكان هو «لأول مرة يأسرني رجل غير أبي». مضت تبحث حولها عن ملامح المشهد الذي ترصده يتفاعل عبر الوجوه المتدفقة على «أربيل».. نساء ورجال، جنود هاربون وثوار، أطفال وشباب وجنسيات لوجوه لم تعهدها، كانت العاصمة الكردستانية كبحر واسع تسبح فيه كل الكائنات البشرية، ودت لو تختلط، لكن الرجال المكلفين حمايتها ومراقبتها حاصروها وحجبوا الرؤية من حولها، ظل محيطها لا يتعدى حزام المنطقة المحيطة بالبناية التي تعيش فيها وكانت اللقاءات مقتصرة على بعض النساء والشباب من دائرة الشيخ، شعرت بأن انتظارها قد يقصر أو يطول، لم تتلمس طريق الإفلات من الشبكة، ثمة وقائع تجري على الأرض بتسارع مخيف تتحكم في مصيرها، لو كانت تملك وسيلة اتصال بالشاب الذي جاءها وتحدث معها، ولو كانت تعرف اسمه أقلّه لطلبت مساعدته في الإسراع بتقرير مصيرها، فقد مرت أيام ولم يحدث خلالها ما تنبأ به لها، وهذا ما دفعها ذلك المساء الأحمر القاني للمواجهة مع صباح.

«مصيري متوقف».

من عادته أن يبتسم ولكنه هذه المرة رسم على وجهه بتعمد، ملامح جادة وتهدج صوته وهو يرد عليها قائلاً:

«أنا متعاطف معك، والليلة بعد صلاة المغرب سوف أفتح الموضوع مع الشيخ».

خفق قلبها لدى سماع اسم الشيخ، وارتاحت أساريرها لإدراكها بأن تكون تلك اللحظة في ذهن الرجل، عندما خرج صباح وتلفتت حولها وجدت المكان هادئاً وفارغاً من السكان، أطلت من نافذة البهو الذي يشكل ممراً بين الشقق على الخارج وفوجئت بنبض الشارع يستدرجها للخروج، كانت الساحة المحاذية للشارع تعج بالمشاة والسيارات وغالبيتها عربات النقل، بدت مترددة في الخروج والسير في الشارع والاختلاط بالناس، توصيات رجال الشيخ تحول بينها وبين رغبتها في الخروج أو البقاء في البناية، تشتت تفكيرها وهي تراقب الشارع من النافذة «لا هاتف ولا جواز ولا خروج ولا نسمة هواء». نسمات الهواء المنعشة التي تتسلل من النافذة تدغدغ وجهها وتحرك خصلات شعرها، أخذ وجهها يستعيد نضارته وعادت بشرتها تكتسب لونها الطبيعي وإن لم تصل إلى ما كانت عليه بعد عملية التجميل في لندن، ظل جسمها نحيفاً يعكس وضعها النفسي، ورغبتها في الإفلات من المحيط الضبابي الذي لم يكن بمثل ضباب لندن، تريد المغادرة سريعاً، فقد اكتفت من وله الوطن وذاقت مرارته، وماذا أصبح عليه، وفي الوقت نفسه، راغبة في البقاء للوصول إلى الخيط الرفيع، جبار

الشريف «إن كانت كذبة لعبها الجميع فالانتحار خيرٌ لي». خطرت في ذهنها تلك الخاطرة واستجمعت شتات أفكارها وخرجت إلى الشارع.

لاح لها المساء، من بين الأفق البعيد وظهرت الشمس ساطعة تقاوم الذبول الذي يجره الليل، وظلت حرارة الطقس منعكسة على الوجوه وفي الملابس الرطبة عند التضاريس الجسدية للمخلوقات البشرية. أحست بالهواء في الخارج مختلفاً عنه وهي تتلقاه من نافذتها بالبناية، كان ساخناً يبعث على الكآبة، غير أنه لم يمنعها من الاسترسال في السير خطوات متأملة المشاهد، كان المكان يعج بالرجال، لم تظهر لها نساء طوال المسافة التي قطعتها باستثناء من هن في السيارات، تمادت في المشي حتى اقتربت من أحد الدوارات ووجدت الطرق أمامها متقاطعة، ازدادت زحمة السيارات وتصاعدت روائح البشر والعربات وأدخنتهم، وظهرت حبيبات العرق على جبينها فشعرت بالتوعك ودب التعب في مفاصلها. كانت طوال الفترة الماضية تغط في كسل واسترخاء بين نوم وقراءة ومشاهدة التلفاز، مدفونة في العزلة هي ومحيطها الضيق، تقبع فيها باستثناء النزول أسفل البناية والدوران حولها، تلفتت حولها بغتة لتجد نفسها وقد فقدت معالم الطريق الذي جاءت منه، ضاعت وسط الأصوات والزحمة وحرارة المساء وأخذت الشمس بالتسلل وراء الأفق وتكاد تختفي، دب فيها القلق من رجال الشيخ وسارعت بالبحث عن مدخل للخروج من نفق الدوار الذي تجاوزته باتجاه طريق فرعي أدى بها إلى ساحة معتمة إلا من أضواء صفراء شاحبة، زرع فيها صوت خطوات بشرية من حولها الخوف

«ماذا أتى بي هنا؟». كانت ترتدي قميصاً لوزيّ اللون وسروال جينز أسود ضاعت من خلالهما في العتمة، استدارت لتعود أدراجها في وجه أربعة شبان ظلوا يتأملونها، تحسست نبضها، فوجدت نفسها هادئة رغم مسحة الخوف التي اجتاحتها لوهلة، منذ أن تركت «كينغستون» وشعور بالمجازفة يتولد داخلها كلما اقتربت من الخطر، لم يحبط من عزيمتها ما مرت به خلال الشهور المنصرمة مشردة ومحتجزة بين غبار الصحراء وحجيرات الاحتجاز الموبوءة بالحشرات والعقارب، وبين الموت بالإعدام الذي كانت قاب قوسين وربما أدنى منه لولا إرادة غامضة انتزعتها من دوامة الموت المحقق، وأدركت أن إعدامها كان على وشك أن يقع قبل يوم أو يومين من إفلاتها، ليس لأنها خرقت القواعد التنظيمية كما حوكمت صورياً، بل لأنهم أرادوا طمس الأسرار والمعلومات التي معها، هذا ما أدركته بحسها «يريدون إعدامي». شكت أن يكون الفريق الركن منهم، جرت هذه الأفكار بسرعة خاطفة في رأسها وهي تحاول التراجع بهدوء ومن غير أن تلفت نظر الشبان الأربعة الذين ظلوا يحدقون إليها، حاولت الإسراع والانعطاف باتجاه عكسي، فاعترض أحدهم طريقها، ارتفع الأدرنالين وضخ الدم ساخناً في عروقها، واجهت الخوف برغبة في عدم الاستكانة وتقبل الوضع، فجأة اخترقت الهواء وانطلقت مخلفة الغبار من أسفل قدميها لتصطدم برجل عند مدخل الطريق القادمة منه، لترفع رأسها في وجهه، صباح الذي قطب في وجهها، فيما انخفض ضغط الدم سريعاً لديها وابتسمت بعفوية مقتضبة.

«لاتزالين شقية، لم تتعلمي مما يحدث لك».

سار الاثنان باتجاه الشارع العام، وعند منعطف الدوار فتح لها باب السيارة وهي من نوع جيب فولفو سوداء، وخلال العودة ساد الصمت بينهما إلى أن قطعته قائلة بلهجة اعتذار:

«لم أتوقع أن أتيه بهذه السرعة».

«كل شيء توقعيه لمن هم في مثل حالتك».

التفتت نحوه وتذكرت من خلال مرافقته لها طوال الفترة الماضية، لم يسبق لها أن أدارت معه حديثاً خارج سياق الأمن والحماية، كان الحوار بينهما قصيراً ومقتضباً ولا يتعدى السؤال والجواب، وفيما هي تتأمل المسافة التي قطعتها، استغربت كل هذا الطريق الذي قطعته ولم تشعر، قفزت مرة أخرى على الصمت بينهما وقالت متعمدة أن تثير جانبه العاطفي المبهم:

«شعرت بالضجر من العزلة فنزلت إلى الشارع وقطعت كل تلك المسافة من غير أن أشعر، كيف وجدتني؟».

انحرف بالسيارة بغتة والتف على الشارع المقابل عائداً باتجاه الطريق الذي قطعته وسط دهشتها، كان وجهه الذي تبرز منه بعض العروق الخفية، جامداً كالعادة والبرود يكتنف ملامحه كبقية رجال العشائر المحيطين بالشيخ، انطلق بالسيارة على الطريق ثم استل هاتفه من جيبه وأجرى اتصالاً مع أحدهم.

«فراس، أنا متوجه إلى المنطقة ثلاثة، من هناك من الرجال؟ خبرهم»

التفت نحوها وقال مبتسماً:

«هذه المرة سأخالف تعليمات الشيخ بسببك».

شعرت بأنه لأول مرة يكسر حاجز البرود في حديثه معها وقالت متعمدة الاسترسال في الحوار:

«لا أنصحك بذلك».

قهقه وهو يزيد من سرعة السيارة متجاوزاً بعض السيارات على الطريق، خلال الدقائق التالية وعبر شوارع مزدحمة ومع حلول الظلام رأت لأول مرة مدينة أربيل مضاءة كأنها مدينة من خارج العراق، بدت البنايات والعمران والطرق تكشف عن مدى العمران الذي اجتاح عاصمة كردستان التي كانت تظن من خلال الحديث عنها أنها لاتزال طي النسيان.

«لآخر مرة تخرجين وحدك، أنت مطلوبة من لندن إلى الزبير، فلا تتجاسري، لقد فقدتِ حريتك في التنقل ولم يعد بإمكانك الاعتماد على الصدفة».

«عالم لا أمان فيه».

«تمسكي بالحقيقة ففيها النجاة».

لم تعرف عنه امتلاكه للحكمة، أيقنت في هذه اللحظة أنها مع رجل ليس مجرد مساعد للشيخ أو مكلف بالأمن فقط، استدارت نحوه وقالت مبتسمة:

«هل لديك أسرة؟» .

«من ليس لديه أسرة لا يعرف الأمان».

«صدقت في هذه».

وحدها من لا تملك أسرة منذ خرجت من الزبير «آه لو يعلم كيف عشت هذه السنين وحدي؟» قالت العبارة في سرها ولكن صوته جاءها وكأنه من عالم الغيب.

«كيف عشت كل هذا الدهر وحدك؟».

قضى الاثنان الساعات التالية يجول معها على الأسواق والمحال، وقبل منتصف الليل لدى طريق العودة، توقفا وتناولا وجبة خفيفة عبارة عن سندويشات الشاورما، ذكرها طريق العودة ببعض شوارع مدينة دبي من حيث الحركة والزحام وقطع الصمت الذي ساد بينهما بصوت انفجار، لم يكن مدوياً تلته بضع رشقات من الرصاص.

«هذه حال المنطقة كلها».

غير دفة الحديث متسائلاً عن دأبها في القراءة، من خلال ملاحظته لها منذ مرافقته، لاحظ وجود الكتاب معها طوال الوقت، انتهى به المطاف بسؤال عما إذا كانت تقرأ الشعر، فردت بضحكة خفيفة.

«الشعر للحالمين».

تأمل وجهها مبتسماً، فأردفت مغيرة دفة الحديث وهي تتأمل الشارع والأضواء المنعكسة على البنايات.

«هل تحب الليل؟».

« في حالتنا، الليل للحراس والسكارى».

أطلقت ضحكة من قلبها، بدت له لأول مرة، منذ ألقت بمرساتها معهم، نظر خارج السيارة، وقال متسائلاً:

«هل سمعتِ عن امرئ القيس؟

«عندما كنا ندرسه».

صمت لوهلة، غير نبرته وقال محاولاً كسر الحديث بالشعر:

«و ليل كموج البحر أرخى سدولهُ   عليَّ بـأنـواع الهموم ليبتلي
فَقُلْتُ لَـهُ لما تَمَطّى بصلبه   وأردَف أعجازاً ونـاءَ بكلْكلِ
ألا أيّها اللّيلُ الطّويلُ ألا انْجَلي   بصُبْحٍ وما الإصْباحُ مِنك بأمثَلِ
فيا لـكَ من ليلْ كـأنَّ نجومهُ   بكلِ مغار الفتل شدت بيذبلِ»

نظرت نحوه بلا رعشة، أو رجفة، كما كانت تشعر من قبل، أمسكت بيده متجاسرة، كسرت كل القواعد كما فعلت بالأمس القريب مع المرأة المنقبة، وقالت بنبرة دافئة؟».

«كرجل شموخ أعتز برفقتك، أسألك الصدق معي القول، هل أبي حيٌّ يرزق»؟

لاتزال تشعر بحرارة يده القوية التي لم تفلت من يدها، ظلت تقبض عليها وتنظر إلى عينيه بحثاً عن إجابة فيها، لو كان عاجزاً عن البوح بلسانه، ما لبث برهة ثم سحب يده، نظر إلى السماء، كانت النجوم مشعة وسط ليلة صافية شديدة الحرارة، مرت ومضة سمعت خلالها صوت الصمت مطبقاً بداخله ثم تدافعت أنفاسه وقال بلا تردد.

«بلى.. حيٌّ يرزق».

****

(١١)

بكت طوال الليل، لم تغب صورة وجهه وهو يمسك يدها الصغيرة وهي بعمر التاسعة، يعبر بها الثكنات العسكرية وقت الإجازات، رأت وجوه الضباط والجنود، ينظرون نحوهما وهي تلحق به مبتسمة، كانوا يحسدونه على امتياز حرية الدخول والخروج من المعسكرات الفولاذية التي لا يسمح بمجرد التجوال فيها. لم تتوقف عيناها عن الدموع، دموع حرقة القهر والمرارة «كيف تركني وحدي في هذا العالم؟» ساح المزيد من الدموع منها وهي تبحث في عقلها الباطن الميت منذ طمرته الهجرة الوحشية عن نجوى وفراس وسام «هل لايزالون أحياء يرزقون؟»». ظلت تجفف الدموع حتى لاح خيط الشمس الأول فأغمضت عينيها مع علمها بأنها لن تنام.

عند العاشرة جاءت فتاة وطرقت الباب عليها، بدت من ملامحها أنها شقيقة ريم ابنة الشيخ جاسم، كانت قد لمحتها بين وقت وآخر تعبر الممرات وتظهر في التجمعات ثمّ تعود وتختفي، بدأ الغموض لديها عندما وقفت الفتاة البالغة من العمر الرابعة عشرة، وخاطبتها بلهجة بدت باردة وإن لم تخلُ من ود عاطفي قائلة:

«يصبَّح عليك بابا ويقول تجهزي بعد ساعتين للذهاب إلى مستشفى لفحصك».

فتحت لها الباب لتودعها فلمحت صباح يقف خارجاً منتظراً الفتاة، ألقت عليه التحية وسألته مستفسرة رغم علمها بمنع الاستفسار أو الشرح فيما يتعلق بكل ما يأمر به الشيخ.

«أوامر الشيخ لا تناقش».

وحين لمح علامات الاستغراب بادرها قائلاً:

«اليوم العيد، كل سنة وأنت طيبة».

اتسعت عيناها وابتسمت لوهلة ثم قطبت حاجبيها وكأنها تتلقى مزحة لم تتوقعها، لكنها أيقنت بأن الأجواء التي شاهدتها طوال الليالي المنصرمة في الليل والأنوار والزحمة وكل هذه الحركة بين الناس، كانت لرمضان الذي لم تتعرف إلى وجهه الحقيقي منذ غادرت الزبير وعبرت الحدود وتشردت عبر الملاجئ والخيام «حتى في بريطانيا كنت أشعر به أكثر» .

«هل من الممكن أن أعيّد الشيخ؟».

عندما أشعل سيجارة وهو يهم بصعود السيارة، تطلعت إلى وجهه وقد أغرتها السيجارة وتمنت لو تنتزعها من يده، لكنها أسرعت برفع نظرها إلى النافذة الجانبية للسيارة، لترى ثلاث سيارات أخرى جيب متوقفة خلف سيارتهما من تلك التي تحضر عادة للمهمات الخاصة، شعرت بأن ثمة مهمة لا علاقة لها بالعيد، فقد كانت تتلمس من خلال

الأخبار والتوتر على الوجوه، اشتعال حرب على حدود كردستان، بدا ذلك واضحاً على الوجوه وفي التحركات ومن خلال القلق الذي تملك الشارع في أربيل، بدا صباح في سلوكه، مختلفاً هذه اللحظة، فقد ظهر عليه التوتر من دون أن يتمكن من إخفائه كما اعتاد، انطلقت السيارة بسرعة تقطع المسافات دون التزام بمسار واحد في الطريق، شاهدت عربات مسلحة وسيارات مكشوفة يقودها رجال البشمركة وقد اعتادت رؤيتهم أخيراً بكثافة، كلما توغلت السيارة ومن خلفها بقية السيارات الثلاث في قطع الطريق والخروج من الأماكن المأهولة، زادت أعداد العربات المدرعة وبدا التوتر على وجوه المارة.

«كل هذا الطريق للعيد».

التفت نحوها ورأى في وجهها تساؤلاً، ابتسم وقال بنبرة من يريد التمهيد لشيء قادم، ويخشى أن يكشف عنه.

«الأحداث تتوالى في العراق كله، وعليك أن تعتادي التنقل منذ اليوم».

«أنت تخيفني يا صباح».

«ومن قال أن لا أحد خائفاً اليوم؟ ليس في العراق فحسب بل في المنطقة».

«ماذا يجري بحق؟».

تمعن في وجهها وقال ضاحكاً:

«لو لم تأتي من طرف الشيخ، لشككت بأنك عميلة للبريطانيين».

زاد من سرعة السيارة ثم انحرف باتجاه الطريق البري المؤدي للخروج من حدود المنطقة، مضى على انطلاق السيارات ساعة وبضع دقائق وبدأت حشود وجموع بشرية تتدفق عبر الممرات والطرق الفرعية، كانت هناك مجموعة من الحفارات تتجه نحو الحدود مع محافظة نينوى، لفت ذلك انتباهها وبدأ يساورها الشك في ما يجري على الطريق، حينما رأى التساؤلات على وجهها استبدلها بالابتسامات المقتضبة، وعاد ينظر إلى الطريق أمامه، ظلت تتابع عبر المرآة الجانبية السيارات الأخرى التي تتبعهما، وكلما أسرع صباح أسرعت السيارات نفسها.

«هذه الحفارات تتجه إلى الحدود من الإقليم إلى محافظة نينوى في المناطق المتنازع عليها، لترسيم الحدود».

تبرع بالشرح هذه المرة من دون أن تسأل غير أن نظراتها تكفي للتعبير عن أسئلتها الملحة، كانت هناك أرتال من سيارات وعربات بعضها قادم من المحافظة وبعضها متجه إلى الداخل.

«هل نحن متجهون إلى الموصل؟».

سألته هذه المرة وهي تراقب تزايد العربات الناقلة لجنود البشمركة وعربات «البيك أب» الأخرى المسلحة.

«الموصل تشهد حالياً حرباً شرسة».

ضحكت قائلة:

«وهل سنحتفل بالعيد هناك؟».

«على ما يبدو».

بعد فترة من معايشتها له، بدأت تدرك مزاحه من جده، كان هذه المرة يمزح ويخفي حقيقة هذه الجولة التي خمنت بأنها واحدة من حملات التنقل التي دأب رجال العشائر عموماً ورجال الشيخ جاسم خصوصاً في تتبعها للفرار من قوات النظام، بدأت السيارات تنحرف باتجاه الغرب، وللحظة خيل إليها سماع أصوات انفجارات، ولكنها أيقنت أنها أصوات أخرى لا يمكن تميزها لبعدها عن المكان، وحين أخرج صباح هاتف الثريا الجوال وراح يتحدث من خلاله مع الطرف الآخر لاحظت كلمات مثل الحمدانية وسنجار، فأدركت مدى الفجوة التي تفصل بينها وبين «كينغستون»، كان واضحاً لها بعد كل هذه المسافة الطويلة التي امتدت طوال النهار بأنهم متجهون نحو مكان سري، ولكنها تعرف بحسب ما قال الرجل منذ قليل بأنها منطقة حرب فلماذا الذهاب إليها؟

عندما وصلت السيارات عند نقطة تجمع بالقرب من سلسلة بنايات تقع على الجانب الفرعي من الطريق العام، خرجت أعداد كبيرة من سيارات أخرى بدا أنها كانت بالانتظار، اندمجت السيارات كلها في قافلة واتجهت عبر طريق يمر بسلسلة أحياء وأزقة، ثم اختفت داخل تلك الحلقات الطويلة من البنايات والملاجئ والثكنات، بعدها قطعت طرقاً وعرة حتى انتهت عند أحد الأحياء الواقع تحت سيطرة مجموعة

هائلة من المسلحين تدعمهم عربات مدججة بالأسلحة الرشاشة الخفيفة والمتوسطة.

«يبدو أنني وقعت من جديد تحت السلاح».

رد عليها صباح وهو يضحك.

«يبدو أنك لم تتخلصي بعد من السلاح».

ما طمأنها وأثلج صدرها، بل زرع في نفسها البهجة حينما لمحت من على بعد الشيخ جاسم بهيبته يقف وسط عدد من الرجال ويحيط به عدد آخر من المسلحين فيما كانت هناك ثلاث سيارات سوداء من نوع مرسيدس، خفق قلبها وشعرت برغبة شديدة لو تخرج من السيارة وتهرع نحوه، ثم اكتفت بأمل أن يلتفت من بعد، ويلمحها لتحييه على أقل تقدير.

خرج صباح من السيارة وتركها وحدها ليعود بعد بضع دقائق ويركب السيارة وينطلق بها.

«سترتاحين هنا الليلة بعد هذه الرحلة الشاقة، وغداً سنحتفل بالعيد».

«ماذا يخرف هذا الصباح؟»، تساءلت داخلها وقد ساورها الشك في رؤية الشيخ. لقد كانت تأمل سماع صوته ولقاء نظراته الثاقبة، نظرات الصقر يرنو بشموخ وهيبة كما رسمتها منذ اللحظة الأولى التي وقعت عيناها عليه، أين تنام الليلة؟ ولماذا هذه الرحلة أصلاً إن لم يكتب لها رؤيته وقد بلغت المسافة بينهما بضع أقدام؟ «على أي حال

عيدك مبارك وكل عام وأنت بخير يا شيخ الشيوخ». قالت تلك العبارة داخلها واستسلمت لقرار صباح الذي بدا لها هذه المرة قاسياً عليها.

مسحت بنظرة خاطفة الغرفة التي خصصت لها، مرت على الجدران المطلية باللون البني الفاتح، لا صور ولا لوحات، حيطان خرساء لا تنطق سوى بالصمت، سرير عريض وثير بدا لها أنه امتياز، رغم ما توحي به البناية من قدم، رأت حقيبتها وقد وضعت في زاوية قرب دولاب كبير من الخشب الأصلي وإلى جانبه مرآة وكنبة للراحة، لاحظت وجود باب مغلق في طرف المكان، فتحته ووجدت الحمام وقد أعد بصورة لائقة، إذ احتوى على كامل أدوات الاستحمام والمناشف النظيفة، الأرضية فرشت بسجادة أعجمية في الوسط ظهر عليها القدم لكنها بدت ثمينة وخمنت بأن المكان كان يسكنه أفراد ذوو أهمية أو نفوذ، دفعها حدسها لتخمن بأن الشيخ أشرف بنفسه على إعداد هذه الغرفة ولكنها عادت وتساءلت داخلها، لماذا تجنب رؤيتها لدى وصولها بالرغم من وجودها على بعد أقدام منه؟ وخلال تأملها المكان من حولها طُرق الباب وظهرت امرأة خمسينية، حيتها وشرحت لها المكان ثم قدمت لها كيساً صغيراً من دون أن تشرح ما فيه، تركتها بعد أن أطلعتها بأنها على مقربة منها تقطن نهاية الممر وقالت بلهجة ودية قبل أن تغادر:

«الفطور والغداء والعشاء، سيكون مرتباً، وإذا احتجت إلى أي شيء أنا موجودة واسمي نجاة».

بعد أن غادرت استلقت على الفراش وقد وجدته مريحاً وصحياً عكس الأسرة الفندقية التي كانت تقوم على مدى سنوات بترتيبها، مرت برأسها صور الفنادق، سواء التي عملت فيها خادمة أو التي قطنتها نزيلة وسيدة أعمال «لم أذق طعم السعادة، لا وأنا خادمة بالفنادق ولا وأنا سيدة تقطنها، يا لي من منكوبة!»، ضحكت وكأنها راضية عما أصابها، وفي لحظة، خيِّل إليها أنها واقفة وحيدة على قطعة يابسة في محيط مظلم شاسع بلا نهاية، وفوقها سماء رمادية ومن حولها البحر صامت إلا من أمواج وحيدة يائسة، تصورت أنها بلغت النهاية مع هذه الغرفة التي لا تدل على طريق تأمل منه الخروج، لا باب يؤدي إلى مكان «كل الدروب أقفلت في وجهي».. «كينغستون» تبحث عنها كإرهابية، والجماعات المسلحة تطاردها كخارجة على القواعد تملك الأسرار، والمخابرات تعتقد أنها مشتبه فيها، الخارجية البريطانية تعتبرها مواطنة مارقة والشيخ جاسم تجاهلها رغم عاطفتها الجارفة نحوه من غير أن يحس بها « أنا أقبع هنا وحدي».

استلقت على الفراش تحيط بها الأفكار، ابتعدت بها، أخذتها نحو مدينة حلب والجامعة والأساتذة والعم الذي اختفى مثل والدها من على الخريطة البشرية «لماذا يختفي كل الذين أعرفهم؟».

لثوانٍ أو دقائق أو ساعات، لا تشعر، غابت في غيمة أشبه بالغفوة، لعل التعب والإرهاق والوهن الذي أصابها طوال السنين اختزل في هذه الغرفة الوحيدة المعزولة بين كردستان ونينوى، كانت

تحلم بالعودة إلى الزبير ولكن قطار الزمن توقف بها عند هذه النقطة الحدودية داخل الوطن، وكأنه بخل عليها بالسكن في الوطن، فوضعها داخل حدود الوطن نفسه، نهاية العبور، استكان جسدها الواهن من التجوال واللجوء، ليكتفي بهذه الغفوة الخاطفة في مكان لا تعرف أين تكمن نهايته.

في الخارج خيم الظلام على المكان، فيما برزت النجوم ساطعة في السماء وكأن أعدادها ازدادت، كانت هناك بعض السيارات والعربات المسلحة تحيط بالمكان، انخفضت درجة الحرارة وقل الغبار في الهواء الساخن الذي كان يهب، تسمع من حين إلى آخر أصوات محركات السيارات وبعض الأحاديث بين الرجال، ومن جهة مقابلة فاحت رائحة طبخ الأطعمة رغم الساعة المتأخرة من الليل، وبرزت نكهة القرفة مميزة.. كان الهدوء غريباً يبعث على الريبة، ثم سمعت أصواتاً راحت تتصاعد إلى أن برزت بضع سيارات اتضح أنها تنقل بعض الجرحى لا يُعرف من أين؟ ولمن؟ لكن الضجيج بدأ يسود وانكسر حبل الهدوء مع انبثاق أضواء حادة لبعض السيارات التي راح عددها يزداد، وسط كل هذه الضجة كانت يسرا تغط في غفوة لا تُمَيز إن كانت حلماً أو كابوساً أو هائمة في ملكوت الفضاء الشاسع كأنه الكون اختزل بأكمله في هذا المكان.

بعد ساعات على الهدوء دوى صوت انفجار هائل تردد صداه في الأرجاء رغم بعد المسافة. لم يعبأ أحد، غير أن المرأة الغافية في الغرفة

فتحت عينيها وتلفتت حولها تتأمل المكان كما لو لم تكن هنا من قبل. لم تنهض، بل ظلت تتململ في الفراش من دون رغبة في النهوض إلى أن سمعت طرقاً خفيفاً توقف بعد برهة، نهضت وسارت نحو الباب تفرك عينيها.

«صباح الخير يسرا».

لم يكن شبحها، كانت هي بلحمها وشحمها ولكنها ارتدت هذه المرة حجاباً لم يخف ملامحها ولم يغير من سماتها وإن قلل من بريقها الذي كانت تبرزه بالماكياج، سمر يام، تقف أمامها وابتسامتها الحانية المعتادة ترتسم على شفتيها ونظرتها الأنثوية نفسها، وقفت يسرا برهة مشدودة نحوها وتغيرت أساريرها وبدا لون البهجة يطبع سحنتها ولم تخف سعادتها التي طغت على صوتها وقد انحبس بداخلها، ألقت بجسدها عليها تحتضنها قبل أن تفسح لها في الطريق للولوج، فيما طوقت سمر يسرا بين ذراعيها ومضت برهة اعتصرت كل منهما الأخرى كما لو تمنع كل منهما الثانية من الهرب.

****

«سوف نخرجك من هنا عن طريق الترانزيت إلى البحرين، لنا هناك لوبي وطني يحتضن كل الزبيريين».

خرجت ضحكة صغيرة ساخرة من يسرا لفتت انتباه الأخرى التي تطلعت نحوها مستفسرة عن مغزى تلك الضحكة التي بدت لها سريالية في مثل هذا الموقف.

«الوحيد الذي تزوجته في حياتي هناك وقد أقمت في البحرين بضعة أشهر كنت خلالها بمثابة مومس عنده، ليست ذكرى جميلة تنتظرني هناك».

أمسكت سمر يام بيدها تواسيها وقد بدت على طبيعتها بعد أن خلعت الحجاب وظهر شعرها مسرحاً بعناية وقد طلته باللون الذهبي الفاتح وبدت نحيفة بتنورتها السوداء الطويلة وقميصها الوردي القاتم.

«ترانزيت حتى يتم ترتيب سفرك إلى بريطانيا بعد إنهاء التحقيق حولك، جوازك موجود معنا وهناك اتصالات ستتم لعدم تسليمك إلى السلطات هناك، سيبدو الأمر كما لو أنت قمت بتسليم نفسك لهم وهو ما سيسهل عودتك بصفتك مواطنة بريطانية».

وضعت يسرا كلتا يديها على وجهها وراحت تمسحهما به، كانت تعصر ملامحها وهي تبحث عن معنى للحديث الذي يدور، برهة ثم التفتت بحركة خاطفة وهي تقول بنبرة متسائلة:

«ماذا جرى بحق؟».

نهضت وراحت تسير في الغرفة وقد استطردت قائلة:

«كل هذه الأحداث التي قادتني إلى عتبة الإعدام، ما معنى كل ذلك؟ ما هي التضحية التي قدمتها؟ أذكر كلامك عن العودة إلى الزبير، لم أر سوى المطاردة والهروب والقواعد التي يتحدثون عن كسري لها، هل تصدقين؟..».

توقفت بعد أن اختنق صوتها وكادت تخنقها العبرة فيما كانت

الأخرى تتأملها ببرود، ولم يحرك ذلك ساكناً لديها حتى عادت يسرا مستطردة.

«هل تصدقين؟ كدتُ أعدم لأنني كشفت النقاب فقط عن وجه امرأة معي في التنظيم، وهي بالمناسبة كانت صديقة لي في المدرسة».

فتحت سمر يام حقيبتها السوداء ذات الماركة العالمية وأخرجت علبتها الحمراء من السجائر وقدمت واحدة ليسرا التي اقتربت منها، سحبت واحدة، وحين أشعلت كل منهما سيجارتها قالت سمر مازحة: «منذ متى لم تدخني؟».

«لا تغيري الموضوع، ليس من البساطة أن أدعك تهربين مرة أخرى من دون إجابات، انظري إلى حالي، خسرت كل شيء ولم يعد لي وطن، لا هنا ولا في بريطانيا ولا حتى في الآخرة، من حقي أن أعرف سري أين يكمن؟»

نهضت سمر وراحت تجول في المكان وتنفث دخان سيجارتها ثم التفتت نحو يسرا قائلة:

«لم آتِ هنا للإجابة عن أسئلتك، أنا في مهمة ولابد من إنجازها، أُخرجك من هنا ولكن قبل ذلك لابد من إنجاز مهمة أخرى بانتظارك».

أطفأت السيجارة في صحن صغير كان بقربها على الطاولة وأضافت قائلة:

«عندما تنتهين من هذه المحنة، ويصفو الجو من حولك، ستجدين الإجابات عن كل شيء».

حل صمت مطبق على المرأتين، طالت فترة تبادلهما النظرات، لم يبدُ على يسرا أنها اقتنعت، كانت هادئة وهي تتطلع إلى سقف الحجرة وتجول بنظراتها في المكان، ذهبت باتجاه الطاولة الصغيرة وتناولت علبة سجائر سمر وأشعلت سيجارة أخرى وبادرت بالحديث من جديد.

«ألن يتم اعتقالي والتحقيق معي في لندن؟».

«أنت في نظرهم إرهابية ولن تفلتي من التحقيق وربما الاحتجاز ولكن ستظلين مواطنة لها حقوق».

فكرت للحظة في مايك، لو كان موجوداً وله علاقاته فقد يمتص ردود الفعل من قبل السلطات البريطانية، وفيما هي تفكر استأنفت الأخرى الحديث.

«بالطبع ستوكلين محامين».

في هذه الأثناء رن هاتف سمر التي تطلعت إليه فقفزت من مكانها كما لو سرقها الوقت.

«أنا هنا معها وهي مستعدة للجولة».

أقفلت الخط لترفع رأسها في وجه يسرا التي كانت تتطلع إليها وتبتسم، هزت رأسها قائلة بلهجة ساخرة:

«فخ جديد سأنزلق فيه؟».

أمسكت يدها تحتضنها وقد بدا عليها التأثر العاطفي.

«يسور، أنا هنا لمساعدتك، لن أتخلى عنك، أنت تعتقدين أنك أفلتِ من الإعدام صدفة؟ كنا نتابعك ولا تشكي في أننا تخلينا عنك».

«من تقصدين كنا؟».

«لا أستطيع التصريح لأني نفسي لا أعلم التفاصيل ولكن كُنت أقلّه أعلم بأن هناك من يعمل لإخراجك من الحلبة».

ردت يسرا بسرعة.

«المظلمة».

«المظلمة».

نظرت سمر إلى ساعتها ثم حثتها على التحرك».

«وهل هذه المهمة سرية أيضاً؟».

«في غاية السرية».

«الله يستر، كتب عليَّ المجازفة، لا أعلم إلى أين تقودني خططكم؟».

دَلفت الحمام برهة فيما تبعتها سمر نحو الباب وخاطبتها قائلة:

« لا تحتاجين إلى التبرّج، هل معك حجاب؟».

جاء صوتها من داخل الحمام مختلطاً بصوت المياه.

«سآخذ حجابك».

ضحكت الأخرى قائلة بنبرة مازحة:

«استعارة فقط».

****

(١٢)

مع حلول المساء لم تخف حدة الحرارة، ترك وهج الشمس المستسلمة للأفول الطقس ساخناً تنبعث منه رائحة الغازات والأبخرة الغريبة، وزاد من احتقان الجو طبقة الغبار التي اختلطت بالتراب الذي ينثره الهواء في الجو، توقف دوي القصف، كان قادماً من البعيد ولم يمنع قافلة من خمس سيارات في حراسة عربتين مسلحتين من التوغل في الطريق الصحراوي الذي انقطع بعد برهة من السير لتدخل القافلة في سلسلة ممرات متعرجة تحيط بها سلسلة أخرى من البنايات يتربص أعلاها رجال مسلحون، بدوا في هيئة قناصة، كانت القافلة تسير فيما عدة اتصالات هاتفية عبر هواتف الثريا يجريها البعض، بينما قبعت يسرا وسمر يام في مؤخرة سيارة الجيب الحمراء من طراز «الهمر» وكان يقودها رجل طويل القامة أشعث الشعر وإلى جانبه جلس صباح ومن أمامهما وخلفهما عدة سيارات.

ظلت عينا يسرا معلقتين بالخارج تمسح الطريق وتمعن النظر في كل ما يمر بها من صور ومشاهد وقد تملكتها الدهشة والغرابة، راحت تتبادل النظرات بصمت مع سمر التي اكتفت بين فينة وأخرى برسم

ابتسامة مقتضبة على وجهها تريد من خلالها زرع الهدوء والطمأنينة. وخلال دقائق أضيئت أنوار السيارات وسمع هديرها وسط المكان فيما خيم الصمت على الوجوه داخلها. وعند مفترق طريق يقع وسط دوار واسع تحيط به صفوف من البنايات تتداخل بعضها ببعض مشكلة ما يشبه الحي السكني، افترقت بعض السيارات وتوزعت على المكان لتتوغل سيارة «الهمر» ومن حولها سيارتان داخل طريق ضيق يحرسه مسلحون، بدا قلبها يخفق وشعرت بأن ثمة صوتاً للرصاص قد ينطلق بين لحظة وأخرى، فالهدوء والصمت والتوتر يوحي بخطورة المنطقة وحساسيتها «ماذا يجري هنا؟». كانت في غاية الدهشة، فمن أتى بها مع كل هذه المجموعة، وما أهمية وجودها؟ تبادلت النظرات مع سمر التي جلست إلى جانبها صامتة كالصنم، يدل وجهها على جهلها هي الأخرى ما يجري، وهذا ما أوحى لها بخطورة المهمة.

«ستكون هذه آخر مهمة لك»

تطلعت يسرا نحو صباح الذي كان يبتسم، ما بدد التوتر عنها بعض الشيء، لم ترد عليه واكتفت بالنظر إلى وجهه وقد ساد المنطقة هدوء تام باستثناء بعض الأصوات لمسلحين توزعوا على الطريق وفوق الأبنية.

توقفت السيارات عند رقعة في بقعة زراعية تحيط بها غابة كثيفة من الأشجار والنخيل يحرسها ثلاثة من المسلحين يرتدون الزي الرسمي للجيش، لم تميز من خلاله ما إذا كان للجيش العراقي أو لجيش آخر،

لكنها اكتفت بالمراقبة إلى أن هبط صباح مشيراً للجميع بالانتظار. تسلل داخل الرقعة الزراعية فيما ظلت السيارة متوقفة ومحركها يعمل «خوفي من المجهول طوال عمري». ساد الظلام المنطقة باستثناء بعض الأضواء الباهتة تنبعث من مصابيح يدوية ومن نقاط تفتيش موزعة في البقعة، عاد صباح وأشار ليسرا وحدها بالهبوط، نظرت باتجاه سمر وكأنها تستعطفها مرافقتها، ولكنها أدركت أن وجودها معها كان فقط لمرافقتها مع الرجال حتى لا تكون وحدها.

ظلت تسير مع صباح ورجل آخر مسلح وسط طريق من الأشجار يؤدي إلى منزل كبير متعدد الزوايا بدا كأنه مثلث، ومن اتجاه آخر بدا كأنه مربع، ظهر قديماً بعض الشيء من الخارج.

«ستلتقين الشيخ الذي دبر خروجك من البلاد إلى مكان آمن».

لم يخفق قلبها هذه المرة فحسب بل كاد يتوقف عن النبض لشدة الخفقان المصاحب لوقع الخبر، كانت تود لقاء الرجل بأي مكان، ولكن لم يخطر ببالها أن تلتقيه في هذه الرقعة المعزولة من الأرض، لكنها خمنت بأن الرجل يأتي إلى هنا باعتباره المكان الآمن لعمله السري الذي لم تعرف قط ماهيته، شعرت بالعرق ينزلق بين إبطيها وخشيت أن يلتصق قميصها بجسدها الرطب، كانت الحرارة عالية والطقس يبعث على الاختناق ورجفة تسري في قدميها تكاد تعيق سيرها إلى جانب صباح.

«الحرارة مزعجة».

قال صباح ذلك وهو يقودها داخل الممر المؤدي إلى دهليز هو الآخر مفتوح على ممر آخر يقود بدوره إلى الصالة التي توقفا عندها.. ظهر رجلان مسلحان يحرسان المكان، ازدادت ضربات قلبها وبدا سيرها يتعثر وهي تتخيل نفسها تقف مع الشيخ الذي طالما حلمت بالجلوس معه.

«انتظري هنا».

فتح الباب وغاب بضع دقائق كانت خلالها واقفة تنتظر وتمسح حبيبات العرق عن جبينها بيدها «لولا الوضع القائم لعشت إلى جانبه طوال العمر». ضحكت على نفسها من الفكرة التي بدت لها واقعية رغم كل التعقيد الذي يكتنفها، خيل إليها أن تكون مع أم صقر في منزل واحد حتى لو كانت مجرد مقيمة في الدار، طاف أمامها شبح ريم الابنة المتمردة التي تهوى الأسلحة وشعرت بأنها تنتمي إلى هذه العشيرة الكبيرة وتقضي بقية عمرها فيها تعويضاً عن الزمن المهدور الذي أمضته وحيدة في هذا العالم المتوحش.

عاد صباح وقد كست وجهه بهجة طارئة وبدا متأهباً لشيء، اقترب منها وقال وقد بدا ثغره باسماً كمن يتوقع منها ردة فعل على انتظارها.

«تفضلي».

قادها عبر صالة واسعة، توقعت أن يفتح الباب وترى وجه الشيخ جاسم، لكنها فوجئت بباب آخر يقود إلى الأسفل ثم سرداب طويل فرش بسجاد بني تحيط به بعض اللوحات الطبيعية، بعضها لمناطق من

البلاد، سار الاثنان حتى وصلا إلى صالة كبيرة دلفا منها وبدا رجلان مسلحان يحرسان باباً خشبياً طلي باللون الصحراوي، توقفا برهة، نظر إليها وقال بهدوء ولهجة باردة:

«مستعدة؟».

هزت رأسها واهتز كيانها كله، نظرت إلى قميصها، كانت تخشى أن يتسرب العرق إلى القميص ويلتصق بجسدها ولكنها نزعت الفكرة من داخلها وهي تتهيأ لنظرات الشيخ الحادة التي تعرفها.

طرق صباح الباب وانتظر لثوانٍ، قلبها يصارع الخفقان، شعرت ببرودة شديدة تأتي مع فتح الباب، كان المكان مكيفاً، أحست بارتياح مع ظهور الشيخ جاسم يستقبلها بنظرة حادة ولكنها تضمنت في محتواها حنان الدنيا كلها.. شعرت من تلك النظرة بأن الرجل يحتويها بعطف لم تر مثله من قبل، لم تدم تلك النظرة أكثر من خمس ثوانٍ حين فسح لها في المجال وهو يقودها إلى صدر المكتب الواسع الذي وجدت نفسها فيه، فاجأها وجود رجل آخر وراء المكتب يجلس بملابس الجيش وقد اختفى وجهه وراء لحية كثة غطت ملامحه تماماً ولم يظهر منها سوى بعض التجاعيد عند حدود خديه وأسفل أنفه الطويل الحاد الذي يذكرها برجل تعرفه من قبل، لوهلة تبادلت النظرات بين الشيخ والرجل القابع على المقعد الجلدي الطويل خلف المكتب الكبير الذي يضم الأوراق والملفات أمامه، ومن خلفه رسم لخرائط وبيانات، تحيط به أدراج ورفوف بالإضافة إلى صور معلقة على الجدران لمدن وقرى من

الوطن، تبدد شغفها بالشيخ وقد وجدت من انتزع منها المفاجأة برؤية الشيخ جاسم، حارت في التركيز بين الاثنين.

تقدم منها الشيخ ونظر نحوها ثم نظر باتجاه الرجل العسكري الذي نهض عن كرسيه وتحرك من وراء المكتب نحوها، أطال النظر إليها بوجهه الذي تكسوه التجاعيد الصلبة رغم لحيته الكثيفة وأنفه الحاد، وبرزت عيناه المتقدتان كأنهما جمرتان مشتعلتان، تقدم منها بضع خطوات ولحق به الشيخ جاسم وقدمه لها قائلاً بنبرة حاسمة.

«جبار الشريف»

للرواية بقية .....

****

يسرا البريطانية

(١)

لاتزال الأحداث جارية حتى هذه الساعة

صدر للمؤلف

- شهرزاد الحلم والواقع (مسرحية)، مجلة الأقلام العراقية.
- الصعود إلى المنحدر الرمادي (مسرحية)، مجلة الأقلام العراقية.
- أبو نواس يرقص الديسكو (مسرحية)، دار الفارابي، ١٩٨٢.
- فنجان قهوة للرئيس (مسرحية)، دار الفارابي.
- سينما التحولات (دراسة نقدية لسينما يوسف شاهين)، دار الربيعان للنشر والتوزيع، الكويت ١٩٨٦.
- كرة الرماد (دراسة)، وزارة الإعلام، البحرين.
- الديمقراطية الإلكترونية (دراسة)، مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع، البحرين، ١٩٩٧.
- الديمقراطية الانقلابية (دراسة في مشروع الإصلاح البحريني)، مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع، البحرين ٢٠٠٥.
- بيضة القمر (رواية)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١.
- قمر باريسي (رواية)، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، ٢٠٠٩.
- الخراف الضالة (رواية)، دار الفارابي، ٢٠١٣.

تحت الطبع:

- رقصة أخيرة على قمر أزرق، رواية.